

واسطة السلوك في سيرة الملوك

مؤلف

الملك أبو حمزة موسى الثاني الزيري

723 هـ - 791 هـ - 1321 م - 1389 م

تحقيق وتعليق

الدكتور محمود بوتريعة



Handwritten text in purple ink, possibly a signature or date, located in the upper right corner of the page.

300 -

دراسات حول نظام الحكم في الإسلام

واسطة السلوك في سياسة الملوك



تأليف: الملك أبو حمو موسى الثاني الزياني

(723 هـ - 791 هـ / 1321 م - 1389 م)

تحقيق وتعليق: الدكتور محمود بوترعة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محفوظة جميع الحقوق

2012

رقم الإيداع: 2011 - 1428

ردمك: 8 - 14 - 302 - 9931 - 978

دار النعمان
للطباعة والنشر

دار الشيماء
للنشر والتوزيع

العنوان: ص. ب 251 برج الكيفان 16411 الجزائر

هاتف / فاكس: 021 21 63 45

Darelnoamane@yahoo.com

العنوان: الشارع الرئيسي نقاوس 05600

هاتف / فاكس: 033 88 77 61

هاتف محمول: 0772 64 25 56

darelchima@hotmail.fr

مقدمة

يكون التراث الفكري لأي شعب أو أمة إحدى أهم عناصر بناء كيانه المعنوي، وتشكل المخطوطات، التي لم نجد ما تستحقه من العناية في بلدنا، الجزء الأكبر من هذا التراث.

وخلال مرحلة إعدادي كتاب في نشأة الفكر السياسي الإسلامي لاحظت كثرة إشارة الكتاب والباحثين من مختلف مشاربهم إلى كتاب مخطوط بعنوان "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمور موسى الثاني، الذي عاش في القرن الثامن الهجري (723 هـ - 791 هـ / 1321 م - 1389 م).

وبعد إكمال كتابي السابق ذكره دفعني الفضول إلى البحث عن هذا المخطوط، وقد يسر الله لي العثور على كتاب للدكتور عبد الحميد حاجيات بحث استعرض فيه حياة أبي حمور وبعض آثاره، وكان مما ذكره كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وأشار إلى أهميته، وكانت تلك الإشارة حافزا آخر على البحث عنه.

وقد وفقني الله إلى الحصول على المخطوط، وعن قراءته تبين لي أنه أحد أهم المخطوطات التي اهتمت بالفكر السياسي في المغرب الأوسط خلال القرون السابقة من حياة الشعب الجزائري؛ بل لعله أهمها على الإطلاق؛ إذ لم أطلع على كتاب ألف في الجزائر في مستوى هذا الكتاب، في مجاله.

إن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" مصدر فكري مهم في مجال السياسة والتاريخ والأدب، لذلك رأيت ضرورة تحقيقه وإخراجه للقراء والباحثين، وذلك مساهمة مني في نفث الغبار عن تراثنا الفكري المخطوط، الذي لم ينل من

التميز والإهتمام بما يستحق، خاصة التراث الفكري في الجزائر والمغرب العربي
عامة.

والله الموفق والمهدي إلى سبيل الرشاد

تمهيداً: تعريف بالمؤلف والكتاب وعملي في تحقيق

المبحث الأول:

التعريف بالمؤلف

يتناول هذا المبحث تحقيق اسم المؤلف ونسبه ونشأته وعمله في سبيل استعادة ملك بني زيان وآثاره، وقسمته إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

المطلب الثاني: عودة أبي حمو إلى تلمسان وبداية بروزه على مسرح الأحداث

المطلب الثالث: آثار أبي حمو

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

الفرع الأول: اسمه ونسبه

مؤلف الكتاب هو موسى بن يوسف بن عبد بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن محمد بن زكرار بن بندوكس بن طاع الله¹ بن علي بن القاسم بن عبد الواد²، ويكنى أبا حمو³.

كما يكنى موسى الثاني، وهذا ما أشار إليه البغدادي عندما ذكر الكتاب فقال: "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، تأليف موسى الثاني بن يوسف بن زيان ملك التلمسان* المتوفى سنة 791 هـ⁴، وفي مصادر أخرى يكنى: أبا حمو موسى الثاني⁵، ويعود نسبه إلى بني عبد الواد⁶.

1 - ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج 7، ص 149.

2 - ن م، ج 7، ص 75.

3 - ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع: <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 444.

* نقل المقرئ عن بغية الرواد في بيان معنى كلمة تلمسان ألفا "تسمى في لغة البربر تلمسن؛ كلمة مركبة من تلم ومعناها: تجمع، وسن ومعناها: اثنان أي الصحراء والتل". نفح الطيب، ج 7، ص 133.

4 - البغدادي إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ج 2، ص 699.

5 - التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل، نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيايد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، عام 1985 م، ص 157.

6 - ذكر يحيى بن خلدون في التعريف ببني عبد الواد أن هذا القبيل له نظم وفضل، وشان وإكرام فيهم، وترام إلى المعالي مع صبرهم لنوازل الخطوب ومطاعنة الدهور، قد خمروا الأيام وابتلوا... الدهور، وسروا الإحلاء والإفراق، فما يراعون لواقع، ولا يهابون بعسر ولا يسر إلا الدين المتين والعفاف والصون المين، والوفاء بالعهد وحفظ الجوار.

ويعود أصل تسميتهم إلى جددهم الذي عرف باسم عابد الواد لرهبانته، وهم خمس قبائل هي: بنو باتكين، وبنو وللو، وبنو مصوغة، وبنو تومرت، وبنو درسطف، وهذه القبائل استوطنت المنطقة الصحراوية الممتدة من سجلماسة إلى أرض الزاب... من إفريقية.

وكان بنو عبد الواد هم أول من أعلن الطاعة لعقبة بن نافع عندما فتح إفريقية وأعانوا جيشه بألف فارس على جيش البربر فنصره الله عليهم واستأصلهم.

وفي العشرينات بعد المئة السادسة للهجرة صاروا يميلون إلى الإقامة في التل بدل الصحراء بسبب ما في التل من خصوبة وحضارة؛ فكان تل تلمسان وجهتهم المختارة.

وينتهي أصلهم بني عبد الواد إلى قبيلة زناتة، وهي قبيلة بربرية¹ استوطنت الشام وهاجروا إلى إفريقيا قبل الإسلام؛ فقد ذكر المؤرخون أن زناتة من البربر الذين كانوا يعيشون في فلسطين على عهد الملك جالوت، ولما قتل جالوت انتقلوا إلى لوبية ومراقيا وهما من كور مصر الغربية ثم تفرقوا فسادت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، إلى الغرب فسكنوا الجبال².

وفي عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان وفد أميرهم صولات بن وزمار على عثمان (ر ض) فعقد له عقد تولية على قومه³، فاختص صولات نتيجة هذا

وخلال فترة استقرار بني عبد الواد في تلمسان كانت الحرب سجالا بين المرينيين والدولة الموحية واستمرت هذا الوضع إلى عام 623 هـ، آخر أيام عبد بن يوسف بن عبد المؤمن، حيث اضطرب حال الدولة الموحية. انظر ابن خلدون - زكريا يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1903 م، ص 94 - 106.

وفي تلك الأثناء كان الحسن بن حيان الكومي عامل تلمسان مسينا جوار بني عبد الواد، وأراد أن ينال منهم فحرض عليهم أبا سعيد عثمان أخ أمير المؤمنين - أمير الدولة الموحية - ادريس المأمون بالقبض على كبار بني عبد الواد، ففعل ذلك واعتقلهم مدة طويلة إلى أن شفع فيهم إبراهيم بن اسماعيل بن علان الصنهاجي شيخ مترجلة لمتونة كانوا يومئذ مستخدمين في تلمسان، فرد شفاعة، فأنف لذلك وجمع قومه فقتل الحسن بن حيان وسرح بني عبد الواد واعتقل مكانهم أبا سعيد وخلع طاعة بني عبد المؤمن ثم حاول أن يجبي ملك لمتونة فأراد أن يقضي على بني عبد الواد، فطلب منهم الاجتماع في المدينة من أجل وليمة عنده، وكان خير مراده قد بلغ بني عبد الواد، فقبضوا عليه وعلى أصحابه ودخل جابر بن يوسف العبد الوادي وقومه تلمسان سنة 627 هـ، فحل دار إمارتها وضبط أمورها واستقل بحكمها، ولم يترك للمأمون - أمير الدولة الموحية - إلا الذكر على المنبر والدينار والدرهم وما أشبه ذلك من المظاهر. وبذلك بدأ حكم بني عبد الواد وزحف جابر على حواظر ذلك القطر سوى ندرومة فزحف إلى حصارها وهلك فيها. وكان ذلك آخر سنة 629 هـ، فولي ابنه الحسن بن جابر، فظاهر عنه بنو راشد وبنو مظهر، فقدم بنو عبد الواد أخاه أمير المسلمين بغمراسن بن زيان وبايعوه بيعة الملك المستقل وخلعوا بني عبد المؤمن.

انظر - التنسي، نظم الدر والعقبان، ص 113.

ويحيى بن خلدون، بغية الرواد، ص 107.

1 - انظر - ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج 2، ص 228.

والذهبي، العبر في خبر من غير، ج 1، ص 197.

2 - انظر - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 461.

وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج 2، ص 123.

* ادعى بعض المنتمين إلى زناتة مثل أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أنهم من العرب كما ادعى بعض بني زيان ملوك تلمسان ذلك، غير أن ابن خلدون رفض هذا الإدعاء، وقال: (يلعب عن بغمراسن بن زيان مؤسس سلطاتهم أنه لما قيل له ذلك أنكروه وقال بلغته الزبانية ما معناه: أما الدنيا والملك فلماهما سيوفها لا بهذا النسب وأما نفعهما في الآخرة فمردود إلى الله). ابن خلدون، التاريخ، ج 1، ص 132.

3 - الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ت د، ج 2، ص 209.

العقد وسائر الأحياء من مغرارة، وهي إحدى فروع زنانة، بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية.

وكانت هذه القبيلة متكونة من عدة فروع؛ فكانت فروع الطبقة الأولى هي:

جرارة، وهي قوم الكاهنة* الذين كانوا ذوي سلطان وانقضى أمرهم في الفتح الإسلامي، ومنهم: قوم صولات بن زومار الذي عقد له عثمان بن عفان على ولاية قومه وقد استمر سلاطنتهم إلى أن غلبتهم صنهاجة، فانتقلوا إلى المغرب وأسسوا عدة إمارات في تلمسان وفاس وسجلماسة؛ منهم بنو يلو وبنو ومانو، أما الطبقة الثانية من فروع زنانة فهي بنو مرين ملوك فاس وبنو عبد الواد ملوك تلمسان وبنو توجين أصحاب وانشرس².

ولكن فروع قبيلة زنانة انتشرت في أنحاء واسعة امتدت من الأوراس شرقا إلى إمارات في فاس وسجلماسة وتلمسان، كما تمكنوا من تأسيس إمارة في طرابلس⁽³⁾، وهذا يدل على امتدادهم كتحاوز حدود الأوراس شرقا، ومن هنا يتضح أن أبي حمو موسى الثاني ينتسب إلى أكبر قبيلة بربرية في شمال أفريقيا، وأن أصل هذه القبيلة يعود إلى فلسطين.

1 - ابن خلدون عبد الرحمن، التاريخ، ج 7، ص 24.

* كان موطن جرارة في الأوراس. الميلي، م س، ص 211.

2 - الميلي، م س، ص ص 210 - 211.

3 - ن م، ص 210.

الفرع الثاني: نشأة أبي حمو

تحدث ابن الخطيب عن ميلاد أبي حمو فقال: (ولد بمدينة غرناطة حسبما وقعت عليه بخط الثقة من ناسه في أول عام ثلاثة وعشرين وسبعمئة)¹.

وفي نفس السنة عاد به والده إلى تلمسان بدعوة من عمه أبي تاشفين الأول* ملك بني زيان².

وكان هذا الملك يميل إلى الحرب³، وخاض الكثير منها منذ توليه الحكم عام 718 هـ، كما كان ولعا ببناء الدور والمنزهات حتى وصف يحيى بن خلدون ما أنجزه بأنه (آثار لم تكن قبله لملك، ولا عرف لها بمشارك الأرض ومغارها نظير)⁴.

ولعل هذا ما جعله يدعو أبا يعقوب يوسف والد أبي حمو وإخوته الآخرين أبي سعيد وأبي ثابت وإبراهيم⁵ بالرجوع إلى تلمسان، غير أن أبا يعقوب أعرض عن كل ما يتعلق بالإمارة وعن الدنيا وأقبل على الآخرة⁶، واتخذ من ندرومة مقرا له وتفرغ للعبادة⁷.

وفي ندرومة نشأ أبو حمو بعيدا عن بلاط الملوك، ولم تذكر المصادر التاريخية أية معلومات عن أبي حمو في طفولته وحياته في ندرومة⁸؛ غير أن ما كان عليه حال حال والده من عزوفه عن الدنيا وملذاتها، خاصة وأنه من العائلة المالكة، سيكون له أثره الطيب على حياته ومواقفه.

1 - ابن الخطيب، م س، ج 1، ص 446.

* بويغ ابن تاشفين الأول على حكم الزيانيين يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة 718 هـ. بغية الرواد، ص 133.

2 - د. حاجيات، م س، ص 134.

3 - انظر: نظم الدر والعقيان، م س، ص ص 143 - 146.

4 - بغية الرواد، ص 134.

5 - ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، ص 74.

6 - نظم الدر والعقيان، ص 149.

7 - بغية الرواد، ص 151.

8 - ذكر الزركلي في الأعلام أن أبا حمو (نشأ ذكيا فطنا أديبا يقول الشعر). انظر الزركلي حو الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د ت، ج 7، ص 325.

وخلال سنة 735 هـ استولى السلطان المريني أبو الحسن على ندرومة¹، موطن أبي حمو، وبدأت منذ هذا التاريخ مرحلة السيطرة على بني زيان. وفي سنة 737 هـ سيطر المرينيون على تلمسان عاصمة الدولة الزيانية وقتلوا ملكهم أبا تاشفين الأول وأولاده جميعا ووزيره²، وبذلك سقطت الدولة الزيانية. وقد حاول السلطان المريني أبو الحسن إسكات صوت بني زيان فاستخدم بني عبد الواد وحفظ لهم رتبته، وأبقى لقبائهم ما أبقوه من المراسم تفاخرا بأنه أصبح ملكا وبني عبد الواد كلها*، وجعل الإمرة في يد أبي سعيد وأبي ثابت ابني تاشفين، الذي أطاح بملكه وقتله، كما عرض الأمر على أبي يعقوب والد أبي حمو غير أنه رفض ذلك، لكونه قد ابتعد عن السياسة منذ هجرته من الأندلس عام 723 هـ، وتفرغه للعبادة في ندرومة³.

وقد وصف ابن خلدون وضع بني زيان بعد السيطرة المرينية فقال: (مضت الأيام وهم بين بني مرين لبب محمود، وصارم مغمود، والأكباد تنفطر غيرة،

1 - ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج 1، ص 140.

2 - كان ذلك يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة 737 هـ.

انظر: - التنسي محمد بن عبد الله، م س، ص 146.

بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 5، ص 44.

* بنو عبد الواد وبنو مرين قبيلتان يعود أصلهما إلى قبيلة زناتة البربرية، ولذلك ولي أبو الحسن المريني أبا سعيد وأبا ثابت الأمر حتى يظهر أنه لم يخضع قبلة لأخرى، وهذا ما جعل أبي سعيد وأبي ثابت يوافقان على التولية في الظاهر إلى أن وجدت الظروف المناسبة لمحاربه فأعلنوا الحرب على السلطان المريني وإلحاق الهزيمة به.

انظر: نظم الدر والعقبان، ص ص 152 - 154.

3 انظر: - التنسي، نظم الدر والعقبان، ص ص 149 - 152.

- يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص ص 143 - 144.

* شازرة: قال ابن منظور في بيان معنى كلمة شازرة: (شززه يشززه شزرا وشزر إليه نظر منه في أحد شقيه ولم يستقبله وجهه، ابن الأنباري: إذا نظر بجانب العين فقد شزر يشزر، وذلك من البعوضة والهمية، ونظر إليه شزرا وهو نظر الغصان نحو العين، وفي لفظه شزر بالتحريك وتشازر القوم أي نظر بعضهم إلى بعض شزرا، الفراء: يقال شزرت أشزره شزرا ونزرت أنزره نزرا أي أصبته بالعين وإنه لحمى العين ولا فعل له وإنه لأشبه العين إذا كان حيث العين). محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، د ت، مادة شزر.

والقلوب تتحرق حنقا، بالعيون شازرة* والألسن هامسة، إلا أن الصبر مستشعر،
والخضوع والتسليم مستظهران للظفر¹.

وهذا يشير إلى أن بني زيان وإن كان بعضهم خاصة أبي سعيد وأبي ثابت
أظهروا الرضا بالوضع القائم إلا أن ذلك لم يكن سوى انتظارا للوقت المناسب
للاتفاضة ضد السلطان المريني أبي الحسن.

واستمر الخضوع للسيطرة المرينية دون إظهار أي رفض أو معارضة لها إلى عام
748 هـ².

ويبدو أن أبا حمو قد أقام خلال هذه الفترة بعض الوقت في فاس؛ فقد قال ابن
الأحرر: (أدركته بفاس وهو يسكن بها في عين أصليتين يتعيش برد الفلك
للمفكوكين، وذلك في دولة المولى أمير المسلمين أبي الحسن المريني، ورأيت بفاس
أباه يوسف بن عبد الرحمن بعد الهزيمة عليهم بأنجاد وهو في حانوت بالسقاطين يبيع
السقط)³.

ولم يذكر المؤرخون مدة إقامة أبي حمو بفاس التي انتقل إليها صغيرا لا يتجاوز
عمره أربعة عشر سنة⁴.

**المطلب الثاني: عودة أبي حمو إلى تلمسان وبداية برونزه على مسرح
الأحداث.**

الفرع الأول: عودته إلى تلمسان

-
- 1 - بغية الرواد، ج 1، ص ص 143 - 144.
 - 2 - ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج 1، ص 144.
 - 3 - ابن الأحرر أبو الوليد إسماعيل، تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة
الدينية، القاهرة، ط 1، 2001، ص 81.
 - إن قول ابن الأحرر أدركت أبا حمو نفاس بعد الهزيمة يفيد أنه انتقل إليها بعد سنة 737 هـ، لكون الهزيمة
وقعت في هذه السنة، لذلك فإن عند انتقاله إلى فاس كان عمره أربعة عشر سنة لأن ميلاده كان سنة 723
هـ والهزيمة وقعت سنة 737 هـ.
 - 4 - أشار الدكتور عبد الحميد حاجيات إلى أن انتقال أبي حمو ووالده وكثير من أفراد قبيلته إلى فاس كان
على غير إرادة منهم بل كان نفيًا.
 - انظر الدكتور حاجيات، م س، ص ص 71 - 72.

لم يذكر المؤرخون تاريخ عودة أبي حمو من فاس إلى وطنه تلمسان، وقد ذكر الدكتور حاجيات أن رجوعه إلى تلمسان ربما كان عام 750 هـ¹، وقد وردت بعض النصوص الدالة على رجوعه خلال هذه الفترة وربما قبلها بقليل.

ومن تلك النصوص ما ذكره يحيى بن خلدون؛ كقوله: (لما حلت الطامة الكبرى بالسلطان المرحوم أبي تاشفين وصار ملك تلمسان إلى السلطان أبي الحسن - المريني - استخدم قبيل عبد الواد... وحفظ عليهم رتبهم... فمضت الأيام وهم بين بني مرين لب محمود وصارم مغمود...)

وكانت أمورهم يومئذ متوسمة في الأخوين السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت... لإعراض أخيهما أبي يعقوب - والد أبي حمو - عن الدنيا وإقباله على الآخرة حتى أذن الله بحركة السلطان أبي الحسن - المريني - إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبع مئة².

يتحدث يحيى بن خلدون في هذا النص عن وجود والد أبي حمو في تلمسان قبل عام 748 هـ، وهذا يفيد أن أبا حمو كان موجودا فيها قبل هذا التاريخ خاصة وأن أبا حمو عاد إلى وطنه تلمسان مع والده كما ذكر حاجيات نفسه⁽³⁾ لذلك فإنه ن المرجح أن تكون عودته قبل عام 748 هـ، لأن والده عاد قبل هذا العام وهو كان معه.

الفرع الثاني: بداية ظهور أبي حمو على مسرح الأحداث، ثم وصوله إلى منصب الملك.

استمر خضوع الزيانين لسلطان بني مرين أبي الحسن المريني منذ عام 737 هـ، ولما أحس هذا السلطان باستقرار الوضع أراد أن يتوسع شرقا فاتجه نحو تونس

1 - قال الدكتور حاجيات: (لا تذكر المصادر تاريخ مغادرة أبي حمو لفاس، ورجوعه إلى وطنه، والظاهر أنه قدم منها إلى تلمسان مع أبيه وابن عمه أبي زيان بن أبي سعيد في أوائل سنة 750 هـ).

انظر: حاجيات، م س، ص 73.

2 - بغية الرواد، ج 1، ص 144.

قارن بما ذكره النسي في نظم الدر والعقبان، ص 149.

3 - د. حاجيات، م س، ص 73.

سنة 748 هـ، وكان معه الأميران أبو سعيد وأبو ثابت عما أبي حمو وبنو عبد الواد، فتمت له السيطرة عليها وعلى أمصارها، واشتدت وطأة أبي الحسن على قبيلة سليم وأحلافهم فبايعوا أحمد بن أبي دهرس أميراً عليهم في القيروان، فتوجه إليهم أبو الحسن المريني لإنهاء معارضتهم، وهنا استغل الأخوان أبو سعيد وأبو ثابت الفرصة وتعاونوا مع العرب على مقاتلة أبي الحسن المريني، ولما تراءى الجمعان قرب القيروان يوم الاثنين سابع محرم سنة 749 هـ، تمكنوا من إيقاع الهزيمة بالسلطان أبي الحسن، وهنا طمح بنو عبد الواد إلى إعادة إحياء دولتهم فبايعوا أبا سعيد ملكاً، وكان ذلك في آخر شهر ربيع الأول سنة 749 هـ¹، أما أبو حمو فإنه قد استقر مع والده في ندرومة بعيداً عن كل نشاط سياسي، وتزوج خلال هذه الفترة وولد له ابنه أبا تاشفين علم 752 هـ²، غير أن هذا الوضع لم يدم طويلاً، فقد انظم أبو حمو إلى عمه أبي ثابت في حروبه ضد المرينيين ومن شايعهم؛ فذكر ابن خلدون أن أبا حمو حضر المعركة التي دارت رحاها خلال سنة 753 هـ في وادي شلف بين بني عبد الواد وبونزمار بن عريف ومن معه من العرب، وكانت فيها هزيمة بني عبد الواد الزيانيين، وفر أبو ثابت وابن أخيه أبو حمو في بزة منكراً وتم اعتقال أبي حمو وأبي ثابت في بجاية من طرف حاكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي، وكان مؤيداً للسلطان المريني أبي عنان، ونقل أبو ثابت إلى تلمسان وأمر أبو عنان بقتله فقتل³، وأما أبو حمو فقد أطلق سراحه لعدم التعرف عليه، فاتجه نحو تونس متنكراً في ثوب حتى وصلها⁴ يوم السادس من شوال عام ثلاث وخمسين بعد سبعمئة⁵، فاستقبله السلطان أبو إسحاق بن أبي يحيى الحفصي

1 - انظر:

- التنسي، م س، ص ص 149 - 150.
- ابن خلدون، بغية الرواد، ص ص 144 - 147.
- 2 - د. حاجيات، م س، ص 73.
- 3 - بغية الرواد، ج 1، ص ص 161 - 162.
- 4 - التنسي، م س، ص 157.
- 5 - د م و ص، هامش رقم 293.

وحاجبه ابن تافراكين استقبال الأمراء، وأقام عندهما مكرما يجرى عليه، وأحله
بمكان أعيان الملك من مجلس سلطانه¹، فبقي خمس سنوات عنده².

وخلال هذه المدة كان السلطان المريني أبو عنان الذي استولى على دولة بني
زيان يطلب من أبي إسحاق الحفصي طرد أبي حمو وإخراجه من بلاده، إلا أن أبا
إسحاق كان يرفض ذلك، وهو ما عجل باحتلال تونس من طرف أبي عنان عام
758 هـ، وفر أبو حمو والسلطان أبو إسحاق الحفصي إلى الجريد جنوب إفريقية
(تونس)³، وكان فرارهما سنة 759 هـ⁴.

الفرع الثالث: بداية العمل لاستعادة ملك بني زيان.

بعد فرار أبي حمو موسى مع أبي إسحاق سلطان تونس إلى منطقة الجريد في
الجنوب التونسي بدأ يحضر لاستعادة ملك أجداده الزيانيين؛ فبدأ بإقامة علاقات
طيبة مع رؤساء القبائل التي كانت مستقرة هناك، ومنهم: قبيلة الزواودة⁵ ولم يدم
الاحتلال المريني لتونس طويلا، إذ سرعان ما عاد أبو حمو وأبو إسحاق إليها⁶.

وفي نفس السنة (أي 759 هـ) التي فر فيها أبو حمو إلى الجريد اجتمع
الزواودة إلى الحاجب ابن تافركين ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بالعرب من
زغبة وأنهم ركابه لذلك ليحلب على نواحي تلمسان ويجعل السلطان أبي عنان
يشغل عنهم، ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة من بني عامر⁷، وورد على
على أبي شيخ بني عامر بقبيلة بني عامر، وجماعة من زناتة⁸، كما ورد عليه بعض
من الزواودة، وبنو سعد، وطالبوا بالذهاب إلى تلمسان لاستعادتها من السلطان

1 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122.

2 - د. عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، عام 2002، ج 1، ص 53.

3 - د. عبد العزيز فيلاي، م س، ص 53.

4 - ابن خلدون، التاريخ، ج 7، ص 122.

5 - د. فيلاي، م س، ص 53.

6 - التنسي، نظم الدر والعقيان، م س، ص 157 - 158.

7 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122.

8 - التنسي، م س، ص 158.

المريني¹، فارتحلوا بعد عيد الفطر من عام 759 هـ (فيلالي، ج 1، ص 54) مغربين على جبل عياض، ومنه توجهوا إلى الأوراس، ثم توجهوا إلى الزاب² ووارجلا؛ فكانوا يسرون عشرة لم يخلوا فيها سرجا ولا حطوا رجلا³، فأتبعه نحو الشمال الغربي وحط رحاله بوادي زرقون وعسكر فيه عدة أيام للراحة والاحتفال بعيد الأضحى، ثم واصل طريقه متتبعا آثار أعداء بني زيان، فهاجم في ذي الحجة عام 759 هـ عرب سويد وقتل قائدهم عثمان بن ونزمار بن عريف الذين كانوا في منطقة وادي ملال جنوب مدينة تلمسان وطردهم سويد منها⁴، وعند ذلك تمت مبايعة أبي حمو من طرف من كان معه من العرب وغيرهم من بني زيان، وكان ذلك يوم الخامس من محرم عام 760 هـ⁵.

وفي اليوم السادس من نفس الشهر بلغ أبا حمو خبر وفاة السلطان أبي عنان المريني الذي كان يسيطر على تلمسان⁶ فقويت بذلك عزيمته لاسترجاع ملك الزيانيين، فواصل سيره نحو تلمسان ولما وصل إلى المكان المسمى أوماكرا* بلغت أخباره إلى أهل تلمسان فجاءت وفودهم أبا حمو من كل حذب⁷، فتوجه أبو حمو نحو تلمسان ونزل بساحتها وحاصرها ثلاثة أيام، وفي صبيحة اليوم الرابع اقتحمها، فخرج ابن السلطان أبي عنان المريني منها، ودخل السلطان أبو حمو موسى

1 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122

2 - الزاب: كلمة كانت تطلق على منطقة واسعة من افريقية تشمل بسكرة وتوزر وقسيلية وطولقة وقفصة وقفصة ونفزاوة ونقطة.

انظر السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد، أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت، 1963، ج 1، ص 120.

3 - التنسي، م س، ص 158.

4 - د. فيلالي، م س، ص 54.

5 - التنسي، م س، ص 159.

6 - ن م و ص، هامش رقم 302.

* أوماكرا: هذا المكان يوجد بالقرب من تل أبي راشد شرق تلمسان، ن م، ص 303.

7 - التنسي، م س، ص 303.

لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة 760 هـ، واحتل قصر الملك واقتعد أريكته وبويع بيعة الخلافة ورجع إلى النظر في تمهيد قواعد ملكه وإخراج بني مرين من أمصار مملكته¹.

وبذلك بدأت ولاية أبي حمو كسلطان لبني زيان على تلمسان.

وقد صف ابن الخطيب أبا حمو فقال: (هذا السلطان مجمع على حزمه، وضمه لأطراف ملكه. واضطلعه بأعباء ملك وطنه، وصبره لدولة قومه. وطلوعه بسعادة قبيله. عاقل، حازم، خفيف، ثابت الجأش، وقور مهيب، جماعة للمال، مباشر للأمور، هاجر للذات، يقظ، متشمر. قام بالأمر غرة ربيع الأول في عام ستين، مرتاش الجناح بالأحلاف من عرب القبلة، معولاً عليهم عند قصد عدوه، وحلب ضرع الجباية، فأثرى بيت ماله، ونهت دولته، واتقته جيرته، فهو اليوم ممن يشار إليه بالسداد)².

1 - ابن خلدون، التاريخ، ج 7، ص ص 122 - 123.

قارن: التتسي، نظم الدر والعقبان، ص 159.

2 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 444.

المطلب الثالث: آثار أبي حمو موسى

لم يذكر المؤرخون المعاصرون له، خاصة المقربين منه مثل ابن يحيى بن خلدون الذي كان كاتبه، أي شيء عن كيفية تعلمه ولا شيوخه، مع أن ابن خلدون خصص الجزء الثاني من كتابه "بغية الرواد" لحياة أبي حمو¹، والظاهر أنه أخذ العلم في فاس زمن إقامته فيها، فقد ارتحل إليها وسنه لم يتجاوز الرابعة عشر، وكان ذلك سنة 735 هـ، ولم تثبت عودته إلا حوالي عام 749 هـ²، ومعلوم أن مدينة فاس في ذلك العهد كانت موطنًا للعلماء والأدباء³.

وصفه الزركلي فقال: (نشأ ذكيا فطنا أدبيا يقول الشعر)⁴.

قال المقرئ: (كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ويحب أهله)⁵.

ولاهتمامه بالأدب وتقريب أهله كان الأديب الشاعر ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب مهتما بشعره، وعزم على زيارته ولم يتمكن من ذلك، فقال: (لما تعرفت كلفه - إشارة إلى ابن حمو - بالأدب والإلمام بمجاورته عزمت على لقائه وتشوقت عند العزم على الرحلة الحجازية إلى زيارته، ولذلك كنت أخاطبه بكلمة منها: على قدر قد جئت قومك يا موسى... فجئت بك النعمى وزالت بك البوسى؛ فحالت دون ذلك الأحوال)⁶.

1 - بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج 2، تحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات، نشر

2 - انظر الدكتور حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، م س، ص ص 72 - 73.

3 - استمرت فاس عاصمة للدولة المرينية طيلة عهدها، فكانت، كما قال ابن خلدون: (حاضرة ملكهم وكرسي سلاطهم حيث مقر الهدى ورياض المعارف خضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى). تاريخ ابن خلدون، ج 1، ص ص 8 - 9.

4 - الزركلي، الاعلام، ج 7، ص 325.

5 - المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، موقع الوراق، وعنوانه:

www.Al.warraq.com، ص 83.

6 - ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 441.

عاش أبو حمو، قبل توليه ملك بني زيان سنة 760 هـ حياة متنوعة الثقافة؛ فقد كانت طفولته مع والده أبي يعقوب، الذي اختار الإقامة في نادر ومة، بعيدا عن تلمسان عاصمة الدولة الزيانية.

لقد فضل أبو يعقوب والد أبي حمو حياة الزهد والتفرغ للعبادة عن حياة الرفاه وبلاد الملوك.

واستمر مدة إقامته في ندرومة من عام 723 هـ إلى 735 هـ، حيث ارتحل أبو يعقوب، ومعه ابنه أبو حمو ذو الأربعة عشر ربيعا، إلى فاس عرف خلالها أبو حمو أنواع الحرمان، وآلام الاغتراب¹، وكان يتعيش برد الفك للمفكوكين في عهد أبي الحسن المريني².

وعندما عاد من فاس حوالي عام 749 هـ، وكان عمره ستا وعشرين سنة، انضم إلى عميه أبي سعيد وأبي ثابت في حربهما ضد المرينيين وانتهى به المطاف هاربا متكررا في بلاد السلطان الحفصي أبي إسحاق سنة 753 هـ، وأحله هذا الأخير محلا يليق به، فقد أنزله منزلة الأمراء، وأجلسه في مجلسه وأجرى عليه³، واستمر هذا الوضع خمس سنين⁴، اضطر بعدها للفرار سنة 758 هـ إلى منطقة الجريد في الجنوب التونسي ليعيش في ضيافة القبائل الصحراوية ويقيم معهم علاقات ساعدته على محاولة استعادة ملك بني زيان من الاحتلال المريني وتم له ذلك في وقت قصير لم يتجاوز الستين حيث تمكن من إسقاط الحكم المريني على تلمسان وعين ملكا سنة 760 هـ.

1 - انظر: د. حاجيات، م. س، ص 72.

2 - د. م. و. ص.

3 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 122.

4 - د. فيلال، م. س، ص 53.

إن هذه الظروف التي عاشها أبو حمو ساهمت في تكوين شخصيته وثقافته؛
فطفولته تعلم منها الدين وحب الله ورسوله، ومعاناته في الاغتراب وحروبه
أكسبته صفات الشجاعة والحزم والاعتماد على الذات، وتخالطه الملوك ورجال
السياسة والفكر علمته حزم الملوك وعاطفة الشعراء ورزانة الحكماء، ومن هنا
جمعت آثاره بين الشعر والحكمة في الكتابة والإبداع في العمران.

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه ومدحه

أتى كثير من العلماء على أبي حمو وما انصف به من أخلاق الكرم والحزم¹ ومدحوه بقصائد شعرية كثيرة، ومن هؤلاء العلماء أذكر على سبيل المثال: الفقيه الخطيب الشاعر ذو الورارتين لسان الدين ابن الخطيب، والكاتب الشاعر أبو زكرياء يحيى بن مخلدون، والفقيه الشاعر النائر أبو عبد الله بن يوسف الثغري، والفقيه الشاعر محمد بن جمعة الشهير بالثعاليسي.

ومن قصائدهم التي مدحوا فيها أبا حمو ما يلي:

أولاً- من قصائد ابن الخطيب وأقواله:

كان ابن الخطيب من أكثر الشعراء إعجاباً بشخصية أبي حمو ومخاطباته كثيرة جداً²، مع أنه لم يلتق به، وكان يريد مقابله عندما أراد أن يذهب إلى الحجاز مروراً بتلمسان، ولم يوفق إلى ذلك بسبب ظروف خاصة³.

وقد نظم ابن الخطيب العديد من القصائد الشعرية مدح فيها أبا حمو، كما نقلت عنه الكثير من الكتابات التي جاءت لنفس الغرض أذكر بعضها منها.

أ - من القصائد

من القصائد التي نظمها ابن الخطيب في مدح أبي حمو على سبيل المثال:

1 - قال ابن الخطيب: (السلطان أبو حمو موسى بن الأمير أبي يعقوب يوسف... كان... متفقها على خلال الكرم والحزم، مضطلماً بأمر، والقيام على ما بيده).

انظر الإحاطة، ج 1، ص 155.

2 - أزهار الرياض، ص 87.

3 - انظر (فيما سبق).

* السدف: قال الصاحب بن عباد: (السدف: ظلام الليل، وقد أسدف الليل. وسواد الشخص تراه من بعيد. والضوء أيضاً، وهو من الأضداد، وأسدف الليل: أضاء)، المحيط في اللغة، منشور على موقع الوراق، ج 2، ص 253.

* القدود: جمع قد وهو القوام، قال الرعشري: (جارية حسنة القد وهو القوام، كما يقال: حسنة النقط، وهي مقدودة)، أساس البلاغة، ج 1، ص 368.

* أدواح: جمع دوح وتعني الشجرة العظيمة، كما تعني البطن الممتلئ، قال الصاحب بن عباد: (الدوح: الشجر العظيم، الواحدة: دوحة عظيمة. وانداح بطنه وداح: أي عظم وامتلأ)، م س، ج 1، ص 244.

1 - قصيدة مطلعها:

اطلعن في سدف* الفروع شمسها... ضحك الظلام لها وكان عبوسا
وعطف قضا للقدود* نواعم... بولن أدواح* النعيم غروسا¹.
وهذه القصيدة طويلة عرفت بالسينية، وجهها ابن الخطيب إلى أبي حمو عندما
أحسن بتغير سلطانه عليه فجعلها مقدمة بين يدي نخواه لتمهد له مشوى، وتحل له
المستقر إذا أجه الأمر إلى المفر².

2 - قصيدة أخرى مطلعها:

لقد زار الجزيرة منك بحر... يمد فليس تعرف منه جزرا
أعدت لها بعهدك عهد موسى... سميك فهي تلو منه ذكرا³
وهذه القصيدة خاطب بها ابن الخطيب أبا حمو يشكره على ما كان أعان به
أهل الأندلس⁴.

3 - قصيدة أخرى مطلعها:

يا إمام الهدى وأي إمام... أوضح الحق بعد خفاء رسمه
أنت عبد الحكيم حلمك نرجو... فالمسمى له نصيب من اسمه⁵

ب - جزء من نص نثري لابن الخطيب في مدح أبي حمو

مما كتبه ابن الخطيب في مدح أبي حمو نص نثري مطول، منه قوله: (أبقى الله
أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع والثناء المسموع والملك المنصو

1 - هذه القصيدة طويلة أوردتها المقرئ في كتابه أزهار الرياض، ص ص 83 - 84، وسنورها كاملة في
اللاحق.

2 - أزهار الرياض، ص 83.

3 - ن م، ص 87.

4 - ن م و ص.

5 - أزهار الرياض، ص 87.

الجموع * نفثه من باح بسر هواه ولى دعوة الشوق العاثر بلبه * وقد ظفر من
 يهدي حمر جواه إلى نخل هواه * ويخلص بعثت حينه إلى مثير أريجته * وهي
 بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال الشاذ عن الآمال عنوان من الكتاب وذوق
 من أوقار ذات أفتاب وإلا فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه أو يكافئ إحسانها
 إحسانه أو يستقل بوصفها براعه أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه * ولا مكابرة بعد
 الاعتراف والبحر لا ينفذ بالاعتراف لا سيما وذاتكم اليوم والله يبقها * ومن
 المكارة يبقها * وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقها * يا قوتة اختارها
 واعتبرها ثم بلاها بالتحميم في سبيل التخصيص واختبارها * وسبيكة خلصها
 وسجرها فخلصها بسجره من الشوب * وأبرزها من لباب الذوب * وقصرت
 عن هذا الأثمان وسر بصدق دعواه البهرمان * ليفاضل بين الجهام والصيب ويميز
 الله الخبيث من الطيب فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة * وعرفكم بنفسه
 في حال الشدة ثم فسح لكم بعد ذلك في المدة لتعرفوه إذا دال الرخاء وهبت بعد
 تلك الزعازع الريح الرخاء * وملاككم من التجارب وأوردكم من أطفاه أعذب
 المشارب * ونقلكم بين الزمان وإحالاته ولم يسلبكم إلا حقيرا عند أوليائه *
 وأعادكم المعاد المطهر * وألبسكم من أثواب اختصاصه العلم المشهور * فأنتم اليوم
 بعينه العناية بالإفصاح والكناية * وقد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف
 بالجنانية * فإن كان الملك اليوم علما يدرس وقوانين في قوة الحفظ تغرس وبضاعة
 برصد التجارب تحرس فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة وأصمعي شعوبه المنسوبة إلى
 ما حزتم من أشتات الكمال المربية على الآمال * فالبيت علوي المنتسب والملك بين
 المورث والمكتسب والجود يعترف به الوجود * والدين يشهد به الركوع والسجود
 * والبأس تعرفه التهائم والنجود * والخلق يحسده الخلق الجود والشعر يغترف من
 عذب نعيم * ويصدق من قال بدى بأمير وختم بأمير وإن مملوككم حوم من
 بابكم على العذب البرود فعاقه الدهر عن الورود واستقبل افقه ليحقق الرصد
 ولكنه أخطأ القصد * ومن أخطأ الغرض أعاد ورجا من الزمان الإسعاد فرما خبي
 نصيب أو كان مع الخواطي سهم مصيب وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز

فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز * وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب * ومنعت
 الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب * ومن طلب الأيام أن تجري على
 اقتراحه وجب العمل على اطراحه * فإنما هي البحر الزاخر الذي لا يدرك منه
 الآخر والرياح متغايرة والسفينة الحائرة فتارة يتعذر من المرسى الصرف وتارة تقطع
 المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف * هذا إن سالمها عطبها واعقى من الوقود
 حطبها * ولقد علم الله عز وجل إن لقاء ذلك المقام الكريم عند الملوك تمام
 المطلوب ممن يجبر كسر القلوب فانه مما انعقد على كماله الإجماع * وصح في
 عوالي معاليه السماع * وارتفعت في وجوده مقاله الأطماع أخلاقا هذبها الكرم
 الرضاح وسجية كلف بها إكمال الفضاح * وحرصا على الذكر الجميل وما
 يتنافس فيه إلّا من سمت هممه وكومت ذممه وألفت الخلد زممه * إذ الوجود سراب
 وما فوق التراب تراب * ولا يبقى إلّا عمل راق أو ذكر بالجميل يسكر في أوراق
 حسبا قلت من قصيدة كتبها على ظهر مكتوب وضوع أشار به من كانت له
 طاعة فوفت بمقترحه استطاعه * ... والرغبة من مقامكم الرفيع الجنب أن يمكنها
 من حسن المثاب فتحظى بحلول ساحتها ثم بلثم راحتها ثم بالإصغاء ولا مزيد للابتغاء
 إلى أن ترتفع الوساطة * وتغنى عن التركيب البساطة * وينسى الأثر بالعين
 ويحسن الدهر قضاء الدين...¹

ثانيا: من قصائد يحيى بن خلدون:

كان يحيى بن خلدون كاتباً للسلطان أبي حمو وحاجبه²، وهذا جعله يطلع
 على كل صغيرة وكبيرة في بلاط الدولة الزيانية، وكتب عنها كتابه الشهير "بغية
 الرواد في ذكر دولة بني عبد الواد" وخصص الجزء الثاني من الكتاب لأبي حمو، وما
 اتصف به حكمه وإنجازاته³.

- 1 - ذكرها المقرئ في أزهار الرياض، ص 86.
- 2 - تولى يحيى بن خلدون منصب كاتب السلطان أبي حمو باقتراح من أخيه عبد الرحمن بن خلدون، وذلك
 عندما كان عبد الرحمن مقيماً في بسكرة وأرسل إليه أبو حمو يدعو لتولي المنصب المذكور فاعتذر واقتراح
 تولية أخيه، فوافق أبو حمو وولاه، انظر: تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 420، 421.
- 3 - الجزء الثاني من بغية الرواد حققه ألفرد بل ونشرته مطبعة فونتانا الشرقية في الجزائر سنة 1910.

كما كتب يحيى العديد من القصائد الشعرية التي مدح فيها السلطان أبي حمور،
ومن تلك القصائد أذكر على سبيل المثال:

1- قصيدة مطلعها:

ما على الصب* في الهوى من جناح... أن يرى حلف عبدة وافتضاح
وإذا ما أعجب عيا اصطبار... كيف يصغي إلى نصيحه لاح¹

هذه القصيدة كتبها يحيى بن خلدون وقدمها للسلطان أبي حمور في الاحتفال
بالمولد النبوي سنة ثمان وسبعين وسبعمئة².

1 - قصيدة مطلعها:

أخليفة الرحمن والملك الذي... تعنو* لعز علاه أملاك البشر

لله مجلسك الذي يحكى علا... بك مالكي أفق السماء لمن نظر³

وهذه القصيدة كذلك كتبها ابن خلدون لأبي حمور في الولد النبوي سنة سبع
وستين وسبعمئة⁽⁴⁾.

ثالثا- من قصائد الفقيه الشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري⁵.

* الصب: قال ابن منظور: (اصطب الماء: اتخذ لنفسه على ما يجيء عليه عامة هذا النحو حكاة سيويه، والماء
ينصب من الجبل ويتصب من الجبل أي يتحدر، وصب في الوادي: انحدر.
وفي حديث الطواف: حتى إذا انصبت قدماء في بطن الوادي أي انحدرت في السعي). لسان العرب، مادة
صب.

1 - المقرئ، نفح الطيب، ج 6، ص 510، انظر القصيدة كاملة في الملاحق.

2 - المقرئ، نفح الطيب، ج 6، ص 510.

* تعنو: تظهر.

انظر الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، م س، ج 24، ص 8513.

3 - المقرئ، نفح الطيب، ج 6، ص 515.

انظر القصيدة كاملة في الملاحق.

4 - ن م و ص.

5 - الثغري كان كاتباً للسلطان أبي حمور. المقرئ، نفح الطيب، ج 7، ص 121.

نظم الثغري عدة قصائد في مدح السلطان أبي حمو، منها:
1- قصيدة طويلة هذا مطلعها:

تاهت تلمسان بحسن شباهما... وبدا طراز الحسن في جلباهما
فالبشر يبدو من حجاب ثغورها... مبتسما أو من ثغور حباهما¹
2- قصيدة أخرى لأبي يوسف الثغري مطلعها:

قم مبصرا زمن الربيع المقبل... تر ما يسر المجتني والمجتلي
وانشق شيم مطلولا وما... أهداك من عرف وعرف فاقبل².
3- قصيدة أخرى مطلعها:

أيها الحافظون عهد الوداد... جددوا أنسنا بباب الجياد
وصلوها أصلا ثلا بليال... كلال نظمن في الأجياد³.
رابعا: من قصائد التاليسي:

نظم أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التاليسي قصيدة مدح فيها السلطان أبا حمو، مطلعها:

لي مدمع هتان... ينهل مثل الدرر
قد صيد الأجفان... ما إن لها من أثر
حق له يجري... دما على طول الدوام⁴

1 - المقرئ، نفح الطيب، ج 7، ص 125.

2 - ن م، ج 7، ص 126.

انظرها كاملة في الملاحق.

3 - ن م، ج 7، ص 121.

4 - المقرئ، أزهار الرياض، ص 82.

انظر القصيدة كاملة في الملاحق.

المبحث الثاني: تعريف بالكتاب وعملي في تحقيقه.

يتناول هذا المبحث بيان اسم الكتاب ونسبته إلى أبي حمز، وموضوعه، ومنهج المؤلف في كتابته، ثم ما قمت به في سبيل إخراج هذا المخطوط،

وقسمته إلى مطلبين:

المطلب الأول: التعريف بالكتاب

المطلب الثاني: عملي في تحقيق المخطوط

المطلب الأول: التعريف بالكتاب.

يتناول هذا المطلب تحقيق اسم الكتاب ووصفه ونسبته إلى أبي حمو، وموضوعه، ومنهج المؤلف في إعداده.

الفرع الأول: اسم الكتاب ووصفه ونسبته إلى أبي حمو.

أولاً: اسم الكتاب ووصفه.

اسم الكتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهذه التسمية من وضع المؤلف نفسه؛ فقد قال أبو حمو في مقدمته: (... فرأينا أولى ما نتحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا، وصايا حكيمة وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك وتنتظم به أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك ولذلك سميت هذا الكتاب "بواسطة السلوك في سياسة الملوك" ليكون اسمه موافقا لسماء ولفظه يطابق معناه)¹.

وأما وصفه فإن النسخة المعتمدة هي النسخة المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، والمسجلة تحت رقم 1298، توجد نسخة مصورة عنها في مركز المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، مسجلة تحت رقم 7226 ف 1504 / 4 عدد أوراقها 63.

خطها مغربي واضح ومقروء بصورة جيدة، ليس فيها أي حزم أو قطع.

- عناوين الفصول والعناوين الفرعية في الورقتين الأولى والثانية بخط عريض ولون أحمر، أما في باقي الأوراق فالعناوين بخط أسود عريض.

- المساحة المكتوبة في كل ورقة 29 سم x 20 سم، تحتوي كل صفحة 30 سطرا، و في كل سطر ثلاثة عشر كلمة بالمتوسط.

1 - أبو حمو موسى، مخطوط واسطة السلوك، الورقة رقم 1.

يبدأ المخطوط بقول المؤلف: (بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا. قال الملك المعظم الشأن الماجد الفخم السلطان محي رسوم دولة بني زيان ويليه حاضرة تلمسان)¹.

وينتهي بقول الناسخ: (أنهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله، وكان الفراغ منه أوائل شعبان المعظم عام تسعة وعشرين ومائة والف)². ولم يذكر اسم الناسخ.

ثانيا: نسبة الكتاب إلى أبي حمو.

وردت الكثير من الدلائل على نسبة كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" إلى أبي حمو، ومنها:

1- ما جاء في مقدمة الكتاب نفسه؛ فقد افتتح الكتاب بقوله: (قال الملك المعظم...أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن الأمير بغمراسن بوزيان... الحمد لله...).

ثم قال: (لذلك سميت هذا الكتاب: بواسطة السلوك في سياسة الملوك" ليكون اسمه موافقا لمسماه)³.

2 - قال المقرئ: (كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ويحب أهله وله رحمه الله تأليف حسن في السياسة لخص فيه سلوان المطاع لابن ظفر، وزاد عليه فوائد وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك

1 - الورقة الأولى من المخطوط.

2 - الورقة الأخيرة من المخطوط.

3 - الورقة الأولى من المخطوط.

بني مرين وغيرهم، وصنفه برسم ولي عهده أبي تاشفين، وسماه "نظم السلوك في سياسة الملوك"¹

3- قال الزركلي في الأعلام: (صنف أبو حمز كتاباً سماه: واسطة السلوك في سياسة الملوك)².

4- قال البغدادي: (واسطة السلوك في سياسة الملوك - تأليف موسى الثاني ابن يوسف بن زيان ملك تلمسان المتوفى سنة 791 هـ)³.

الفرع الثاني: موضوع الكتاب ومنهج المؤلف في إعداده.
أولاً: موضوع الكتاب.

تناول الكتاب أهم المسائل المتعلقة بالنظام السياسي العادل، المستمر والمستقر، وفق ما رآه مؤلفه؛ فقد تضمن بابه الأول الوصايا والآداب والحكم التي ترشد الملك إلى الصواب في قراراته، وتمنعه من الزلل⁴.

ومن تلك الوصايا والآداب والحكم: الاتصاف بالعدل في الحكم والتحلي بالفضل، وتحكيم العقل في إصدار القرارات ونبذ الحكم بالهوى، والتحصن بالتقوى⁵.

وحفظ المال وعدم إنفاقه إسرافاً أو تبذيراً إذ بالمال ينتظم الملك، مع الاستعانة بالثقات في تسيير الأموال، والتسوية في صرفها بين الرعية¹، والعمل على بناء جيش

1 - انظر أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، م س، ص 83.

ونلاحظ هنا أن المقرئ أخطأ في اسم الكتاب فذكر أنه سماه "نظم السلوك في سياسة الملوك"، غير أن أبا حمز ذاته ذكر في مقدمة الكتاب أنه سماه: "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهذا هو الصحيح.

انظر الورقة رقم 2 من واسطة السلوك.

2 - الزركلي خير الدين، الأعلام، م س، ج 7، ص 332.

3 - البغدادي، إيضاح المكنون، م س، ج 2، ص 699.

4 - الورقة رقم 1 من المخطوط واسطة السلوك.

5 - الورقتان 2 و3 من المخطوط.

قوي وحفظه، والعناية بالبطانة القريبة منه كالوزراء والمساعدين، وكذا محاولة تقريب القادة والأمراء².

وفي الباب الثاني تحديث عن قواعد الملك المستقر والناجح؛ فرأى أن أول ما يجب أن يقوم عليه نظام الحكم (الملك) هو اعتماده على العقل في تدبير شؤون الدولة والاستعانة بالعقلاء في اتخاذ القرارات ونبذ الرأي القائم على الهوى، إذ أن هذا النوع من الحكم لا يحقق مصالح الدنيا ولا الآخرة⁽³⁾.

وفي الباب الثالث ذكر الأوصاف الحمودة تحدث عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها الملك لكسب ود رعيته، وهي: الشجاعة⁴ والكرم⁵ والحلم⁶ والعفو⁷.

أما الباب الرابع فتحدث فيه عن الفراسة⁸، ووجه نصائح إلى ابنه أبي تاشفين جاءت بشكل خطابات موجهة إليه مباشرة، وتبدأ بقوله: (يا بني).

ثانياً: منهج أبي حمو في تأليف كتابه "واسطة السلوك".

بدأت الكتابة السياسية لدى المفكرين المسلمين من غير الفقهاء في وقت مبكر من تاريخ الإسلام، حيث يعود الاهتمام بهذا الفن إلى القرن الثامن للهجرة، فقد كان لعبد الحميد الكاتب⁹ فضل السبق إليه، إذ أن رسالته إلى عبد الله بن مروان

1 - الورقتان 4 و5 من المخطوط.

2 - الورقتان 5 و6 من المخطوط.

3 - الأوراق من 9 إلى 12 من المخطوط.

4 - الورقة رقم 47 من المخطوط.

5 - الورقة رقم 49 من المخطوط.

6 - الورقة رقم 50 من المخطوط.

7 - الورقة رقم 50 من المخطوط.

8 - الورقة رقم 51 من المخطوط.

9 - عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد بن يحيى أبو يحيى الكاتب كان يعلم الصبيان ويستقل في اللدان سكن الرقة، كان من الكتاب اللغاء الذين يضرب بهم المثل في الكتابة، وكان أوحدهم، بلغ مجموع رسائله نحو ألف ورقة تولى الكتابة لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية، قيل قتل سنة 132 هـ، وقيل سنة 134 هـ. الصندي: الوافي بالوفيات، منشور على شبكة والانترنت، موقع السوراق: www.alwarraq.com

آخر خلفاء بني أمية حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الخارجي¹، والتي تضمنت تضمنت نوعين من الأفكار:

الأول: أفكار جاءت في شكل نصائح وتوجيهات أخلاقية وسياسية ينبغي أن يتحلى بها ولاة الأمور، كالعلم والحكمة والتقوى والعزم والجد.

أما النوع الثاني؛ فهو ما يتعلق بكيفية التعامل مع الأعوان مثل: الأناة وعدم التسرع إلى تصديق كل ما يصله من أخبار من جهة الجيش، وعدم قبول أي شيء من ذلك حتى يكون مرسلاً عن طريق الوزير الكاتب، وعدم اتخاذ أي موقف إلا بعد تدبر ورفض كل ما يأتي من طريق البطانة من أخبار متعلقة بأعراض الرعية، والمشورة في ما يتخذه من قرارات².

كما أن عبد الله بن المقفع⁽³⁾ كان له فضل في هذا المجال؛ فقد كانت كتاباته، كتاباته، ومنها رسالة الصحابة والأدب الصغير والأدب الكبير، أول ما ألف في الفكر السياسي.

وجاءت رسالة الصحابة في شكل تقرير تقويمي للأوضاع السياسية والمالية والإدارية للدولة الإسلامية في عهد أبي جعفر المنصور ومن قبله، وتضمنت آراء ابن المقفع واقتراحاته فيما يجب عمله من أجل إصلاح النقائص في القطاعات التي أشار إليها⁴، أما الأدب الصغير فإنه جاء في شكل عرض لأهم الأخلاق والصفات

1 - خرج الضحاك بن قيس على الأمويين سنة 127 هـ.

انظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية، القاهرة، 1913، هامش 1، ص 139.

2 - انظر رسالة عبد الحميد الكاتب في رسائل البلغاء، م ن، ص ص 139 - 165.

3 - كان عبد الله ابن المقفع مجوسياً في بداية حياته، غير أنه تربى في الوسط الإسلامي، وأولع بالعلم، فجاء منه منه في سن العشرين ما يندر أن يكون مثله لأبناء الأربعين والخميس واتصل بعيسى بن علي عم السفاح، الخليفة العباسي الأول، وكتب له واختص به، وأعلن الإسلام على يد عيسى بن علي المذكور وتسمى باسم عبد الله وكني بأبي محمد، قتل بالبصرة سنة أربع وأربعين ومئة.

انظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913، ص 9.

وابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، موقع الوراق وعنوانه: www.Alwarraq.com، ج 2، ص 71.

4 - انظر نص الرسالة في رسائل البلغاء، محمد كرد علي، ص ص 120 - 131.

الحميدة التي يستحسن تحلي ولاية الأمور بها مثل: صحة العقل، واختيار الأمور بالتبصر، وتنفيذ الأمور بالعزم¹، كما تضمن كيفية اختيار ولي الأمر للوزراء والأعوان وأصنافهم والشروط المطلوب توفرها لاختيارهم²، ثم جملة من النصائح حول الوسائل التي يجب أن يتعامل بها مع أعوانه ووزرائه ورعيته³ وخلال القرن الثالث ألف الجاحظ⁴ كتاب "التاج في أخلاق الملوك" تحدث فيه عن كيفية تعامل الملك مع بطانته وعامة أفراد رعيته وأورد فيه مجموعة من النصائح إلى الملك في ذلك⁵.

وفي هذا القرن أيضا بدأت تظهر إلى الوجود بعض المصنفات المستقلة عن الملوك وغير موجهة إليهم في الفكر السياسي على أيدي فلاسفة مسلمين؛ غير أن تلك المصنفات كانت تستند إلى مرجعية غير إسلامية، فقد كانت مجرد ترديد لفلسفات أجنبية كالهندية والفارسية واليونانية⁶.

ومن أشهر الفلاسفة الذين كتبوا في القرن الثالث الهجري أبو نصر الفارابي⁷، الذي أخذ فلسفة أرسطو وأفلاطون ونقل أكثر مسائل كتبهما¹.

1 - ابن المقفع، الأدب الصغير، ضمن رسائل البلغاء، م س، ص 19.

2 - ن م، ص ص 33 - 50.

3 - ن م، ص ص 50 - 54.

4 - الجاحظ هو عمرو بن بحر أبو عثمان البصري، صاحب التصانيف الكثيرة في الفنون، كان بحرا في العلوم، رأسا في الكلام والاعتزال، أخذ عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، وأبي إسحاق النظام، توفي سنة 255 هـ.

انظر: الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غير، موقع الوراق www.alwarraq.com، ج 1، ص 86.

5 - الجاحظ عمر بن بحر، التاج في أخلاق الملوك، منشور على شبكة الانترنت، موقع الوراق وعنوانه www.alwarraq.com، ص 18.

6 - انظر الحمدادي عبد الكريم محمد مطيع، في النظام السياسي الإسلامي، محاولة نقدية للتأصيل والتطوير، منشور على موقع الشبيبة الإسلامية المغربية بصيغة html، وعنوان الموقع هو: www.achabibah.com تاريخ الدخول: 2010/12/23.

7 - أبو نصر الفارابي هو: محمد بن محمد بن طرخان بن أورلغ، فيلسوف تركي، قدم بغداد وأدرك بها متى بن يونس الفيلسوف فأخذ عنه، وسار إلى حران فلزم يوحنا بن حبلان النصراني وأخذ عنه، وأتقن العربية في

وفي بداية القرن الرابع الهجري كتب الأشعري² "الإبانة عن أصول الديانة"،
خصص فيه بالموضوع الإمامة، سلك في عرضه مسلك الفقهاء، ولم يأخذ بآراء
الفلاسفة سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم.

وفي هذا الكتاب تحدث الأشعري عن عدة أمور من أهمها:

- 1 - بيان من هو الأفضل في تولي الإمامة.
- 2 - اعتباره العهد طريقا لتولي منصب الخليفة.
- 3 - رأيه بجواز العهد إلى جماعة لاختيار الخليفة.
- 4 - قوله ببيعة أهل الحل والعقد طريقا آخر لتولي المنصب المذكور.
- 5 - إجازته المعارضة التي تمت ضد علي بن أبي طالب وغيره³.

وفي القرن الخامس الهجري ألف الماوردي¹ كتابه المشهور "الأحكام السلطانية
والولايات الدينية" سلك فيه مسلك الأشعري، أي مسلك الفقهاء، وتناول في هذا
الكتاب مجمل المسائل الفقهية المتعلقة بالخليفة والوزراء والأمراء باختلاف أصنافهم.

بغداد، وأخذ الفلسفة من اللغة اليونانية، وأكب على مصنفات أرسطو وشرحها، توفي بدمشق عام
339هـ.

انظر: الزركلي، م س، ج 7، ص 20. والصفدي، م س، ج 1، ص 51.

1 - تأثر الفارابي بآراء أرسطو وأفلاطون وكانت الكثير من آراءه مجرد ترديد لآرائهما.

انظر: د. محمد جلال شرف، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1982،
ص ص 177 - 204.

2 - الأشعري هو: أبو الحسن علي بن إسماعيل (260 هـ - 324 هـ) كان معتزليا، ثم أظهر فضائح
وقبائحهم، له من الكتب. مقالات الإسلاميين والإبانة عن أصول الديانة مر في حياته بمراحل؛ أولاهما:
اتماؤه إلى مذهب الاعتزال، ثم تزعمه، والثانية: تخليه عن الاعتزال ونقده وسلوكه منها عقليا في إثبات
الصفات، والثالثة: ميله إلى منهج الإمام أحمد.

انظر الأشعري أبو الحسن بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق محمد بشير أبو عون، نشر مكتبة
دار البيان، دمشق، ط 3، 1990، ص 168-179.

3 - ن م ص 179.

كما ألف كتاباً آخر يتضمن مجموعة من النصائح الموجهة للخليفة سعاد "تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك" تحدث فيه عن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الملك والقواعد التي تقوم عليها سياسته².

وفي ذات القرن ظهرت العديد من المؤلفات التي تحدثت عن أخلاق الملوك ومنها: كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" لأبي حامد الغزالي (ت 505 هـ - 1111 م)، وكتاب "سراج الملوك"، لمحمد بن الوليد الطرطوشي (ت 520 هـ - 1121 م)³ وفي القرن السادس كتب أخرى في ذات الموضوع وبنفس المنهج ومنها: كتاب "المنهج السلوك في سياسة الملوك" لعبد الرحمن بن عبد الله الشيرازي (ت 589 هـ - 1194 م)⁴، و"سلوان المطاع في عدوان الأتباع" لابن ظفر الصقلي (ت 570 هـ)⁵.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن التأليف في الفكر السياسي عند العلماء السابقين عن عصر أبي حمو موسى الثاني سلك منهجين، أولهما قام على توجيه النصائح إلى الملوك حول ما يجب أن يتحلوا من الأخلاق وبيان القواعد التي يقوم عليها الملك، أما الثاني فقد سلك المنهج الفقهي القائم على بيان الأحكام الشرعية التي تبني عليها الخلافة والوزارة وغيرهما من المناصب الشرعية.

1 - الماوردي هو: أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري فقيه شافعي، له تصانيف في الفقه وأصوله والتفسير والأحكام السلطانية والأدب توفي سنة 450 هـ.

انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، منشور على شبكة الانترنت، موقع الوراق وعنوانه: www.alawarraaq.com، ج 1، ص 36.

2 - الماوردي أبو الحسن علي بن حبيب، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي الدين هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، عام 1981.

3 - حاجي خليفة، كشف الظنون، ج 2، ص 1113.

4 - الشيرازي عبد الرحمن بن عبد الله، المنهج السلوك، تحقيق ودراسة علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 1، 1987.

5 - ابن ظفر الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الأتباع، مطبعة الدولة التونسية، عام 1279 هـ، 1862 م.

وقد اختار أبو حمو المنهج الأول في تأليف كتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، إذ جاء عنوانه على نفس سياق الكتب السابقة، وفي مقدمته وصف مضمون كتابه فقال: (... فرأينا أولى ما نتحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا وصايا حكيمة، وسياسة عملية مما تختص به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك، ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك)¹.

ثم فصل تلك الوصايا والسياسة فذكر أنها تشمل الوصايا والآداب التي ترشد الملك إلى طريق الصواب، وقواعد الملك وأركانه وما يحتاج إليه الملك في تنظيم سلطانه، والأوصاف الدالة على كمال الملك وجماله، وختم الكتاب بموضوع الفراسة التي هي أساس اتخاذ القرارات الصائبة².

وبناء على ذلك جاء تقسيم أبي حمو كتابه إلى أربعة أبواب، وفي كل باب فصول أو عناوين مستقلة دون فصول أعرضها بإيجاز.

الباب الأول: الوصايا والآداب والحكم المرشدة إلى طريق الصواب.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل.

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى الإنصاف بتحكيم العقل على الهوى، والتحصن على ملازمة التقوى.

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال.

الفصل الرابع: توصية ترشد إلى حفظ الجيوش والأجناد والأمراء والقواد³.

1 - الورقة رقم 1 من المخطوط.

2 - نفس الوثيقة.

3 - الورقة رقم 1 من المخطوط.

الباب الثاني: في قواعد الملك وأركانها وما يحتاج الملك إليه في قواعد سلطانه وهي أربعة قواعد.

القاعدة الأولى: قاعدة العقل.

القاعدة الثانية: قاعدة السياسة.

القاعدة الثالثة: قاعدة العدل.

القاعدة الرابعة: قاعدة جمع المال والجيش¹.

الباب الثالث: في الأوصاف المحموده: وهي أربعة قواعد:

القاعدة الأولى: قاعدة الشجاعة².

القاعدة الثانية: قاعدة الكرم³.

القاعدة الثالثة: قاعدة الحلم⁴.

القاعدة الرابعة: قاعدة العفو⁵.

الباب الرابع: في الفراسة⁶، وهي خاتمة السياسة، وهذا الباب يتضمن نصائح موجهة إلى ابنه أبي تاشفين جاءت بشكل خطابات موجهة إليه مباشرة وتبدأ بقوله: (يا بني).

1 - الورقة رقم 13 من المخطوط.

* لتمكين القارئ من فهم الكتاب بسهولة وضعت كل قاعدة في فصل مستقل.

2 - الورقة رقم 47 من المخطوط.

3 - الورقة رقم 49 من المخطوط.

4 - الورقة رقم 50 من المخطوط.

5 - الورقة رقم 50 من المخطوط.

6 - الورقة رقم 51 من المخطوط.

ولم تختلف طريقة أبي حمو في عرض أفكاره وآراءه عن سابقه من حيث الاستدلال ومحاولة الإقناع؛ فكان مصدره الأول في الكتاب هو "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" لمحمد بن أبي محمد بن ظفر¹، فهو يبدأ بعرض فكرته ثم يستدل لها بما يناسبها من الأدلة، لذلك نجده يستدل بالنصوص الدينية سواء أكانت من القرآن أم من السنة، أو بالسوابق المنقولة عن الصحابة وأقوال العلماء المسلمين، كما يستدل بالشائع من الأقوال والحكم الهندية والفارسية وسوابقهم في العمل.

الفرع الثالث: أهمية الكتاب.

إن كتاب أبي حمو له أهمية علمية وتاريخية وأدبية.

أولاً: الأهمية العلمية.

تبرز الأهمية العلمية لكتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو من وجهين:

1- إن كتاب أبي حمو يقدم للقارئ معلومات هامة حول الأسس الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي يقوم عليها أي نظام سياسي.

ومن هذه الناحية فهو يساهم في طرح النظرية الإسلامية في الحكم كما عرفها علماء الإسلام في أزهى عصور الدولة الإسلامية.

1 - قال المقرئ: كان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ويحب أهله وله رحمه الله تأليف حسن في السياسة لخص فيه سلوان المطاع لابن ظفر، وزاد عليه فوائد وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصنفه برسم ولي عهده أبي تاشفين، وسماه "نظم السلوك في سياسة الملوك".

انظر أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، م س، ص 83.

ونلاحظ هنا أن المقرئ أخطأ في اسم الكتاب فذكر أنه سماه "نظم السلوك في سياسة الملوك"، غير أن أبا حمو ذاته ذكر في مقدمة الكتاب أنه سماه: "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهذا هو الصحيح.

انظر الورقة رقم 1 من المخطوط.

2- يقدم هذا الكتاب أنموذجا لمفكر سياسي مسلم يجمع بين الخبرة العلمية في ممارسة السلطة مدة تفوق الثلاثين سنة، وتشربه معارف عصره وإطلاعه على آراء وأقوال سابقيه من الملوك والعلماء على حد سواء.

ثانيا: الأهمية التاريخية.

لكتاب "واسطة السلوك" أهمية كبرى من الناحية التاريخية من.

1- إن الكتاب يتحدث عن مرحلة تأليفه وما عاصره المؤلف من أحداث لذلك فهو من هذه الناحية وثيقة تاريخية هامة تساعد على فهم أسباب الصراعات التي كانت قائمة في تلك الحقبة وما تلاها، وكذا حركة القبائل المختلفة وأهم مكوماتها وأصولها.

2- يقدم الكتاب معلومات هامة عن الكثير من الأحداث التاريخية التي اطلع عليها المؤلف في مختلف المصادر التاريخية، أو السماع المباشر من أشخاص اتصل بهم أو سمع عنهم، وهذه المعلومات تساعد القارئ والباحث على فهم حقيقة ما كان سائد سواء في المغرب الإسلامي أم في غيره.

ثالثا: الأهمية الأدبية:

اشتمل الكتاب على الكثير من القصائد الشعرية التي كتبها المؤلف، وهذه القصائد تتضمن معلومات مهمة حول الحياة الأدبية في تلمسان في ذلك الحين، والتي تميزت بعدد مميزات، منها:

1- بلوغ التذوق الفني مستوى راقيا، إذ أن لغة قصائد أبي حمو وأسلوبه تدل على أن النخبة العلمية والأدبية في ذلك الوقت كانت مهتمة بمختلف الأنواع الأدبية.

2- إن أبا حمو، مع كونه بربريا في الأصل، قد تمكن من أصول العربية، وتحكم في أدواتها مما جعله يعبر بأقل الألفاظ على أقوى المعاني، مما يدل على الاهتمام الواسع باللغة العربية في ذلك العهد.

3- إن اشتغال أبي حمو بالسياسة وخوضه حروبا متواصلة لا تخدم نيران إحداها حتى تندلع حرب أخرى، ومع ذلك ترك لنا هذا الإرث العلمي التاريخي والأدبي، مما يدل على عظمة الرجل وواجبنا أن ندرس هذا الإرث وأن نخرجه للباحثين والقراء.

المطلب الثاني: عملي في تحقيق المخطوط.

حاولت أن أقدم مخطوط واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو موسى الزباني بالشكل الذي يستحقه، لذلك بدأت بالتعريف بأبي حمو ثم كتابه، وتوثيق ما كانت هناك ضرورة إلى توثيقه من معلومات واردة في متن الكتاب، وقد اهتمت بالمسائل التالية:

- 1 - التعريف بالمؤلف
- 2 - التعريف بالكتاب
- 3 - عزو الآيات إلى السور التي جاءت فيها و ترقيمها.
- 4 - تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب.
- 5 - شرح المفردات اللغوية الغريبة لتمكين القارئ من فهم الكتاب، لاسيما القصائد الشعرية التي استعمل فيها مفردات غير متداولة ويصعب على غير المتخصص فهمها.
- 6 - وضع عناوين بارزة للأبواب والفصول والأجزاء الفرعية لها، من أجل تيسير قراءة الكتاب وربط أجزاءه ببعضها.
- 7 - تغيير طريقة رسم بعض الحروف لعدم استعمالها في هذا العصر ، وذلك قصد تيسير قراءة الكتاب، مع الإبقاء على بعضها لكونها سهلة على القارئ، مثل كتابة الهمزة على السطر قبل الألف في كلمة ءاخر، وكلمة رءاه، وغيرهما.

الورقة الأخيرة من المخطوط

[illegible]

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وهدايتهم الى الحق على سبيل الهدى والبر
محمدا وآله وكان الابرار من اهل البيت عليهم السلام في كل عصر
انفسه وعندهما سر من عند الله والحمد لله

كتاب واسطة السلوك

في سياسة الملوك

مقدمة¹

بسم الله الرحمن الرحيم... صلى الله على سيدنا ومولانا

قال المالك المعظم الشأن الماجد المفخم السلطان محي رسوم دولة بني زيان ومجد الملك ويلييه حضرة تلمسان أبو حم² موسى بن يوسف ابن عبد الرحمان بن الأمير يغمراسن³ بوزيان رحمة الله تعالى عليه.

الحمد لله الذي جعل نعمته على الخلق بما ألفهم عليه من الحق شاملة شائعة، ويسر طوائف من عباده لليسرى فأنت إليها مساعدة مسارعة، وحظهم على الأخذ بالحسنى ولا أحسن من نفوس أرشدت فأقبلت لأمرها طالبة، ولربما طائعة، ولا أسمى من همم نظرت بحسن السياسة في تدبير الرياسة، التي هي لأشتات الملك جامعة، ولأسباب الملك مانعة، وأظهرت من معادتها درر الحكم وغرر الكلم لائحة لامعة فاجتلت أقمارها طالعة واجتلت⁴ أزهارها يانعة، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم المبعوث بالآيات البينات ساطية ساطعة والمعجزات المعجبات قاصمة لظهور الجاحدين قاطعة الذي زويت⁵ له الأرض فتدانت أقطارها وهي يانعة¹

1 - كلمة "مقدمة" من وضعنا.

2 - في مختلف المصادر والمراجع التي رجعنا إليها لاحظنا أن كلمة حم كتبت بالواو (حمو).

3 - يغمراسن هو مؤسس الدولة الزيانية، بويع في تلمسان عام 631 هـ ومات فيها 681 هـ وله 81 سنة، ودام حكمه خمسين سنة وخمسة أشهر.

انظر ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص 59 - 60.

4 - اجتلت: قال ابن منظور: اجتلت منهم جولة وانتضلت نضلة ومعناها الاختيار وجلت هذا من هذا أي اخترته منه واجتلت منهم جولا أي اخترت. لسان العرب، مادة اجتل.

5 - قال ابن منظور في معنى كلمة زويت: (زوي) الذي مصدر زوي الشيء يزويه زيا وزوبا فانزوى فناه فتتحي، وزواه قبضه، وزويت الشيء جمعته وقبضته، وفي الحديث: إن الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها زويت لي الأرض جمعت، ومنه دعاء السفر وازو لنا البعيد أي أجمعه واطويه، وزوى ما

شاسعة واشتأقت له المياه فبرزت بين أصابعه نابغة وامثل السحاب أمره فسيح
باستسقائه دررا هامية² هامة³، وحن الجذع له وكان حينه لهذه الآيات الثلاث
آية رابعة إلى ما لا يحصى مما أتت به متواترات الأخبار وصحيحات الآثار، ناصرة
لنبوته ناصعة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته التي أجابت داعي الله
خاشية خاشعة، وأذعنت لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت من
الاستبداد خالية،

وللأنداد خالعة، صلاة ديمتها دائمة متتابعة، وسلم كثيرا أثيرا، أما بعد:
فإنه لما كانت الأولاد قطع الأكباد وعماد الظهور وشفاء الصدور وثمار القلوب،
وجلاء الكروب، وأفضل بغية وأجمل مطلوب، وأخلص محب وأحسن محبوب،
ودرة كل زين وقرة كل عين ووصلة للأنساب، وسلسلة التناسل والاعتقاب وورثة
الآباء، ومنشأ الأبناء، وسر الحياة، وحياة العظام الرقاة يرغب فيهم الأنبياء ويعبر
فهم الأولياء، قال الله عز وجل مخبرا عن نبيه زكرياء إذ دعاه فقال: (فَهَبْ لِي مِنْ

بين عينيه فانزوى جمعه فاجتمع وقبضه، قال الأعشى يزيد يغض الطرف عندي كأنما زوى بين عينيه على
الحاجم. لسان العرب مادة زوي.

1 - يانعة بمعنى ناضجة؛ قال الزمخشري:

ثمره يانعة ومونة: نضيجة، وقد ينعت وأينعت، وهذا أوان ينعه وينعه، ورماني ينيع. قال عمرو بن معد
يكرب:

كأن على عوارضهنّ راحا... يفضّ عليه رمان ينيع.

انظر: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، أساس البلاغة، موقع الوراق:
<http://www.alwarraq.com>، ج 2، ص 32.

2 - هامية، قال بان منظور في معناها: من (همي يهمي وهمى الشيء هميا سقط عن ثعلب وهمت الناقة هميا
ذهبت على وجهها في الأرض للرعي ولغيره مهمل بل راع ولا حافظ، وكذلك كل ذاهب وسائل،
والهميان هميان الدراهم بكسر الهاء الذي يجعل فيه النفقة، والهميان شداد السراويل، قال ابن دريد: أحسبه
فارسيا معربا، وهميان بن قحافة السعدي: اسم شاعر تكسر هاؤه وترفع، والهميان: موضع أنشد ثعلب وإن
امراً أمسى ودون حبيبه سواس فوادي الرس فالهميان لمعترف بالنأي بعد اقترابه ومعذورة عيناه بالهملان،
وهمت الماشية إذا ندت للرعي، وهوامي الإبل ضواها، وفي الحديث أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم
فقال: إنا نصيب هوامي الإبل، فقال: لضالة المؤمن حرق النار، أبو عبيدة الهوامي الإبل المهمل بلا راع، وقد
همت همي هامية إذا ذهبت على وجهها، ناقة هامية وبغير هام وكل ذاهب وجار من حيوان أو ماء
فهو هام، ومنه همي المطر، ولعله مقلوب من هام يهيم، وكل ذاهب وسائل من ماء أو مطر أو غيره فقد
همي) لسان العرب، مادة همي.

3 هامة، قال الزمخشري في بيان معنى هذه الكلمة: (عين دامة: هامة وقد همعت بالدمع هوعا). الزمخشري،
أساس البلاغة، ج 2، ص 5.

لَذَلِكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا¹، وجب أن تكون لهم الآباء كالسماء الظليلة و الشمس المنيرة والسحب المنيلة، فيتحفونهم بكل أدب وفضيلة ويمنحونهم من كل فائدة جليلة.

وخير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة للتفريط في الحقوق، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأولاد من رياحين الجنة)².

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان محبا في ولده سالم: تلومونني في سالم وألومهم وجلده بين العين والأنف سالـم³.

وقال الطائي:

إنـمـا أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمـض⁴.

فرأينا أولى ما نتحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا⁵، وصايا حكمية، وسياسة عملية مما تختص به الملوك وتنظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك، ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك، ليكون اسمه يوافق مسماه، ولفظه يطابق معناه ورتبناه ترتيبا وبوبناه تبويبا على أربعة أبواب.

1 - سورة مريم ، الآيتان 5 - 6.

2 - أخرجه الكوراني أبو طاهر محمد بن إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي في كثر العمال عن خولة بنت حكيم، حديث رقم 44422، ولفظه (الولد من ريحان الجنة)،

3 - انظر ابن سعد محمد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1968 م، ج 5، 196.

4 - انظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، منشور على موقع الوراق:

http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 235، تاريخ الدخول: 2010/12/ 08.

5 - يقصد ابنه أبا تاشفين الذي تعاون مع المرينيين على قتله ، وقد سبق ذكر وقائع ذلك.

الباب الأول: في الرصايا والآداب والحكم المرشدة إلى طريق الصواب.

الباب الثاني: في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج إليه الملك في قوام سلطانه.

الباب الثالث: في الأوصاف التي هي نظام الملك وكماله وبهجته وجماله.

الباب الرابع: في الفراسة وهي خاتمة السياسة

الباب الأول:

في الوصايا والأدب والحكم التي ترشد إلى طريق الصواب وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل.

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى الاتصاف بتحكيم العقل على الهوى والتحصن على ملازمة التقوى.

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال.

الفصل الرابع: توصية ترشد إلى حفظ الجيوش والأجناد والأمراء والقواد¹.

1 - هذا الفصل لم يرد محتواه في المتن.

الفصل¹ الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل²

يا بني العدل سراج الدولة فلا تطف سراج العدل بريح الظلم إذا عصفت
نصفت، وريح العدل إذا هبت ربت.

ومن شروط الأمانة العدل في الأحكام والتجنب عن الحرام والصبر في الشدائد
والجري على أحسن العوائد؛ فأن صلاح الدولة بقواعدها وفسادها بخرق عوائدها.

يا بني ألبس ثياب العفة وترد رداء الوقار وتتوج بتاج الحياء وترين بزي
السكينة وتقلد بصارم العدل وتحل بحلية الكرم وتختم بخاتم الهيبة.

يا بني التزم الصبر عند الشدة والعفو عند القدرة، وأظهر المحبة لمن تحب³، ولا
تفش البغض لمن تكره.

يا بني إياك والإعجاب فإنه للملك خطأ غير صواب، ومن أعجب من نفسه
قرب من رسمه⁴.*

يا بني أربعة لا يزال معها الملك: حسن التدبير في الأمور، والعدل في الخاصة
والجمهور، والأخذ بالحزم، والصبر في الأزم.

يا بني أربعة لا يثبت معها الملك: سوء التدبير، ومخالفة النصيح والمشير،
وخبث السريرة والنية، والجور على الرعية.

1 - كلمة "الفصل" من إضافتنا.

2 - العنوان من إضافتنا

3 - إشارة إلى قول عمر بن عبد العزيز: (إن من أحب الأعمال إلى الله عز وجل العفو عند القدرة، وتسكين
الغضب عند الحدة، والرفق بعباد الله). ذكره البهقي في شعب الإيمان، موقع السنة على الأنترنت، وعنوانه:
<http://www.alsunnah.com>، ج 17، ص 355.

4 - الرسم: الدفن، رسمه يرسمه ويرمسه رمسا فهو مرموس ورميس: دفنه وسوى عليه الأرض. انظر: أبو
الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، موقع الوراق:
<http://www.alwarraq.com>، ص 3965.

* كان أبا حمو يتمثل قول الشاعر:

والشيخ لا يترك أخلاقه... حتى يوارى في نرى رسمه

يا بني إن الملك خليفة الله في أرضه¹ الموكل بإقامة أمره ونهيه قلده بقلاند الخلافة، وجعله حصنا منيعا لذوي المخافة، وأمره بإقامة الشرائع وسد الذرائع، ليقم قسطاس الحق في رعاية الخلق، وأتاه الله من ملكه، وجعل الرعية تحت إيمانه وفلكه²؛ فإن أطاعه فيما قلده به وأنفذ الحق في حكمه ومذهبه دام له الملك ونجا من الهلك، وإن خالف الحق ومال إلى التقصير لم يكن (له)³ من ولي ولا نصير.

يا بني من تدرع بدرع العدل وقي شر العدا، ومن تلبس بلبس الجور سقي كأس الردا⁴، والعدل خير من ماء الحياء، والجور أشد شيء يتقى، والعدل نعم ما يجتنى والجور بئس ما يقتنى، والعدل كثر الأمير وحياة الغني والفقير.

يا بني ولا تنسى ذكر الله في شرك ولا في جهرك ولا تدعه في جميع شأنك وأمرك، واجعله أنسك وشعارك وقوتك ليلك ونهارك، ولا يشغلك ما تقلدت من أمر الخلافة عن ذكر الله لأن كل شيء باطل سواه، ورض نفسك للأذكار، وتوسل بربانيات الأشعار، وهذا يابني هو دأبنا، والله حسبنا، وقد ذكرنا في ذلك قصائد نتوسل بها لله جل وعلا ونشكره على ما أنعم وأولى؛ فمنها قولنا هذا الخشب⁵ البديع أشهر في أنواع التصوير والترصيع وهو:

دمع ينهل من المقل بقبيح كان من العمـل

1 - إشارة إلى حديث (السلطان ظل الله في الأرض....)، والحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في الإمام العادل.

2 - إشارة إلى قوله تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) سورة ص، الآية 26.

3 - ما بين هلالين من زياداتنا

4 - الردى والردا بمعنى الهلاك؛ قال صاحب بن عباد: (الردى: الهلاك، وقد ردى فهو رد، وأرداه الله؛ من قوله عز وجل: "تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَتَرْدِينُ". والتردي في مهواة: التهوي فيها)، المحيط في اللغة، منشور على موقع الوراق وعنوانه: <http://www.alwarraq.com>، ج 2، ص 357.

5 - الخشب ضرب من العدو وقيل هو مثل الرمل وقيل هو أن ينقل الفرس أيا منه جميعا وأيا سره جميعا وقيل هو أن يراوح بين يديه ورجليه وكذلك البعير وقيل الخشب السرعة وقد حبت الدابة تحب بالضم حبا وخبا وخيبا واختبت حكاها ثعلب وأنشد مذكرة الثنيا مساندة القرى... جمالية تختب ثم تنيب.

وجرى في الصدر له حرق فالقلب لذلك في شغل
 ونهيت النفس فما قبلت وتولى الصبر فما حيل
 ناس ركبوا التقوى لقد ركبت نفسي طرق الزلل
 أبا أدنى الوقر فما سمعت والذنب تكاثر من خلل
 ليلى سهر نومي فكر دمعي درر برأي علي
 نفسي زجرت¹ هل لا افكرت لما نظرت ما يصلح ل²
 إثمي كثيرا شيئا ظهرا واشتهر والأمر جـ
 في القلب شجا³ كيف المنجا لمن الملجا بارت⁴ حيل
 من ينقذني من يسعدني من يرحمني من يغفرل
 إلا مولى مسدى الطولان بني الأعلى يحي الدول
 أحياءها بي وبأعرابي وأنا الزابي⁵ والدولة ل
 الله قضى والحكم مضى ولنا فرضا فدعوا عدل
 فله الشكر وله الأمر منه النصر لا من قبل

1 - في النسخة الحجرية ضجرت.

2 - حرف اللام مضاف لضرورة شعرية.

3 - شجي الرجل يشجى شجا من باب تعب حزن فهو شج بالنقص، وربما قيل على قلة شجي بالتثنية كما قيل: حزن وحزين ويتعدى بالجرعة، فيقال شجاه الم يشجوه شجوا من باب قتل إذا أحرزته. انظر الفيومي أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، موقع الإسلام وعنوانه: <http://www.al-islam.com>، ج 4، ص 450.

4 - قال ابن منظور في بيان معنى كلمة بارت: (البوار الكساد وبارت السوق وبارت البياعات إذا كسدت تبور، ومن هذا قيل: نعوذ بالله من بوار الأم أي كسادها، وهو أن تبقى المرأة في بيتها لا يخطبها خاطب، من بارت السوق إذا كسدت والأم التي لا زوج لها).
 لسان العرب . مادة بور.

5 - الزابي: نسبة إلى إقليم الزاب، وقد سبق ذكره.

حملي الملك ومن يقوي يحمل ما فيه من الثقل
 إلا بمعونة خالقنا مولى النعماء وخير رول
 احمي المظلوم وأنصره و أقيم الحق بلا ميل
 أنزلت الناس منازلهم¹ وتركت الظالم في وجـل
 فأنا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهـل
 والرفق كذلك من شيمي والعدل به أعطى أمل
 وأنيل القاصد حاجته وأنيل المال بلا ملل
 وأنا للحرب كعنترها وأنا في السلم اخو جدل
 خيلي للحرب ملحمة وكذا للشر ولا تمـل
 وأنا موسى وأمر حمو أصلح للملك ويصلح لـ
 سيفي إن ملت بقائمة أدنى المراق إلى الأجل
 وكذلك كفاي إذا انبسطت من كان مقلاعا² دمل³
 أهل تلمسان بدولتنا كالشمس لدى برج الحمـل
 تفنا الدنيا وصحبتهم فينا وحياتك لم تحـل

1 - إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزلوا الناس منازلهم). رواه أبو داود في سننه. باب تنزيل الناس منازلهم.

2 - المقلع، وهو ما يُجعل فيه الحجر ويُرمى به لطرد الطير وغير ذلك، ابن دريد، جمهرة اللغة، موقع الوراق وعنوانه: <http://www.alwarraq.com>، ص 304.

3 - قال الزبيدي في بيان معنى دمل: (دمل بينهم دمل: إذا أصلح قال الكميث: رأى منها تحش لفتنة ... وإيقاد راج أن يكون دمالها يقول: يرجو أن يكون سبب هذه الحرب كما أن الدمال يكون سببا لإشعال النار. كدومل بينهم وهذه عن ابن عباد. وتداولوا: تصالحوا عن ابن دريد. والدمل كسكر وصر: الخراج لأنه إلى البرء والاندمال ما هو نقله الأزهرى).

الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، م س. مادة دمل.

ولقد بذلوا في خدمتنا أقصى الغايات بلا كسل
فلهم منا عدل وندى ولنا منهم أقصى الأمل
فبفضله ومنتها أرشدت إلى أهدى السبل
وأنا أرجو من رحمته أن يغفر لي يوم الحج
بعناية أحمد سيدنا وهو المبعوث إلى الملل
مبدي الإسلام ومظهره علم التقوى خير الرسـل
يا بني فعلى هذا المنجا يكون سيرك فيرجى من الله خيرك.

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى تغليب العقل على الهوى والحظ على ملازمة التقوى.

اعلم يا بني أن العقل راحة النفس فاجعل عقابك راحة نفسك واستجلاب أنسك، واجعل العقل ميزان رأيك والفكرة مرآة عقلك، واعلم أن الدنيا منقلبة فلا تغتر بغرورها ولا تطمئن لسرورها ولا تفرح لها إذا أقبلت ولا تحزن لها إذا أدبرت.

يا بني إن الاعتزاز بالدنيا باطل فاركب لها جواد الحق، وإذا أعطيت ما يفنى فاشتره ما يبقى فإن الدنيا منهج للآخرة، ومن جعل الدنيا رأس ماله كانت تجارتها خاسرة.

يا بني أربعة من علامات العقل: اتباع المكارم، واجتناب المحارم، وملازمة التقوى، ومخالفة الهوى، وأربعة تدل على عقلك وتوجب المحبة لك: تأخير العقاب، وتعجيل الثواب، والنطق بالصواب، والصدق في الخطاب.

يا بني إن الأمير العاقل لا ينفذ فيه قدح أهل البغي فمن انقطع إليه ولازمه كالجوهر المضيء بنوره لا تطفئه عواصف الرياح، ولا يتغي للعاقل أن يجالس الأحقق فإن مجالسته غرر وقيامه عنك حذر، يا بني العقل شجرة من أشجار الأنس فمن استظل بها ولازمها اجتني منها ثمار المحبة، يا بني أصمت عما يضرك تبلغ ما يسرك، يا بني من رحم يرحم¹، ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الباطل يأثم ومن لا يملك لسانه يندم، يا بني إذا رأيت شرك فشي في الناس فاخصص به اثنين من أصحاب شرك واحدا بسر دارك والآخر بسر عدوك ثم اغفل عنهما فما خرج من سريهما فهو صاحب الإفشاء.

يا بني لا تكثر من مجالسة النساء لئلا يفسرن عقلك بعقولهن ويسترق طبعك من طباعهن فإنهن ناقصات عقل ودين وإن أشرن عليك بأمر فخالفن فيه لأن

1 - إشارة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله). رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في رحمة الناس، ح ر 1847.

عقول النساء غير موافقة لعقول الرجال فإنك إن أحسنت إليهن قابلن الإحسان بالإساءة ومن ضعف عقولهن أن لا يفرقن بين المحسن والمسيء، فاحذر مطاوعتهن ولو كان فيهن مثل أخت ملك الخرز حكى الفضل بن سهل قال كان عندي رسول ملك الخرز فكان يحدثني عن أخت للملك تسمى خاتور قالت أصابنا سنة مجاعة شديدة ففزع الناس إلى الملك فلم يدري ما يجيبهم به فقالت له خاتور أيها الملك إن الحرم علق لا يخلق جديدة ولا يمتهن عديدة وهو دليل الملك على استصلاح رعيته وزاجر له عن استفسادها، ولقد لجأت إليك رعيته بفضل العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزا ولا ينقص العود بالإحسان إليهم ملكا وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصي، ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعية من الراعي ولم تزل في نعمة لم يغيرها نقمة وفي رضي لم يكدره سخطه إلى أن جرى القدر بما عمى عنه البصر ودهل¹ عنه الحذر فسلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد النعم وعد به من اليم النقم فمتى تنسه ينسك. ولا تجعل الحياء من التذلل للمعز المذل شركا منك ومن رعيته فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة وبتبديل الألسن في الدعاء لمحضر الشكر فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه من سيئ فعل إلى صالح عمل وليبعثه على ذوي شكر يحوز به فضل اجر فأمرها الملك أن تقيم فيهم فتذرهم بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم عن بابه، وقد علم الله منهم قبول ذلك الوعظ بالأمر والنهي فحال عليه الحال وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع؛ فاعترف الملك لها بالفضل فقلدها الملك وجمع الرعية على الطاعة لها في المحبوب والمكروه فلا تطاوع أمره ولو كانت مثل خاتور

1 - قال الليث: لَا دَخَلَ بِالنَّبَطِيَّةِ: لَا تَخَفْ وَأَنْشُدَ الْبَشَّارَ:

فَقُلْتُ لَهُ: لَا دَخَلَ مِنْ قَمَلٍ بَعْدَ مَا... مَلَأَ نَيْفَقَ الثَّبَانِ مِنْهُ بِعَاذِرٍ.

انظر الأزهرى محمد بن أحمد المروى، تهذيب اللغة، موقع الوراق وعوانه:

<http://www.alwarraq.com>، ج 2، ص 304.

هذه التي سمي في الحكاية قدرها ومثل الزبالة اشتهر في الدهر أمرها وسيأتي في كتابنا هذا ذكرها.

يا بني إياك والميل للنساء بالكلية فان ذلك عين الأذية وسبب البلية فإنك إن ملت إليهن بكليتك كن سبب أذيتك فيقضي بك الأمر إلى ما أفضي باليزيد بن الوليد المرواني حين شغف بحبابة وفاضت نفسه عليها صباة وهي التي أشرنا إليها في قصيدتنا التي نذكرها الآن ونختم بها هذا الفصل الثاني ونقيم بها البرهان على نحو ما لخصناه واختصرناه:

اعلم يا بني إن اليزيد المرواني¹ كان مولعا بالنساء وكان له جوار يخلو بمن للهو والغناء فكلف بجارية منهن اسمها حبابة فكان يحبها حبا شديدا ويؤثرها على نفسه قريبا وبعيدا حتى نطقه الذي ينطق به وسمعه الذي يسمع به وعينه التي يبصر بها فاتفق له أن صنع يوما مهرجانا في قصره أبدع في احتفاله وبالغ في أمره وعمل على راحته مع جواريه وما علم أن القدر يجاريه ووكل وزراءه بأعماله وعرفهم براحته واشتغاله ثم أمر فتيانه أن لا يدخلوا عليه أحدا لا أهلا ولا ولدا؛ رغبة منه في الخلوة بحبابة والتشفي بها، لما به منها من الصباة²، فبينما هو يتلذذ بمحبوبته ويريح نفسه معها في أطروبتة ويأنس منها بالخلوة ويتلذذ بها تلذذ الصفوة إذ أوتي برمانة أهديت إليه في غير إبانها أبدع مما تكون في زمانها فآثر حبابة من فوره من

1 - يعني يزيد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي الذي تولى الملك يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة، ويكنى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتوفي يزيد بن عبد الملك بإريد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وهو ابن سبع وثلاثين سنة.

انظر المسعودي، مروج الذهب، موقع: <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 434.

2 - قال ابن دريد: الصباة: رقة الهوى، والحب، وقال نفطويه: الصباة: رقة الشوق، والعشق: رقة الحب، والرافة: رقة الرحمة.

انظر عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، المزهرة، موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 135.

حبها لما في قلبه من حبها فشرقت حباة من حبة من ذلك الحب ومات اليزيد أسفا عليها من الحب.

يحكى أنه بعد ثلاثة أيام بالموضع الذي ماتت فيه حباة وهو نعيم¹ ، والجواري يصبرونه، فقال لمن: أنشدني شعرا فأنشدت إحداهن: كفى حزنا بالهائم الصف أن يرى منازل من يهوي معطلة فقرا، فصاح صيحة وغشي عليه ولم يفق فوجدوه ميتا.

يابنبي انظر إلى اليزيد هذا وأين أفضى به الميل إلى النساء وكيف استحوذ عليه الهوى حتى اتلف نفسه وخسر ملكه وهذا من كثرة ميله وفساد عقله، وقد تغزلنا بقصيدة أنجز نظمها بسببها اليزيد وحباة لتجنب الميل إلى النساء ولئلا تمتحن بهذه الصباة وهذه القصيدة المباركة:

كتمت حي فأفش الدمع كتمان وزاد شوقي على قيس وغيلان
يا حيرة الحي إني قد فتنت بكم كم تهجروني كأني مذنب جان
ناديتهم ودموع العين هامية بأي ذنب رضيت اليوم هجران
يا فتنة القلب كم لي في هواك وكم أصلت هجري وقال صار صدان
الماء والنار تشكوا من فراقكم وحبكم قد رمي قلبي بنيان
كم تهجروني وهجري لا يحل لكم الموت أهون من بعدى وهجران
وإن عزمتم على بعدي فوا أسفا بان الزمان بحالي أي تبيان
يا أحسن الناس مالي عنك مصطبر وكيف صبري وصبري اليوم أعيان
أنا جلبت الهوى حتى بليت به وخاض بحر الهوى قلبي وجثمان

1 - نعم الأسد نعيماً وهو فوق الزئير. ونحمت الإبل: زجرتها. وله في هذا الأمر قصة: شهرة، ونفى عنه. وهو منهوم به: لا يشبع منه. الزمخشري، م، ج 1، ص 492.

نازعت عيني على ما كان من نظر فقالت العين إن القلب ابــــلان
مهما نظرت إلى شيء أراقبه لميل نحوهم سري و إعلان
وهذه حالي يا جيري ولكم تضاعف الوجد من شوقي وأشجان¹
إني فتنت بذات الحال يا خولي وعذبت بجفاها العاشق الفــــان
يا قرة العين كم ترضى تفارقي رفقا علي أما يكفيك هجــــران
أنت لحالي وما قد بان من شغف و أعطفت بعد ذاك البحر سلــــوان
قالت وحق هواك اليوم ما نظرت عيناك عيناى إلا دبت من شــــان
الحب من شيمتي و الوجد معرفتي والصبر نافلتي يا ءال زيــــان
إني شغفت بكم من زمان مضى وأنت لم تدر ما قد كان أخفان
رقت حشاشة² قلبي من هواك وقد تضاعف السقم في روحي وأبدان
إني وحق جناة الحب ما اكتحلت والله بعدكم بالنوم أجفان
ولا شغفت بحسن غير حسنكم ولا أحدث عليكم في الهوى ثــــان
ولا شربت لذيد الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك خــــلان
ولا جلست مع قوم أحدثهم إلا حديثك مع قاص ومــــع دان
إن كنت مثلي فنعم الحب منقسما فافعل بفضلك ما أرضاك أرضــــان
ضممتها حين زارتنى بيهجتها وقلبها عندما أدعوه لبــــان
بتناوبات نعيم الدهر يانسا¹ والعيش صاف وروض الوصل ريــــان

1 - أشجان: جمع شجن وهو الهوى، قال الأزهري: والشَّجَنُ: هوى النفس، والشجن: الحاجة، والجمع: أشجان. انظر تهذيب اللغة، م س، ج 3، ص 450.
2 - قال ابن منظور: (كل بقية حشاشة والحشاش والحشاشة بقية الروح في المريض). لسان العرب، مادة حشش.

ولا رقيبا ولا واش يطوف بنا إلا الحسان بأصوات وألحان
 من كان غانيه رقت شمائلها تزهوا على ناعمات القضب² والبسان
 وكل عاطرة فاحت نواسمها من عنبر ومسكي وريحان
 هم سبوني وكم أسبوا الذي خطر من الملوك وجي اليوم برهان
 قد كان فيما مضى قبلي وإن جهلت مولى حباب وكسرا نوشروان
 دلت لعزتها أسد الوغى ولقد تزهو علينا وأيم الله غزلان
 كم من كريم وكم من ماجد بطل أفنى العزام وكم من عابد عسان
 يا لائمي في هوى الغزلان لا تلمن فما خلى من هواكم قلب إنسان
 وهذه قصتي يا عادلي وكفى إن الملام قد أعيأك وأعيان
 ولا جعلت بنات الحي من شغلي حتى شغفت بقدر البيض والزان
 وقد ألفت من الهيجاء عاطلة تشب يوم الوغى والحرب نيران
 وكم سقيت كؤوس الموت من بطل وقد حميت بحد السيف أوطان
 وكم قهرت عدوا ظالما غشما يوم اللقاء باطعان واطعان³
 وقد عمرت ديارا قل عامرها وقد جعلت ديار الأنس عميران
 وقد أقمت رسوم قل ناصرها يوم الهياج وكل الناس عسادان
 حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه والحمد لله في سري وإعوان

1 - يانس: مطمئن.

2 - القضب من الشجر: كل شجر سبط أغصانه وطالت، الأزهري، تهذيب اللغة، م س، ج 3، ص 148.

3 - ظعن، أي سار، ظعنا وظعنا بالتحريك. وقرئ بهما قوله تعالى: "يوم ظعنكم". وأظعنه: سيره. والظعينة: الهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن، والجمع ظعن وظعن، وظعائن وأظعان. وهذا يعبر تظعنه المرأة، أي تركبه. والظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، فإذا لم تكن فيه فليست بظعينة. انظر الجوهري، الصحاح في اللغة، م س، مادة ظعن.

نعم ولا بد من أخذ أرضهم بالمرهبات وحرد^١ تحت عقبــــــــــــان
حتى أروي سيوفي من دمائهم ريء الحجيح إذا حلت بغيةــــــــــــلان
وتسقط الهام والألباب طائشة والخيل عارية من غير فرســــــــــــان
والبيض تضرم نار الحرب إن خمدت والشمر^٢ مثل شهاب إثر الشيطان
والخيل عابسة كلت فوارسها والأرض كاسية من نور مرجــــــــــــان
فما ترى غير أبطال مجدلة^٣ ما بين سهل وأهضاب وكتبــــــــــــان
والأرض هامة^٤ والأسد داهشة^٥ والسيف ضاحكة الـــــــــــــزان
هناك تحمي حماها عندما اشتعلت والأسد ما بين سكران ونشــــــــــــوان
ونضرم الحرب صدمات يكل لها أسد الحروب ويعمور بن زيــــــــــــان
ونأخذ الثار مما قد نأى ودنى ويرجع الشرق بعد الغرب ديــــــــــــوان
فانظر يا بني هل ألواني شيء عن طلب الجحد أو ملنا بكليتنا إلى النساء
وحدثنا عن القصد فاعتبر ما رسمناه وخذ بما قررناــــــــــــاه.

1 - حرد: غضب، وهو حرد عليه وحارد. وأسد حارد، وأسود حوارد.

انظر الزمخشري، أساس البلاغة، م س، مادة ح ر د.

2 - الشمر: الاختيالي في المشي. يقال: مر فلان يشمر شمرا. وشمر إزارد تشميرا: رفعه. يقال: شمر عن ساقه. وشمر في أمره، أي خف. ورجل شمري، كأنه منسوب إليه. الجوهري، الصحاح في اللغة، موقع الوراق <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 367.

3 - قال ابن سيده في المحكم: (الأجلد: الصَّقر، صفة غالبية، وأصله: من الجَدَل الذي هو الشدة). ومنه فإن كلمة المجدلة تعني الأشداء.

انظر المحكم والمحيط الأعظم، منشور في موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ج 3، 268.

4 - الممود: الموت. ورماد حامد: قد تلبد وتغير، وهميد. وثمره حامدة: غفت. وأرض حامدة: مقشعرة، وهو من الشجر: اليايس. والإهماد: السرعة في السير. والإقامة بالمكان. وهمدان: قبيلة من اليمن، وهمد الثوب يهمد: يلي، وثياب همد، الواحد حامد.

انظر صاحب بن عباد، م س، ج 1، 301.

5- دھمش، کفر، فہر، دھمش، تحم، او ذہب عقلہ من ذہل او ولہ.

الفروز آبادي، القاموس المحيط، منشور فعلى موقع الوراق <http://www.alwarraq.com>، ج 2، 137.

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال

اعلم يا بني أن المال حرز الملك وبه ينتظم انتظام السلك، فأحرز حرز مالك بقليل الثناء وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء.

واعلم يا بني أن الثناء خير ما يقتنى، فابذل مالك في الثناء فإنه خير من الغنا ولا تكثر فيه السرف فإنه يؤدي إلى التلف.

إن الجود سائر العيوب غارس المحبة في القلوب وقد يكون سببا لكثير المال، ومحرز الكثير من جميل الخصال، فليكن جودك معتدلا في التقدير غير منسوب إلى التقصير ولا محسوب في السرف والتبذير، ثم مالك تبلغ آمالك، فإن من قل ماله تلاشت حاله وقلت أعوانه وضعفت أنصاره، المال زين والإقلال شين، والمال عون على العزى وحصن يتقى به من الردى، تدفع ألام الإعراض ويتوصل إلى المقاصد والأغراض، وبه يستفتح الصياصي¹ وتستملك النواصي، ويقاد العاصي ويستدنى القاصي، وبالمال تستعبد الرجال وتبلغ الآمال وتذل به الرقاب وتستفتح به الأبواب وتسهل الأمور الصعاب وتنال الرغائب وتنجوا به من المصائب، خير المال ما وقع به الانتفاع وشر المال ما تركته للضياع يقتر المرء على نفسه توفير أمنه على غيره فاجمعه من مواضعه ووفره ونم حيالته وثمره، وقوم ذمته بالعدل وتوسط في العطار والبدل.

وقد قال المثنوي:

فلا تجعل في الجد مالك كله ... فينحل مجد كان بالمال عقهده
ودبره تدبير الذي الجد كفه ... إذا حارب الأعداء والمال زنهده

1 - الصياصي: جمع واحدها صيصة بالتحفيف، والصيصة الحصن ومنه قوله تعالى: "من صياصيههم" أي من حصونهم التي تحصنوا بها. "وكل ما امتنع به" فهو صيصية" ج صياص "يحذف الياء على التحفيف. انظر الزبيدي، م س، ص 4472.

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده¹

يا بني استعن بثقات عمالك على جميع مالك فول الرفيق بالرعية الجاري على سبيل السوية تنل بذلك في الدارين الدرجة العلية ولا يحملنك حب المال على المسامحة في جور العمال فإنه إذا هلكت الرعايا عدمت الجبايا وإذا عوملت الرعية بالرفق كثر فيها النما والرزق، خذ المال من حقه وانفقه في مستحقه تكن أعـدل الناس وأفضل من ملك وساس، فما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه²، حاسب نفسك وعمالك يحفظون مالك.

يابني وبالجملة فالمال أعظم الذخائر الفاخرة وبه تنال الدنيا والآخرة، عليك بالإيثار مما أفاء الله عليك من الأنعام³ وخصوصا على حجاج بيت الله الحرام وزوار قبر النبي عليه السلام واجعلهم وسيلة يدعون لك في ذلك المقام فإن الدعاء هناك مجاب وليس بينه وبين الله حجاب.

وقد نظمنا في الشوق إلى ذلك المقام الشريف والمحل الأنوه المتيف قصيدة ورسالة بعثنا بما رجاء للثواب وتيسيرا للأسباب، وهي قولنا من وزن الخبب.

نام الأحباب ولم تنم عيني بمصارعة النـدم
والدمع تحدر كالدم⁴ جرح الخدين فيا أـلـم

1 - هذه الأبيات لأبي الطيب المتني وليست للمثنى.

انظر الجرجاني، الوساطة بين المتني وخصومه، منشور على موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ص 99.

2 - هو نص حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولفظه: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه). صححه الألباني.

انظر محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، برنامج منظومة التحقيقات الحديثة، إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية، ج 22، ص 91.

3 - إشارة إلى قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) سورة الحشر، الآية 9.

4 - الدم: جمع ديمة، وهو المطر الذي يدوم دوما يوما وليلة أو أكثر.

انظر العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، نسخة الكترونية منشورة على موقع الوراق:

وزجرت النفس فما انزجرت ونهيت القلب فلم يدم
والشيب نذير قد وافى و حلول الشيب مع المهرم
والعمر تولى منصر ما آه للعمر المنصرم
وكذا الأيام لها عبر وليالي الدهر كما الحلـم
والدار تغر بساكنها ويح المغرور بما النهـم¹
يا نفسي خدعت بزخرفها كم ذا تعترتها وكـم
يا رب ذنوبي قد عظمت فامنن بالعفو لمحتـم
فالعفو إلهي منك وأن الذنب وحقك من شـيـم
شأن المملوك الذنب وشأن المولى العفو عن الخدم
إني بذنوبي معترف والخوف أشد من الألم
يا رب إذا لم تعصمني مالي بذنوبي من عصـم
كم اجني الذنب وتمهلني وتقابل ذاك بالنعـم
ولكم أعصيك وتسترني يا ذا الأفضال وذا الكرم
ما زلت بفضلك ترحمني وتجوّد علي القـدم
والعبد ببابك ملتزم وبغير حمايتك لم يحـم
ورضى المحبوب له ارب فرضاه الفوز لمغتـم
يا رب سألتك تغفر لي بشفيـع الخلق من الأمم

http://www.alwarraq.com، ج 2، ص 129.

1 - النهم: الأكل. انظر الفيروز آبادي، م س، ج 1، ص 374.

ولجوا إلى الفرار، وأيقنوا بالتباب¹ والتبار²، وحل بهم الخسار والبوار، ولم ينفعهم التحصن بالأسوار من شبا³ سُمرِ الرماح وظفا⁴ بيض السفار⁵، وتركناهم إلى غد ذلك اليوم إبقاء منا على القوم، ولم تكتحل أجفانهم تلك الليلة بنوم، فلما كان من الغد افتتحناها عنوه عليهم وخلصناها من جميع جهاتها إليهم وذلك غرة ربيع الأول من عام ستين وسبع مائة⁶، فتشفعوا إلينا بالفقهاء والصلحاء في الإبقاء عليهم وخلوصهم إلى غربهم بجميع ما لديهم، فأسعفناهم بما طلبوا من العفو وسوغناهم من الأمان العذب والصفو، وذلك هو المعهود منا ومن أسلافنا الكرام وخيرناهم بين الانصراف والمقام فمن انصرف فمبلغ المراد والمرام، ومن أقام للخدمة المرضية فمرعى الدمام، ومحمول على البر والإكرام فاستقللنا بحضرتنا العلية والبلاد كلها مرينية واستولينا على ما كان بتلمسان واستقر لنا بما الملك والسلطان ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان ليس بيننا وبينهم إلا مسيرة يوم أو نصف يوم، ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم فلم نزل.

يا بني نستعمل معهم المحاولات والمكائد وننصب لهم الاشرار بكل المراصد إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم وجازيناهم على تعديهم وذلك بين محاولة وقهر وتأيد ونصر، ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش ولا مال فبلغنا بالسياسة

1 - التباب: بالفتح الخسران والهلاك تقول منه تبيت يا رجل تبب بالكسر تبابا. وتبت يداه وتبا له أي ألزمه الله هلاكاً وخسراناً. انظر زين الدين الرازي، مختار الصحاح، موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ص 38.

2 - التبار: الهلاك والفناء، الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 136.

3 - شبا: مصدر شب أي اشتعال، تقول شب النار والحرب أوقدها يشبها شبا وشبوا وأشبا وشبت هي تشب شبا وشبوا وشبة النار اشتعالها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة شب.

4 - ظفا: شد، قال الكسائي: ظففت قوائم البعير وغيره أظفها ظفا إذا شددتها كلها وجمعتها. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة ظفف.

5 - السفار: خيط يشد طرفه على خطام البعير فيدار عليه، ويجعل بقيته زمامها، وربما كان السفار من حديد، والجمع أسفر. ن م، ج 2، ص 61.

6 - إشارة إلى محاصرته المرينين في تلمسان قبل فرار السلطان أبي عنان المريني.

والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم وأحوالنا أحسن من أحوالهم وأعدادنا أكثر من أعدادهم وأجنادنا أوفر من أجنادهم وبلادنا أمهر من بلادهم، وقد شرحنا ذلك في قصيدة نظمناها ومقتضى الحال ضمناها، وهي

قولنا:

جرت دموعي بين الرسوم الطواسم¹ لما شحطتها² من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما لخطابها وأي خطاب للصفات الصلادم³
وسرت على حذر مشحب⁴ كلمعة برق أو كلمحة صلدم
وجلّت بطرف الطرف في عرصاتها⁵ كجولة واه أو كوقفة هائم
وصفقت ما بين الطلول⁶ خوامسي وسالت سواقي الدمع مثل الأرقام⁷
وقلت لصحي لا تمل من السرى ولا تزدرىك اليوم لومة لائم

1 - الطواسم: ما طمسه الغبار واخفى معالمه ورسومه. ابن كثير ابر الفداء اسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، حققه ودقق اصوله وعلق حواشيه علي شيري، إحياء التراث العربي، ط 1، 1988 م، ج 11، ص 280، تعليق المحقق، هامش 2.

2 - الشحط: البعد، شحط يشحط شحطاً. ومترل شاحط وشحيط، أي بعيد.

انظر ابن دريد، جمهرة اللغة، موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 275.

3 - صلادم: أشداء، فرس صلدم بالكسر: صلب شديد، والأنثى صلدمة. ورأس صلدم وصلادم بالضم: صلب. والجمع صلادم بالفتح. الجوهري، الصحاح في اللغة، موقع الوراق:

<http://www.alwarraq.com>، ص 393.

4 - مشحب: من شحب بمعنى تغير، تقول شحب لونه، كجمع ونصر وكرم وعني، شحوبا وشحوبة تغير من من هزال أو جوع أو سفر. انظر الفيروز آبادي، م س، ج 1، ص 79.

5 - العرصات: جمع عرص، و(العرص خشبة توضع على البيت عرضا إذا أرادوا تسقيفه وتلقى عليه أطراف الخشب الصغار). ابن منظور، م س، مادة عرص.

6 - الطلول: جمع مفردة طل، والطلل الشاخص من الآثار والجمع أطلال مثل سبب وأسباب وربما قيل طلول طلول مثل أسد وأسود. الفيومي، المصباح المنير، موقع الإسلام:

<http://www.al-islam.com>، ج 5، 427.

7 - الأرقام: ضرب من الحيات. ابن منظور، م س، مادة رقم.

وسل سائرات الحي أين تحملوا فقد عيل صبري بين تلك المعالم
 ديار عهدناها الشمل جامع مع الغانجات¹ الآنسات النواع
 وكم ليلة بات السرور مساعدي بشعري وسلمى والمنى أم سالم
 فعادت رسوم الدار بعد أنيسها هشيمًا ولا تخفى بقايا المراسم
 وكم نسجتها من جنوب وشمال وكم سجعتها من لغات الحمائم
 كأني بهم والله يوم تحملوا وحادي النوى يحدو بذات المقاسم
 قطعنا الفيافي بالقلاص² وإنما تجاب الفلى³ بالخف أو بالمناسم⁴
 وقد خلقتها بين الرياح زواجا تسابق في البيدا ظليم النعائم
 مكحلة الأحداق فيها هشاشة مهملجة⁵ الأطراف سود المباسم
 ومعها أسود الحرب تطوي بما السرى يرون المنايا بعض المغام

ونخضت الفيافي فدفا⁶ بعد فدفا لقصد العلى والصبر إذ ذاك لازم
 وكم ليلة بتنا على الجذب¹ والطوى² نراقب نجم الصبح في ليل عاتم³

عاتم³

1 - "الغنج بالضم وبضمتين وكغراب" الأخيرة عن كراع: الشكل "بالكسر وقيل: ملاحاة العينين. الزبيدي، م س، مادة غنج.

2 - القلاص: جمع مفردة قلوص وهي الناقة الصغيرة

3 - الفلى: جمع مفردة فلاة وهي القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أي فطمت وعزلت وقيل هي التي التي لا ماء فيها. ابن منظور، ن س، مادة فلا.

4 - المناسم: المنسم كمجلس، طرف خف البعير؛ وهما كالظفرين في مقدمه بما يستيان أثر البعير الضال قال قال الاصمعي وقالوا منسم النعامة كما قالوه للبعير كما في الصحاح وخلف الفيل منسم والجمع مناسم، الزبيدي، فصل النون.

5 - مهملج مذل منقاد. صاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 329.

6 - الفدفة هي الأرض الغليظة المرتفعة ذات الحصى فلا تزال الشمس تشرق فيها، فلذلك حصوا بالنشبه بها بها الرجال في الحرب إذا برقت بينهم السيوف. ابن دريد، جمهرة اللغة، موقع الوراق

http://www.alwarraq.com، ج 1، ص 70.

على متن صهال⁴ أغر محجل⁵ مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم⁶

تسربل⁷ كردوسين⁸ من ءال عامر ومن ءال إدريس الشريف ابن قاسم

رجال إذا حاج الوطيس⁹ تراههم أسود الوغى¹⁰ من كل ليث ضبارم¹¹

وجبت الفيا في بلدة بعد بلدة وطوعت فيها كل باغ وناعم

وجئت لأرض الزاب فاضت مدامعي تذكرت أطلال الرسوم الطواسم

وشبكت عشري فوق رأسي فلم أرى بما مخبرا غير الربا¹² والمعالم

وجاوزتها ما بين هوج¹ هجائن² رقاق الهوادي³ عاليات القوائم

القوائم

1 - الجذب المحل تقيض الخصب وفي حديث الاستسقاء هلكت المواشي وأجذبت البلاد أي قحطت. ابن منظور، م س، مادة جذب.

2 - الطوى: الجوع. الأزهرى، تهذيب اللغة، ج 4، 424.

3 - عاتم: مظلم.

4 - الصهيل: صوت الخيل. صهل يصهل صهيلا، وفرس صهال: كثير الصهيل. الخليل بن أحمد، م س، ج 1، 259.

5 - يوم أغر محجل: مشهور. الدكتور سعدي أبوحبيب، القاموس الفقهي، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1988 م، ص 78.

6 - الصلدم: القوي الشديد الخوافر، والأنثى صلدمة، قال: يخطفها بمخلب صلادم وكذلك الصلادم، وجمعه صلادم. الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 49.

7 - السربال: القميص والدرع وقيل كل ما ليس فيه سربال وقد تسربل به وسربله إياه وسربلته فتسربل أي ألبسته السربال وفي حديث عثمان رضي الله عنه لا أخلع سربالا سربليه الله تعالى. ابن منظور، م س، مادة سربل.

8 - الكردوس الخيل العظيمة، يقال كردسوهم كراديس، والكردوسين مثني. صاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 72.

9 - حاج الوطيس: اشتدت الحرب. الدكتور سعدي أبوحبيب، م س، ص 103.

10 - الوغى: اختلاف الأصوات في الحرب، وكثر ذلك حتى سميت الحرب: الوغى. انظر ابن دريد، جمهرة اللغة، ج 1، ص 93.

11 - ضبارم: شديد. ابن دريد، م س، ج 2، ص 185.

12 - الربا هكذا مكتوبة في الأصل والصواب الربى، وهي أرض مرتفعة، وجمعها الربى.

انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 176.

وجزت بأرض الزبغ زاعغت بأهلها ببلقعة⁴ قفراء قفاها عزائ^م
 سألت ربوع الدار يوما فلم أجد بها معلما يأتي إلي بعالم^م
 شردت عرى للنجع من كل جانب وسيرتها مثل الرياح الرواك^م
 تخيلتها مثل القطا⁵ في مسيرها وفوق ذراها⁶ كل سهم وحزام^م
 وحفت بنا الأبطال من كل جانب تذكرها عهد الهوى بالصمائم^م
 وجيت لواركلا وجزت مصابها ولا مخبرا غير الصلادم⁷ الأعاجم^م
 ومازلت أطوي سيرها وأكامها وأحطمها بين الربا والمضائم⁸
 قطعت الحمادي والسراب غديرها على هيكل عبد الذراعين هاضم^م
 مكر ليوم الحرب لا يشتكي ألونا⁹ مفر إذا طالت عظام الهزائم^م
 إلى أن بدا لي واد زرقون أزرقا وبانت عليه شاحبات الغمام^م
 طرقت برأسي واستفزيت بالكري¹⁰ وكم من ليالي بتها غير نائم^م

- 1 - الموج: مصدر الأهوج، وهو الأحمق. ويقال للشجاع الذي يرمي بنفسه في الحرب: أهوج. والطوال إذا أفرط في طوله: أهوج الطول. والهوجاء: الناقة السريعة. ن م، ص 275.
- 2 - هجائن الإبل البيض. ابن دريد، م س، ج 1، ص 250.
- 3 الهواذي: الهادية من كل شيء أوله وما تقدم منه، والمقصود في البيت رقاب النوق. انظر الأزهري، م س، ج 2، ص 359.
- 4 - البلقعة: الأرض القفر التي لا شيء بها. انظر الجوهري، م س، ج 1، ص 53.
- 5 - القطا: طير، والواحدة قطاة. انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 407.
- 6 - ذراها بفتح الذال: ناحيتها.
- 7 الصلدم: القوي الشديد الخوافر، والأنثى صلدمة، قال: يخطفها بمخلب صلادم، وجمعه صلادم. انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 49.
- 8 - المضائم جمع مفردة المضيمة وهي الطعام يعمل في وفاة الرجل. انظر صاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 290.
- 9 - ألون، بالضم، بمعنى ذوو. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 3، ص 52.
- 10 - الكرى: النعاس. الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج 5، ص 403.

وجددت في طلب السرايا مسربلا بسير حثيث أو سرى متـداوم
 وكم من فيافي قد قطعت آكامها¹ وكم نسمة جادت عليها نسائم
 وكم ربوة تعلو من القلب صاعدا جراها وكم دمع على الخد ساجم
 وبتنا نسوق النجع² في غياهب³ الدجى⁴ وحرصاننا فيها كشهب عواتم
 إلى ملل ملنا وما ملت السرى سرايا ركاب كالقسي⁵ السواهم⁶
 ولما بدا لي غيهب القوم ظاهرا وحبهم بين الطلال الغياهم⁷
 جبدنا مجاييدا وجدت جياذنا وجات كما العقبان بين السقاهم
 وضممر عناجيج⁸ على صهواتنا⁹ كرام تجود بالنفوس الكرائهم
 تطارد فيها الخيل بالخييل مثلها فكان على الأعداء كر الهزائم

-
- 1 الآك- ام والإكام هو ما علا من الأرض على ما حوله. ابن دريد، جمهرة اللغة، ج 2، 109.
 2 نجع الطعام، كمنع، نجوعا هنا آكله، والوعظ والخطاب فيه دخل.
 انظر الفيروزآبادي، م س، مادة نجع.
 3 - الغياهب جمع غيهب وهو الظلمة تقول فرس غيهب إذا اشتد سواده، قال أبو عبيد: أشد الخيل دهمه الأدهم الغيهبي وهو أشد الخيل سوادا والأنثى غيهبة والجمع غياهب. ابن منظور، م س، مادة غهب.
 4 - الدجى: الظلمة. يقال: دجا الليل يدجو دجوا. وليلة داجية. وكذا أدجى الليل وتدجى. ودجاجي الليل: حنادسه، كأنه جمع دجاجة. وقال الأصمعي: دجا الليل إنما هو ألبس كل شيء، وليس هو من الظلمة. قال: ومنه قولهم: دجا الإسلام، أي قوي وألبس كل شيء. انظر الجوهري، م س، مادة دحص.
 5 - القسي: نوع من الأشجار. انظر صاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 408.
 6 - السواهم: جمع مفرده ساهم، قال ابن دريد في بيان معناها: (سهم وجه الرجل فهو ساهم، إذا ضمير وتغير من جوع أو مرض؛ ومنه قولهم: خيل سواهم، إذا اعترق التعب لحم وجوهه) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج 1، ص 482.
 7 - الغياهم جمع غيهم وهو الظلمة.
 انظر صاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 275.
 8 - العناجيج: واحدها عنجوج، ويقال لجياد الخيل: عناجيج.
 انظر الزبيدي، م س، مادة عوج.
 9 - صهو: استوى على صهوة الفرس وهي موضع السرج. وركب صهوة الجمل وهي موخر السنام. ونشأوا ونشأوا على صهوات الخيل.
 انظر الزمخشري، م س، ج 1، ص 268.

شددنا عليهم شدة مضرية فولوا شرادا مثل جبل النغائم
 فدلّت بسويد ثم خلت بجيرها وشيخ حماها في لجوج¹ المصمّاد
 وكم خلفوا ما بين فكر وفكرة وكم عادة ملتفة في الهدائم
 وكم قبة طاحت وطاح أميرها على الأرض ما بين الصفا والرتائم²
 وجالت خيول للحجاز كأنها عقاب تمطى³ بين فرق الحمائم
 فحاز الثنا فيها سفير ابن عامر كما حاز من قبل دياب ابن غانم
 وطاحت هياشيم على الأرض طعمة بوادي ملال للنسور القشاع⁴
 فكانوا إلى الطير الغشيم فرائسا وكانت على الأعداء شؤم الذمائم
 وهبت رياح النصر من كل جانب وكانت إلينا مبهجات الغنائم
 ولما قضينا الأمر في الحرب منهم رحلنا بعون الله نحو المعاليم
 وخضرا كبود قد تبدت هضابها وهبت رياح عاطرات النواصم
 درجنا إلى درج ولاحت بشائر بملك الأعادي التاعسين الأشائم¹

1 - اللجاج، واللحاجة الخصومة، واللحوج المخاصم.

انظر الفيروزآبادي، م س، ج 1، ص 149.

2 - الرتم: خيط يعقد على الإصبع للعلامة، وهي الرتيمة، والجميع الرتائم، والرتمّة: نبات من دق الشجر؛ شبه
 شبه بالرتم لدقته.

انظر صاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 374.

3 - تمطى من التمطط؛ وهو التبخر ومد اليدين. وأصل تمطى تمطط؛ تفعل من المط وهو المد.
 الزمخشري، الفائق في غريب الحديث و الأثر، نسخة الكترونية منشورة على موقع الوراق:

<http://www.alwarraq.com>

4 - القشاع: المسنة من السور، والمفرد قشع.

انظر ابن دريد، الاشتقاق، نسخة الكترونية منشورة على موقع الوراق، وعنوانه:

<http://www.alwarraq.com>

ألا أيها الناعي البشير الذي نعى أمير مدين حزت أسني المقاسم
 لقد قرب الله البعيد بملكه فبشراك بالخيرات يا خير قدام
 ولاحت لنا فرتون فافترت المنى إلينا ابتساما بالشغور البواسم
 وصارت أسود القلب تأتي مطيعة وعادت لنا الأيام مثل المواسم
 قطعنا الثنايا والخميس مسربل صلاصله² مثل الرياح القواصم
 وفي يسر ءامالنا فسرت لنا وجردت للأوطان فيها عزائم
 وبتناوبات النوم غير مساعدتي وإني على جد الثرى جد عازم
 وصرنا ضحى والنصر يهفو أماننا برايات سعد فوقنا كالغمام
 قدمنا وكان النصر يرجو قدومنا وكان على الأعداء شر المقام
 وصفوا صفوفنا ثم صفت صفوفنا وسالت دموع القوم مثل العنادم
 وجالت ليوث الحرب بين صفوفها وحط بما الخطى بين الحلاقم³
 ولاح شعاع الهند بين صفوفنا كبدر تبدي بين درج الأراقم⁴

1 - الأشائم من الشوم، يقال: رجل مشؤوم، وقد شتم.. وشام فلان أصحابه، إذا أصابهم شؤم من قبله، ويقال: طائر أشام، وطير أشام، والجمع: الأشائم.

انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 6، ص 295.

2 - صلاصل: أصوات، جاء في الإمام مسند أحمد عن عبد الله بن عمر سألت النبي صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحي؟ فقال: (أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلى إلا طننت أن نفسي تقبض).

انظر الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد، نسخة الكترونية منشورة على الانترنت موقع الإسلام:

<http://www.al-islam.com>، ج 14، ص 312.

قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبته.

انظر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، نسخة الكترونية منشورة موقع الوراق:

<http://www.alwarraq.com>

3 - الحلاقم: جمع حلقوم وهو الخنجرة.

4 - الأراقم: هي نوع من الحيات.

سمونا إلى اصطفتيك واشتد بيننا حروب تشيب الرأس قبل الفطائم
 كررنا عليهم كرة بعد كرة وقد سمرت للحرب نيران جاح¹
 بضرب يزيل الهام² عن مستقره وطعن مضى بين الكلا والحيازم³
 فهذا أسير صفدته يد الوغى وهذا قتيل في عجاج المص⁴
 فطوبي لعبد الواد عند ازدحامهم لقد جدلوا في الحرب كل مزاحم
 وجالت خيول العامرية فوقها أسود الثرى في بحرها المتلاطم
 وعادت شعاع الشمس في الجو اصفر وحال ذباب السيف فوق الغلاصم⁴
 جعلنا كرديسا على كل ربوة وطالت رقاب الأسد تحت العمائم
 شددنا عليهم شدة بعد شدة فولوا فرارا والتجوا للمعاصم
 وداروا بأسوار المدينة كلها كدور سوار فوق حسن المعاصم
 وقد برزت من حذرهما كل غادة درجن على الأسطاح درج الحمائم
 وقد عاد ذاك الجمع منهم مكثرا يجمع لنا بين الكتائب سال⁴
 فرامت مرين الصلح بعد فرارها وقد ظلموا عمدا ولست بظالم

انظر الزمخشري، أساس البلاغة، م س، ج 1، ص 180.

1 - نار جاحمة: شديدة الحر.

انظر الزمخشري، أساس البلاغة، ج 1، ص 54.

2 - الهام: جمع هامة وهي الرأس.

انظر الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 284.

3 - قال القرطبي: الحيازم جمع حيزوم وهو وسط الصدر.

تفسير القرطبي، موقع: <http://www.yasoob.com>، ج 18، ص 216.

4 - الغلصمة: رأس الحلقوم بشواربه وحرقدته وهو الموضع الناتئ في الحلق، والجمع الغلاصم وقيل الغلصمة اللحم الذي بين الرأس والعنق، وقيل متصل الحلقوم بالحلق إذا ازدرد الأكل لقمته فزلت عن الحلقوم، وقيل هي العجوة التي على ملتقى اللهاة والمريء، وغلصمه أي قطع غلصمته ويقال غلصمت فلانا إذا أخذت بقلقه. ابن منظور، م س، مادة غلصم.

فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها وتتساقط الأبدان تحت الجماجم
وتخلى من الأعداء دارا عهدتها الغانجات الناعمات الكـرائم
وجئت تلمسان التي كنت أرتجي كما ذكروه في كتاب الملاحـم
وخلصت من غصابها دار ملكنا وطهرتها من كل باغ وظالـم
لقد أسلموها عنوة دون عدة وقد طلقوها بالقنا والصـوارم
ولم يغنهم ما شيدوا من معاقل ولم يجدهم ما حصنوا من معاصـم
ولا كثرة الجيش اللهم¹ مذرعا ولا ما أعدوا من قس وسواهم
إذا لم يكن للمرء سعد مساعد فما تغني تعداد الجيوش الخـضـارم²
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهباً شمله دون ناظـم
شددنا له أزرا وشيدنا بناءه بأوثق أركان وأقوى دعائـم
فعادت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التماس المكـارم
وجاءت لنا من كل أوب³ وجهة تبايعنا طوعاً أجود العمائـم
أنا الملك الراسي ولست برأسي ولكني مفني الطغاة الأعاضـم⁴
فقمنا بأمر الله في نصر دينه وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم

1 - اللهم: الجيش الكثير كأنه يلتهم كل شيء.

ن م، مادة لهم.

2 - الخضارم: الكثيرة؛ قال ابن منظور: الخضرم (الواسع) الكثير من كل شيء.

لسان العرب، مادة خضرم.

3 - أوب: ناحية؛ قال ابن دريد: جاء القوم من كل أوب، أي من كل ناحية.

جمهرة اللغة، ج 1، ص 84.

4 - الورقة رقم 8 سقطت من المخطوط، وهي تبدأ من قوله: (فقمنا بأمر الله في نصر دينه) وتنتهي بقوله: (يا بني أعمل بوصيتي تنجح)، وقد نقلنا محتوى هذه الورقة من النسخة الحجرية.

فله منا الحمد والشكر دائما وصلى على المختار من آل هاشم.

فانظر يا بني ما قاسيناه في هذه الأمور الشديدة، وما ضربناه لأعدائنا من شدة الحرب ورقة المكيدة إلى أن تأتينا أبلغ السبل، وتوصلنا بعناية الله إلى أوفق مأمول، فكذلك ينبغي لك أن تقتدي بكل أفعالنا، ويؤول أمرك إلى ما آل إليه مآلنا، تأخذ باليقضة والحزم والرفق في بعض الأمور وبعضها بالعزم، ولا تنيب عن يومك في أمره غدا إذا وجدت الفرصة من الأعداء.

يا بني واجعل عزمك في الأدب في الأفعال، والصدق في جملة الأقوال، وإن وعدت عدة فالواجب أنك توفها، ولا تكثر الضحك إلا تبسما فإن كثرة الضحك يميت النفس¹.

يا بني وليكن مجلسك مجلس سكينة ووقار، ولا يجلس معك إلا أناس أختار. يا بني ولتكن في هيئة جلوسك متربعا ولتكن حسن السمات، كثير الصمت، ولا تكثر التحرك ولا التقلب يمينا ولا شمالا، وليكن نظرك إلى الناس نظرا خفيا، تلاحظهم بطرفك اختلاسا بحيث لا يشعرون بنظرك إليهم، فتعلم بذلك النظر ما يبدو على وجوههم من المسرة وغيرها، وأما ركوبك يا بني فينبغي لك ألا تكثر من الركوب إلا في أوقات معلومة، لأنك إذا أكثرت من الركوب ملّك الناس، وإذا أقللت من الركوب ذمك الناس، لأنك إذا احتجبت عن الناس ظنوا أنك منشغل بالدنيا ولذاتها، وإن أكثرت من الركوب كثرت مباشرتك للعامة، وإذا كثرت مباشرتهم لك ملّوك وزادوا في النظر إليك، وليكن ركوبك بسكون، وسيرك بتوءدة ولا تلتفت في ركوبك يمينا ولا شمالا لأن الالتفات يمينا وشمالا دال على ضعف العقل، وكذلك التقلب في سرجك، والهمز الكثير في سيرك، وأقصر من الحديث في

1 - إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب).
رواه ابن ماجه في سننه، باب الحزن والبكاء.

ركوبك، لا مع وزيرك ولا مع خاصتك إلا فيما تدعو الضرورة إليه في جميع ما ذكرناه، ولا تكثر اللعب في الميدان إلا في أوقات لا يعاب عليك فيها اللعب.

يا بني وإذا فعلت فعلا حسنا فلا تكن شاكرا نفسك لغيرك، ولا تظهر الإعجاب بنفسك، وعليك بالزينة في جلوسك وركوبك، والتطيب والتجمل بالحسن من الثياب، فإن ذلك مما يزيدك مهابة وجمالا في أعين الناس.

يا بني واستعن على اعتدال مزاجك وحفظ صحتك بالتوسط في طعامك وشرابك، ولا تكن منهمكا في الأكل ولا تاركا له بالكلية، ولكن بقدر معلوم في أوقات معلومة فإن ذلك أحسن لحالك، وأصح لجسمك، ولتأكل من الطعام ما تطيب به نفسك، ويعدل به مزاجك، ولا تدخل الطعام على الطعام.

يا بني لا تكثر الدخول إلى الحمام فإن الإدمان في الدخول عليه يضعف القوى، ويهرم الجسم، ويسرع بالشيب، ويضعف البصر، ولتأخذ من جميع الأشياء بقدر معلوم.

يا بني واختر لنفسك طبيا ماهرا عاقلا أدبيا فاضلا ثقة محبا ناصحا. ومع هذه الصفات لا تمكنه من نفسك حتى لا يكون أعلم منك بنفسك، فإن اتخاذ الطبيب فيه قوة للقلب وراحة للنفس، وهو وإن كان له في الحكمة أوضح دليل وكان كما وصفناه فهو في الحقيقة عليل وإنما الطبيب آلة السماء، فنعم الطبيب ونعم الوكيل، وقد قيل لأبي بكر في مرضه أندعو لك طبيا؟ فقال: الطبيب الذي أمرضني.

ومع هذا فقد خلق الله الداء وخلق الدواء وجعل الراحة على يد من يشاء، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء)¹.

1 - الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، موقع: <http://www.yasoob.com>، ج 5، ص 422.

يا بني ولا تأمن على طعامك وشرابك الأحداث من النساء تدعوهن شراهية
الصبا إلى أن يخلطن في طعامك وشرابك ما يرين أنه ينفعهن ولا يضرك مما يستملن
به قلبك فيؤول أمرهن إلى أن يصنعن لك ما يضرك في طعامك.

يا بني ولا تغفل عن تفقد قصرك في ليلك ولا نهارك، ولا تأمن عليه أحدا
غيرك، ولا تجعل لقصرك بايين وأقطع الداخل والخارج، ولا يدعوك حب النساء
إلى أن تكثر الولائم والأعراس والتزهر، وشبه ذلك فإن حب الأعراس والولائم
والترهات يدعو إلى حب الشهوات، وحب الشهوات يدعو إلى فساد العقل
والدين، وإذا فسد العقل والدين فسد الملك واختل نظامه، لأنه بفساد العقل تفسد
عليك أمور دنياك، وسياسة ملكك، وبفساد دينك تفسد عليك آخرتك.

يا بني أياك والغفلة في أحوالك، ولا تكثر النوم في ليلك ولا في نهارك،
واشتغل عن نومك بالفكرة، فإن في الفكرة العبرة وفي الغفلة الحسرة، وليكن
قصرك يا بني محفوقا بالفتيان والحجاب، ولتكن فتيانك على باب قصرك من
خارج، واسلك في تربيتهم أحسن المناهج؛ فلا يطلعون على أسرار قصرك، ولا
ينكشفون على مخبئات أمرك، وليكن لك أعوان للانتقام ممن لزمه الأدب من
خدمك وأهل قصرك، ولا يدخلون إلا أمامك، ولا ينتقمون من أحد إلا قدامك،
وهذه خاصيتهم لأن لهم مهابة في الأدب بالنسبة إلى غيرهم، ولا تطلع أحدا على
قصرك ولو أنه أقرب أولادك إليك.

واعلم يا بني أن أحسن الأشياء وأجلها وأفضلها وأكملها العفاف والصيانة
والحزم والديانة وحسن الظن بالله والتسليم لأمر الله.

يا بني أعمل بوصيتي تنجح وجانب معصيتي تفلح، فإنك إن عملت بوصيتي
رجوت لسلطانك الدوام ولخلافتك سعادة الأيام والله خليفتي عليك فيما دونته
إليك.

الباب الثاني:

في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه في قوام سلطانه،
وهي أربعة قواعد: د:

- قاعدة العقل - قاعدة السياسة - قاعدة العدل - وقاعدة جمع المال
والجيش،
على الترتيب.

الفصل الأول¹: قاعدة العقل

اعلم يا بني أنه لما خلق الله العقل فقال أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال الله

عز وجل: وعزتي وجلالي لأجعلنك في أحب الخلق إلي².

وعر أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عمير ازدد

عقلا تزد من ربك حسنا)³. وقال صلى الله عليه وسلم: (أفضل الناس أعقلهم)⁴.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: (سالت عائشة رضي الله عنها عن الرجل

يكثر قيامه ويقل رقاده)⁵.

وعن الرجل يكثر رقاده و يقل قيامه أيهما أفضل؟ قالت عائشة رضي الله

عنها: سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالهما فقال: (أحسنهما أحسن

1 - عبارة "الفصل الأول" من وضعنا

2 - إشارة إلى ما ورد في زوائد عبد الله بن الإمام أحمد بأنه ورد حديث لفظه: (إن الله لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك فبك آخذ وبك أعطي). قال في المقاصد نقلا عن ابن تيمية وغيره أنه كذب موضوع باتفاق.

انظر إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، موقع: <http://www.yasoob.com>، ج 1، ص 236.

3 - أخرجه ابن حجر العسقلاني، ولفظه: (عن ابن جابان، عن لقمان بن عامر، عن أبي الدرداء، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: «يا عويمر، ازدد عقلا، تزد من ربك قريبا»)، انظر المطالب العالية، باب العقل وفضله، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع: <http://www.alsunnah.com>.

4 - أخرجه الميثمي في بغية الباحث المسمى بغية الحارث، ولفظه: (حدثنا داود بن المحير ثنا ميسرة عن محمد بن يزيد عن سعيد بن المسيب أن عمر وأبا هريرة وأبي بن كعب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس؟ قال: العاقل، قالوا فمن أعبد الناس؟ قال: العاقل قالوا فمن أفضل الناس؟ قال: العاقل، فقالوا يا رسول الله أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادة كفه وعظمت منزلته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وإن كل ذلك لما تمت الحياة الدنيا إلى آخر الآية وإن العاقل المتقي وإن كان في الدنيا خسيسا قصيا دنيا).

انظر الحافظ الميثمي نور الدين على بن أبي بكر المتوفى سنة 807 هـ، بغية الباحث عن زوائد مسد الحارث تحقيق وتعليق مسعد عبد الحميد محمد السعدني، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، د ت، ص 260.

5 - لم أجد هذا النص في أي مصدر من مصادر الحديث.

عقلا، قالت: قلت يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما، قال: إنما ينظر لعقولهما فأيهما أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة¹.

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تعجبوا من إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله)².

وعن ابن وهب بن منبه قال: (وجدت في بعض ما انزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئا أشد عليه من مؤمن عاقل وأنه يكابد مائة جاهل فيسخر بهم يركب رقابهم فينقادون إليه كيف شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتى لا ينال منه شيء من حاجته)³.

والعقل غريزة يضعها الله حيث شاء وهو نور يقذفه الله تعالى في القلوب الفاضلة وهو ينقسم قسمين: غريزي ومتسبب؛ فالغريزي ما يقع به التفريق الصور والحقائق والتفريق بين أخلاق والخلائق، والمتسبب هو نتيجة وهو إصابة الفكرة وثقافة المعرفة وليس له حد ينتهي إليه لأنه لا يتناهى إن استعمل وينقص إن أهمل، وزيادته تكون بأحد وجهين:

أحدهما: أن يقارن صاحبه من مبدأ النشأة⁴ ذكاء أو حسن فطنة كما قال الأصمعي لأحد أولاد العرب أيسرك أن تكون لك مائة ألف درهم وتكون أحمق؟

1 - لم يرد الحديث باللفظ الذي ذكره المؤلف وإنما بلفظ آخر وهو: (عن أبي قتادة قال: قلت: يا رسول الله أرايت قول الله («أيكم أحسن عملا» ما عني به؟ قال: «أيكم أحسن عقلا» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلكم تطوعا»). مسند الحارث، منشور على شبكة الأنترنت، موقع: <http://www.alsunnah.com>، باب: ما جاء في العقل.

2 - رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعلموا عقدة.

3 - انظر أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، منشور على شبكة الأنترنت،

موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، باب: وهب بن منبه.

4 - النشأة من نشأ، قال ابن منظور: أنشأه الله خلقه ونشأ ينشأ نشأ ونشأ ونشأ ونشأ ونشأ حي، وأنشأه الله الخلق أي ابتداء خلقهم، وفي الترتيل العزيز: وأن عليه النشأة الأخرى أي البعث.

انظر لسان العرب، مادة نشأ.

قال لا والله، قلت ولم؟ قال أخاف أن يجني علي حمقي جناية فيذهب مالي ويبقى حمقي؛ فاستخرج هذا الصبي بذكائه ما يدق على من هو أكبر منه سناً. الوجه الثاني: ما يحصل لذوي التجربة مرآة العقل و الغرة ثمرة الجهل ولذلك حمدت بعض آراء الشيوخ حتى قالوا الشيوخ أشجار الوقار وينابيع الأخبار ولا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم.

واعلم يا بني أن بالعقل تتميز أصناف العالم وتقع التفرقة بين الأناسي والبهائم، وبالعقل تفصل بين الحق و الباطل، والمفضول والفاضل، والعالم والجاهل، والجائز والمستحيل، والصحيح والعليل.

وبالعقل تكسب الفضائل و تجتنب الرذائل وبالعقل يعمل المرء ويجعل خاتم الملك في يده.

وبالجملة بالعقل تقتني المآثر الفاخرة وتجمع بين الدنيا والآخرة فإذا تقرر هذا فالملك بالنسبة للعقل على أربعة أقسام: ملك له عقل يصلح به الدنيا وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه.

القسم الأول: الملك الذي له عقل يصلح به دنياه وأخراه

يا بني و هذا هو العقل التام الذي تميز به الخاص من العام والسياسة الكاملة التي تعلق بالمنفعة الشاملة.

يا بني وعلامة المتصف به أن يكون فيما بينه وبين الله عز وجل حس السريرة، وأن يسير في الرعية بأحسن سيرة، وأن يكون حاكماً على هواه، يؤثر عقله على ما سواه، وأن يحب لرعيته ما يحب لنفسه، وما يستجلب به الرعايا من لطف أنسه، كما قال سالم ابن عبد الله لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين اجعل الناس ثلاثة: كبيرهم أبا وأوسطهم أخا و صغيرهم ولداً، فبر أباك، وأكرم أخاك، وارحم ولدك،

فإذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها والأوصاف التي بينها اقتضى ملكه بالدوام، وأجمع على محبته الخاص والعام، ورجى له النصر في كل مقام، وتسنى له الظفر بكل المرام، فإن مات بقي ذكره دائماً، والثناء عليه قائماً، وهذا في الملوك كعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ كان له عقل أصلح به دنياه وأخراه، ونال من كليهما ما تمناه؛ فروي أنه كان له غلام يسمى درهما يحطب له، فقال: ما يقول الناس يا درهم؟ قال: وما يقولون؟ الناس كلهم بخير، أنا وأنت بشر، قال: وكيف ذلك؟ قال: إني عهدتك قبل الخلافة عطر اللباس، فاره المركب، رطب الطعام، فلما وليت الخلافة رجوت أن أستريح وأتخلص، فزاد عملي شدة وصرت أنت في بلاء ومحنة، فقال له: أنت حر فاذهب عني ودعني ما أنا فيه حتى يجعل الله لي فرجا ومخرجاً. فهذا عمر بن عبد العزيز كان هذا الحال في خلافته من التقشف، وضعف المعيشة مع قوام الملك والجري على سبيل السوية، والنظر في أمور الرعية، وإجراء الخلافة على عوائدها الشرعية.

وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل من العباد المبررين في العبادة، الموصوفين بالزهادة، وكان إذا دعا ربه أجابه، وإذا عمل أعطاه وأثابه، وكان صياحاً في الجبال، قواماً في الليالي، وكان الله تبارك وتعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير تسكب عليه ماء متى شاء خيراً فيتوضأ ويشرب إلى أن غراه فتور في بعض الأوقات فأزال الله عنه سحابته، وحجبت إجابته، فكثر إذ ذاك حزنه ونحيبه، وطال كمده ووجيبه، وما زال يشاق إلى زمن الكرامة الممنون بها عليه فيبكي ويتأسف ويتحسر، فنام ليلة من الليالي فقليل له في نومه: إن شئت أن يرد الله عليك سحابتك فصل إلى الملك فلان الفلاني في بلد كذا وكذا وسله أن يدعو لك فإن الله عز وجل يردّها عليك ويسوقها إليك، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل البلدة التي ذكرت له في المنام فدخلها وسأل عن الملك فأرشد إلى قصره وإذا عند باب القصر

غلام قاعد على كرسي عظيم وعليه كسوة هائلة ، فوقف الرجل إليه وسلم عليه فرد عليه السلام وقال: ما حاجتك؟ قال: أنا رجل مظلوم، جئت لأرفع إلى الملك نازليتي، قال: إنه لا سبيل إليه، لأنه قد جعل لأهل المسائل يوما يدخلون فيه عليه وهو يوم كذا وكذا فسر راشدا حتى يأتي ذلك اليوم، قال: فأنكر الرجل عليه حجبه عن الناس وقال: كيف يكون هذا ولما من أولياء الله تعالى وهو على مثل هذا الحال؟ قال الرجل: فلما كان اليوم الذي ذكر له الباب وصل فوجد عند الباب أناسا ينتظرون الإذن لهم بالدخول، قال: فوقف إلى أن خرج وزير عليه ثياب عظيمة وبين يديه سدنته وعبيده فقال ليدخل أرباب المسائل، قال فدخلوا ودخل العابد في الجملة فإذا الملك قاعد وبين يديه أرباب مملكته على مقاديرهم ومراتبهم ، فوقف الوزير يقول واحدا بعد واحد حتى وصلت النوبة إلى العابد، فلما قدمه الوزير نظر إليه الملك وقال: مرحبا بصاحب السحابة، اقعد حتى أفرغ لك، قال فتحير الرجل من قوله واعترف بمزيتة وفضله فقضى الملك من الناس وفرغ منهم ثم قام فقام الوزراء وأرباب الدولة والمملكة وأخذ الملك بيد العابد وأدخله إلى قصره، فوجد عند باب قصره أسود عليه ثياب وفوق رأسه أسلحة وعن يمينه وشماله دروع وأتراس، فقام إلي مولاه وفتح باب القصر فدخل الملك وبيده صاحب السحابة فإذا بين يديه باب قصر خلو بال ففتحه ودخل دارا في أقصى قصره فأدخله إلى بيت نظيف ليس فيه إلا سجادة وقدر للوضوء، فجرد الملك ثيابه ولبس ثياب العبادة ثم قعد وأقعد العابد ونادى: يا فلانة ، فقالت: لبيك، فقال لها: أتدريين من ضيفنا هذا اليوم؟ فقالت نعم هو صاحب السحابة، فقال: أخرجي لا عليك منه فإذا امرأته كأنها الخيال وكأن في وجهها الهلال، عليها جبة صوف وقناع صوف، فقال الملك: يا أخي إنه كان لي في هذا الأمر أباء كرام يتداولون المملكة ويتوارثونها كابرا عن أكابر إلى أن ما ترى ووصل الأمر إلي

وبغض الله لي الدنيا فأردت أن أسيح في الأرض، وأترك الناس ينظرون لأنفسهم فحفت عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرائع وتشتيت شمل الدين فبايعوني مكرها فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت العبيد على الأبواب إرهابا لأهل الشر وردا عن أهل الخير وإقامة الحدود، فإذا فرغت من ذلك كله دخلت منزلي وأزلت هذه الأثواب ولبست ما لا أسأل عنه وهذه ابنة عمي وافقتني على الزهادة والعبادة ونحن على هذه الحال منذ أربعين سنة ثم قال بت الليلة عندنا فبت عندهما ثم قاما يصليان ويكيان إلى السحر ولما كان عند السحر قال اللهم إن هذا يطلب منك رد صحابته قال وأمنت الزوجة قال فإذا بسحابة قد نشأت في السماء فقلنا لي البشارة قال فودعتهما وانصرفت والسحابة تتبعني وأنا بعد ذلك لا أسأل الله بحرمتها شيئا إلا أجابني.

انظر يا بني هذا الملك كيف كانت حالته في خلافته وصلاحه وحزمه وكفايته جمع بعقله بين الدنيا والآخرة، فكان ظاهره حسنا وباطنه أحسن فهذا هو العقل التام فكذلك ينبغي لك يا بني أن تكون فافهم.

القسم الثاني: وهو الملك الذي له عقل يصلح به آخرته دون دنياه.

فهذا له عقل ناقص وليس له سياسة، يابني وعلامته أن يتشاغل بالعبادة ويجعل ما يتعلق من أمور خلافته كالزيادة ولا يترفه في ملابس ولا مطعم ولا بأمور رعيته ولا يتهم، ويشغل بأهل الصلاح ويفرط في الجيش والمال الذي بمما صلاح دنياه وأخراه، فصارت الولاية تأخذ ماله ولا شعور له بهم، وضاع جيشه بسببه لعدم نظره فيهم، فإن دهمه عدو فلعدم نظره في ماله وجنده لا يجد ما يصادر به عدوه عن رعيته وذلك مما يؤول إلى خراب ملكه وتعجيل هلكه لعدم اكتراثه بأمور رعيته واتباعه بما جنى على نفسه أعظم مما رجا في انقطاعه، وقد قال عمر رضي الله عنه ليس الرجل رجل الآخرة وإنما الرجل رجل الدنيا والآخرة.

وروي عن المأمون أنه انشده مروان بن حفص — الشاعر هذا البيت:

أضحى إمام الهدى المأمون مشغلا ... بالدين والناس في الدنيا مشاغل¹.

فلم يلتفت إليه ولا رفع رأسه ولا عرج عليه، فقال مروان لعمارة بن عقيل: أعلمت أن أمير المؤمنين لا يجيد النظر في الشعر؟ فقال عمارة: ومن ذا الذي يكون أجود منه نظرا في الشعر والله إنا لنشد البيت فيسبق إلى آخره من غير أن يكون سمعه، فقال مروان: لقد أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره رفع له رأسا يعني البيت المتقدم، فقال عمارة: ما زدت على أن جعلته عابدا في محراب في يده سبحة.

فإذا كان أمير المؤمنين مشغولا بالدين عن الدنيا فمن يقوم بأمر الدنيا وهو المقلد بأمورها؟ هل لا قلت كما قال عمك جبر لعبد العزيز بن الوليد: فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا غرض الدنيا عن الدين شاغله.

المأمون كيف غاب المدح له بالاعتصار على أمور الدين وترك ما قلد من أمر الدنيا فاجتهد يابني على أن تجمع بين الدنيا والآخرة.

القسم الثالث: الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون أخراه

يابني فهذا له سياسة وليس له عقل تام ويرجى ثبوت ملكه وانتظام سلوكه لحسن سياسته التي يقوم بها أمور رعيته وإن كان يظهر خلاف ما في طويته فأمره راجع إلى مولاه فيما أسره وأخفاه، فهو يجري الناس على عوائدهم المألوفة وأحوالهم المعروفة، وإن حدث على رعيته زيادة لم يشعروا بها حتى كأنها عادة وذلك من لطف سياسته وحسن تدبيره ورياسته، يعامل رعيته بما يجرب به نفوسهم ويوجب ألفتهم وتانيسهم، ويصلح أمورهم، ويحظ خاصتهم وجمهورهم، هذا وإن كان قد ضيع أمر رعيته وأصلح دنياه بحسن محاولته فيرجى له دوام دولته وبقاء

1 - الطبري محمد ابن جرير، تاريخ الطبري، منشور على شبكة الأنترنت موقع:

<http://www.yasoob.com>، ج 7، ص 220.

مملكته، ودليل هذا انتظام ملك فارس وغيرهم لسياستهم مع كفرهم، وكثير من ذلك موجود في جميع الوجود كأبي جعفر المنصور¹ فإنه أصلح دنياه واتباع في خلافته هواه، ولم يعتبر في أكثر أموره أخراه، ومن أحواله مع ابن أبي ذيب وملك بن أنس وابن سمعان ما يروي أن مالك بن أنس قال رقا الملاقون المشاءون بالنميمة عني إلى أبي جعفر بكلام كان قد حفظ علي فأتاني رسوله ونحن بمنى وذلك بعد مفارقتي له وخروجي من عنده فلما أعلمني الرسول بذلك لم أشك أنه القتل ففرغت من عهدي واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفني وتحنطت ثم هبطت فدخلت السرادق وهو قاعد على فراش قد نظم بالدر والياقوت الأحمر والزمرد الأخضر حكى له أنه من فروش هشام بن عبد الملك كان هذا قد أهداه إليه صاحب القسطنطينية لا يعرف ثمنه ولا يدري ما قيمته والشمع تحترق بين يديه وهو ينظر في صحيفة في يديه وابن أبي ذيب وابن سمعان قائمان بين يديه ، فلما أن صرت بين يديه سلمت فرفع رأسه فنظر إلي وتبسم وهو شبه مغضب، ثم رمى بالصحيفة وأشار إلى موضع عن يمينه أقعد عليه، فلما جلست وأخذت مقعدي وسكن روعي رفعت رأسي انظر تلقائي فإذا بواقف عليه درع ويده سيف قد شهره وهم أجمعون قد أصغوا إليه ورمقوه بأبصارهم خوفاً أن يأمر في أحد فيجده غافلاً ثم التفت إلينا فقال: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم معشر الفقهاء ما قد اشحن صدره وضاق به ذرعاً، وكنتم أحق الناس بالكف من ألسنتكم وأولى الناس بالطاعة والمناصحة في السر والعلانية. قال مالك قلت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)²، فقال أبو جعفر: على ذلكم فتكلموا أي الرجال إنا عندكم من أئمة العدل أم من أئمة الجور؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أنا متوسل

1 - أبو جعفر المنصور " هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويج له سنة سبع وثلاثين ومائة. انظر ابن العري، تاريخ مختصر الدول، منشور على موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 344.

2 - سورة الحجرات، الآية 6.

إليك بالله العظيم ومحمد عليه السلام وبقرابتك منه ألا أعفيتني من الكلام في هذا، فقال: قل والله أعفأك يا أمير المؤمنين، ثم التفت إلى ابن سمعان فقال له: أيها القاضي أي الرجال أنا عندك ناشدتك الله تبارك وتعالى؟ قال ابن سمعان: أنت والله يا أمير المؤمنين خير الرجال؛ بك يحج بيت الله الحرام، ويجاهد العدو، وتأمين السبل، ويأمن الضعيف بأن يأكله القوى، وبك قوام الدين فأنت خير الرجال وأعدل الأئمة، ثم التفت إلى ابن أبي ذيب فقال له: ناشدتك الله أي الرجال أنا عندك؟ قال: أنت والله عندي أشد الرجال لأنك استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلك الضعيف وأتعبت القوى في أموالهم، وسفكت الدماء في غير حقها، فما حجتك عند الله غدا بين يديه عز وجل؟ فقال أبو جعفر: ويحك أتغفل انظر ما أمامك قال نعم قد رأيت أسيفا وإنما هو الموت ولا بد منه فما لا بد منه عاجله خير من آجله، قال مالك: ثم خرجوا وحبست، فقال لي: إني لأجد رائحة الحنوط عليك، فقلت أجل لما قضي إليك عني ما مني ثم جاءني رسولك في الليل لم نشك أنه القتل فاغتسلت وتحنطت ولبست ثياب كفني، فقال أبو جعفر: سبحان الله ما كنت لأسلم الإسلام واسعى في نقضه وهدمه، أو ما تراني أسعى في إقامة أود الإسلام وأعز الإيمان عائذا بالله مما قلت يا أبا عبد الله انصرف راشدا مهذبا إلى مصرك، وإن أحببت ما عندنا فنحن لا نؤثر عليك أحدا ولا تعد لوائك مخلوقا، فقلت: إن يجبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعة وإن يجبرني اخترت العافية ولزوم هذا المحل الكريم، فقال: ما كنت لأجبرك ولا أكرهك انقلب معافي فكلوا، قال فانقلبت فبت ليلتي فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير في كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطة فقال له تقبض هذا المال وترفع إلى كل رجل منهم صرة، وارع ما أقول لك أما مالك ابن أنس فإن أخذها فسيبها لا جناح عليه فيما فعل وإن أخذها ابن أبي ذيب فأتني برأسه وإن تركها فهي عليه عافية، وإن يكن ابن سمعان يردّها فأتني برأسه وإن أخذها فسيبها، فنهض بها إلى القوم فأما ابن سمعان فأخذ وسلم وأما ابن أبي ذيب فرد فسلم وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها، ثم رحل أبو جعفر إلى العراق.

وكعبد الملك بن مروان وتجرمه وتوليته الحجاج بن يوسف على العراق ؛ فمن ذهابه أن العامة تنسب الظلم إلى الحجاج لا إليه وأما الخاصة فلا يردون اللوم إلا عليه، وما سفك الحجاج من الدماء فإنما هو في الحقيقة على يديه ، وحصار مكة وهدم الكعبة فإنما الحجاج سيئته من سيئات عبد الملك؛ فهؤلاء صلحوا دنياهم وغفلوا عن أخراهم؛ فينبغي لك أن تتحلى بحسن سياستهم وتتجنب ما أحدثوه من ظلم في رياستهم.

القسم الرابع: ملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته

فهذا يابني له عقل ناقص و لا سياسته له، وعلامته أن يجور على رعيته ويسئ إليهم ويحدث الحوادث عليهم، ويحسن لمن أساء ويسئ لمن أحسن، وينطق بخلاف ما أظهر ويظهر بخلاف ما نطق، هذا مع انهماكه في لذاته واستغراقه في شهواته واشتغاله في جميع أوقاته، وتقليد الأمور غير مستحقيها، وتوليها غير أهلها وهذه أفعال الشياطين لا أفعال السلاطين، وشيم الفتاك لا سيرة الأملاك، وهذا غلب على عقله هواه فأظهر من تصرفه من الفساد ما نكر من فعله وجنائه على نفسه وعلى رعيته، أضرت بأوليته وأخرويته، فهذا ولو رأى أنه عاقل فليس له في الحقيقة عقل ولا سياسة، أفسد دنياه وآخرته، ويروى أنه بلغ من دنياه بطايل.

وهذا كالوليد بن يزيد بن عبد الملك¹ بن مروان فإنه كان كثير المتار²، خالعا في الانهماك الغزار، سيئ السيرة، خبيث السريرة، جائر على أهله، مسيئا في

1 - الوليد بن يزيد كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم، منهمكا في اللهو والشرب وسماع الغناء، وكان شاعرا محسنا له أشعار حسنة في العتاب والغزل ووصف الخمر... فلم يلبث بعد هذا إلا يسيرا حتى قتل. وكان السبب في قتله أنه كان قبل الخلافة على ما وصفنا من اللهو والشرب وانتهاك حرمان الله، عز وجل، فلما أفضت إليه الخلافة لم يزد إلا انهماكا في اللذات، واستهتارا بالمعاصي، وضم إلى ذلك ما ارتكبه من إغصاب أكابر أهله والإساءة إليهم وتضييقهم، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته، وهجموا عليه وقتلوه. وكان المتولي لذلك يزيد ابن الوليد بن عبد الملك، وذلك في سنة ست وعشرين ومائة.

انظر ابن طباطبا محمد بن علي، الفحري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت، د ت، ص 134.

2 - المتار: من المتار وهو الباطل والسقط من الكلام، وهاترد: سانه بالباطل من القول نقله ابن الأباري عن أبي زيد قال ثعلب: وأما غيره فقال المهاترة: القول الذي ينقض بعضه بعضا، يقال من ذلك: دع المتار.

فعله، أحدث في قريش الأحداث العظيمة، وأخذ فيهم بالمثائر الذميمة، هتك حرمتهم وأحقر ذمهم، وسفك دمائهم، وخرب أنداءهم، وكان لا يرعوي لعدل عادل، ولا يثني عنانا لقول قائل إلى أن أقعده هتكه وساء به فتكه فانتشر سلوكه؛ فمن اشتهاره في المرام وانهماكه مع الندام أنه سمع عن ابن شراعة الكوفي وكان منهما كثيرا وفاتكا شهيرا فبعث من الكوفة وعندما وصل إليه وتمثل بين يديه قال له: يا ابن شراعة ما أرسلت إليك أن أسالك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه، فقال له المنهمك: والله لو سألتني عنهما لوجدتني حمارا، قال: وإنما أرسلت إليك لأسئلك عن القهوة فقال أنا دهقانها¹ الخبير ولقمانها الحكيم وطبيبها الماهر فأجابه بما يقبح ذكره ويطوى نشره، فلما كثر تخلفه وانهماكه وإطراحه لسياسة الخلافة وانتهاكه أجمعوا

على قتله وسفك دمه، وولوا الخلافة ابن عمه، فكانت خلافته عاما واحدا وشهرين وعشرين يوما.

وهذا أيضا كالأمين ابن هارون الرشيد² فإنه كان ضعيف الرأي ناقص العقل قليل السياسة غير محسن الرياسة قدمه أبوه هارون على أخيه المأمون لشرف أمه زبيده وبجلالة خاله عيسى بن جعفر وتعصب في هاشم وكان الرشيد أعرف بمن هو أولى منهما بالتقدم لكنه غلب عليه وفي ذلك يقول الرشيد:

لقد بان وجه الرأي غير أنني ... غلبت عن الرأي الذي كان احزما
وكيف يرد الدر في الصرع بعدما ... يوزع حتى صار نخباً مقسما

أخاف التواء الأمر بعد استوائه ... وأن ينقض الجبل الذي كان أبرما

ولم يتول الخلافة هاشمي بن هاشمية بعد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه غير الأمين؛ حكى أن أمه رأت في الليلة التي علقت به كان ثلاث نسوة دخلن عليها فدنّت إحداهن فوضعت يدها على بطنها، ثم قالت: ملك ضخيم عظيم البدن تقيل الحمل يكل الأمر، ثم قامت الثانية ففعلت فعل الأولى. وقالت الثالثة: ملك عظيم الإتلاف، كثير الخلاف، قليل الإنصاف. قالت أم جعفر فانتبهت وأنا فرعة فلما كانت في الليلة التي وضعت فيها محمد الأمين دخلن علي في الصورة التي وردن علي فيها فقعدن عند رأسي؛ فقالت إحداهن: شجرة نظرة، وريحانة عطرة، وروضة زهرة. وقالت الثانية: عين غدقة، قليل لبنها سريع فناؤها، عامل ذهابها؛ وقالت الثالثة: عدو لنفسه، ضعيف بطشه، سريع عشه، مزال عرشه؛ فاستيقظت من نومي وأنا فرعة، فأخبرت بذلك بعض قهارمتي فقال: هو بعض ما يطرق النائم فلما تم فصاله أخذت مرقدتي فدخلن علي في مهدي فوقفن على رأسي وأقبلن علي ولدي فقالت إحداهن: ملك جبار، متلاف مهذار، بعيد الآثار، سريع العمار؛ ثم قالت الثانية: ناطق مخصوم، ومحارب مهزوم، وراغب محروم؛ وقالت الثالثة: أحفروا قبره، وشقوا لحده، وأعدوا جهازه، وقربوا أكفانه، فإن موته خير من حياته.

وكان الأمين هذا ضعيف العقل؛ ذكر إبراهيم المهدي قال: استأذنت علي الأمين وقد اشتد عليه الحصار من كل جهة فأبوا أن يأذنوا لي في الدخول إلى أن كبرت ودخلت فإذا هو قد قطع دجله بالشباك وكان لها مخترق في وسط القصر وفي المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقيل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا في البركة، وهو كواله فقال لي وقد وثبت: السلام عليك، لا تؤذوني يا عمي قد ذهبت مفرطتي من البركة إلى أن دخلت، والمفرطة سمكة كانت صيدت له صغيرة فقرطها بحلقتي ذهب فيها حبنا جوهر، فخرجت وأنا عايس من فلاحه.

فلا ينبغي لك يا بني أن تكون مثل هؤلاء الذين افسدوا آخرتهم ودنياهم.

الفصل الثاني: القاعدة الثانية، وهي قاعدة السياسة

اعلم يابني أن أصل السياسة التدبير، ولا يكون التدبير إلا بفكر صائب سليم لأنه من تفكر تدبر ومن تدبر تحذر، كاد الحذر أن ينجي من القدر، ومن حسنت سياسته عظمت رياسته، والفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك، فلا تمجم على أمر إلا بعد فكرة ورؤية، ولا تنفذه إلا عن بصيرة؛ لأن من طال تفكره حسن تدبره، ومن ركب العجلة لم يأمن الكبوة والزلة إلا في انتهاب الفرصة وإزالة الغصة، ومن نظر في العواقب أمن من المصائب، ومن لم يستعمل فكرته فيما عليه وله ماتت فطنته وطالت حسرته وعميت بصيرته، فقدم النظر الصحيح قبل أفعالك، فهو أنجح لأحوالك، فإذا تقرر هذا فاعلم يابني أن الملك بالنسبة إلى السياسة على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن تكون سياسة الملك عن تدبير سديد ورأي مصيب رشيد

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن ترى برأي وزرائك وجلسائك وكتابك وفقهائك وقضاتك وأعوانك وعمالك وقوادك وأجنادك.

أولاً: الوزراء¹

فأما وزرائك يابني فيجب عليك أن تختار وزيرا كبيرا مهذبا خطيرا بالأمر بصيرا يجمع من محمود الخلال ثمانية من الخلال وهي: أن يكون من خيار قومه وعشيرته وكبير عشيرته وبيته، وأن يكون وافر العقل عاريا عن الجهل، حاضر الذهن، سريع الفهم، راجح الرأي، محمود السعي، محبا، ناصحا، ودودا، صالحا، شجاعا في المهمات وعند نزول الملهمات، حسن الصورة، فصيح اللسان، بديع العبارة، بليغ البيان، كثير المال غير ذي حاجة ولا إقلال؛ وأما كونه من خيار قومه وعشيرته فإنه يكون محافظا على بيته ومروءته مجانباً للنقائص والشبهات متزها عن

1 - العنوان من وضعنا.

المعائب في جميع الحالات، وأما كونه وافر العقل واضح الفضل؛ فلأنه يكون محافظا على شرك إذا أودعته شرك، مشيرا على ما يعود عليك بالمصلحة، دهرك، صادقا في خبره وخبره، غير مغتاب لأحد ولا ساع في ضرره، وفي العهد جميل الفصل لأن الوزراء أبواب الملوك منها يتوصل إلى الخير وبها يتقى من الضير، وأما كونه يابني حاضر الذهن سريع الفهم قليلا يدخله في تصرفاته وليفهم الأشياء بأدنى إشارة ويتفطن للأمور بغير عبارة، وأما كونه يابني محبا في سلطانك فلأن يكون ناصحا في خدمتك، مقبلا على شأنك فلا يغش لسلطانك لمحبه فيك، بل يتبع غرضك ويوفيك، ولا يدخل عليك إلا لجلب مسرة أو دفع مضرة، وأما كونه يابني راجح العقل والرأي فلأن يسعى في المصالح بجده وحزمه أحسن سعي، وإن أشكل عليك شيء من آرائك ردك بحسن مشاركته إلى ما يصلح رأيك، وربما كان في بعض الأحيان في رأيك تقصير فيصلح عليك هذا الوزير بحسن التدبير، وينبهك على الغلط في التقدير، وأما كونه شجاعا عند نزول المهمات فلأنه يجزي في الحركات ولا يلجئك في الحروب إلى الملاقات إلا في الأمور العظيمة والخطوب الجسيمة التي لا بد فيها من حضور السلطان، يجمع الأبطال والشجعان، وأما كونه كثير المال والثروة فليستغني بثروته عن الطمع والرشوة فيكثر به الانتفاع ويقل به الأطماع، وأما كونه حسن السيرة فصيح اللسان فلأنه جمال ملكك وترجمانه الواضح البيان.

فإذا كملت هذه الأوصاف في الوزير صلحت به أمور المملكة في القليل والكثير، وكان لك في الوزراء أقوى نصير وأنصح مشير، وانتظم به الملك انتظام السلك، ودل ذلك على عقلك حين استوزرته فيما رأيته من تقويمه للوزارة وتدبيره. ومع ما ذكرنا من الاختيار فلا تخليه من الاختبار، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان؛ فقد رأينا من الوزراء من تتبسط الدنيا لديه فتختل هذه الأوصاف عليه لطلبه لذاته واتباعه لشهواته وإخلاءه لراحته، فإذا كان الوزير لا يكثرث بالدنيا ولا يتبع فيها الهوى فذلك نعم الوزير والمباهي به والنظر.

قلنا ينبغي للوزير أن يكون أحسن فطنة وسياسة ورأيا من الملك لأن الملك يسوس من دونه من رعيته، وأما الوزير فإنه يسوس من فوقه وهو الملك ومن دونه وهم الرعية، فيحتاج إلى فضل سياسته وحسن فطنته وعقله، فأما لمن فوقه وهو الملك فيحتاج لما يقابله به وما يوافق غرضه ويصلح عليه أحواله وما يتقرب به إلى سلطانه، وأما سياسته لمن دونه فيحتاج بها إلى أن يسوسهم بأحسن السياسات مما يحفظ رتبته عند سلطانه، لأن الوزير لابد له من أعداء وحساد على منزلته، وطالبن على مرتبته، فيحتاج إلى التحرز منهم بحسن السياسة، فهو بين أمرين: خائف من فوقه وهو الملك، ومن دونه ممن يطمع في مرتبته ويرغب في منزلته، فأما خوفه ممن فوقه فإنه يخشى أن يقع في مشبهات تسقطه عند سلطانه، وأما خوفه ممن دونه فإنه يخاف أن يفتروا عليه بعض الافتراءات ويأتون عليها بالبهتان والأقاويل والكاذبات.

ومن أعجب الأشياء ملك صالح ووزير طالح أو ملك طالح ووزير صالح ومثل هذا كمثل الماء والنار كلما أنبتة الماء من العشب والكلاء أحرقتة النار بحرها؛ لأنه كلما عمل أحدهما خيرا أفسده الآخر بشره، والوزير الصالح وإن كان ملكه طالحا أنفع وأحسن من الوزير الطالح، إذا كان ملكه صالحا لأن الوزير يياشر الأشياء جليلها وحقيرها وعظيمها وخطيرها، ويصلح على سلطانه في سره وإعلانه لأن الملك لا يصله من الأمور إلا ما يوصله إليه وزيره وخاصته، وما يريدون أن يوصله إليه، فلذلك كان الوزير الصالح خيرا من الملك الصالح، ومثل هذا يسمى بالناصح.

وقد قالت الحكماء مثل السلطان كمثل الطبيب والرعية كالعليل والوزير كالسفير بين الطبيب والعليل فإن كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد قتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فإذا ساقه الطبيب على نحو ما وصف له السفير هلك، وكذلك الوزير إذا نقل للملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك، فمن هنا شرطنا أن يكون الوزير عاقلا نصوحا صدوقا إلى ما قدمناه من الأوصاف.

ومثل الملك الصالح والوزير السوء أودعته الذي يمنع خير الملك الناس ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي يكون فيه التمساح لا يستطيع المرء حوله وإن كان ساجدا وللماء محتاجا، ومن لم تكن فيه خمس خصال لم يرجح لشيء من أمور الدنيا والآخرة: من لم يكن الحسب في أصله، واللين في خلقه، والكرم في طبعه، والنيل في نفسه، والخوف من ربه.

فمن كان من الوزراء جامعا لهذه الأمور كان في سياسته ودهائه كوزير سابور؛ يحكى أنه لما عزم سابور بن هرمز على الدخول إلى بلاد الروم متنكرا متجسسا فهاه نصحاؤه وحذروه التغير بنفسه في أمر يمكنه أن يستنيب فيه فعصاهم، وكان يقال: أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك، وعشاق الفتيات من النساء. وكان يقال: إنما عسر صرف الأحداث عن غير الهوى إلى رشد الرأي لأمرين، أحدهما: قوة سلطان الشهوات عليهم، والثاني: إن التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم، وذو الحنكة بخلاف ذلك.

ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيرا كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخا ذا دهاء وحزم وسداد رأي وحنكة، وبصيرا بالديانات واللغات، وتبحر في العلوم وخبرة بالمكائد، فسلم إليه سابور جميع ما يظن أنه به إليه الحاجة وتدعو إليه داعية، وأمره أن ينحاز عنه في قرب ومراعات¹ لجميع أحواله في نهاره وليله، وتوجهها معا نحو الشام، فتزين ذلك الوزير بزي الرهبان وتكلم بلسان الجلالقة، وتحرف بصناعة الطيب الجراحي وكان معه الدهن الصيني الذي إذا دهنت به الجراح برأت واندملت في الحال، قال محمد بن زعفر عفا الله عنه²: قد رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا الدهن المذكور، وحدثني بعضهم أنه امتحنه بأن شرح اللحم ودهنه منه فالتع فابتلع مكانه فكان، ذلك الوزير في مسيرة نحو بلاد الروم وبعدما

1 - هكذا في الأصل.

2 - انظر ابن ظفر محمد ابن أبي محمد المكي الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الاتاع، مطبعة الدولة التونسية، 1279 هـ، ص 39 - 40.

دخلها يداوي الجراحات بأدوية يضيف إليها شيئا يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة، وإذا عسر بأحد من ذوي الأقدار دواه بذلك الدهن صرفا فبرأ مكانه، ولا ياخذ على مداوات أجرا، فانتشر له في بلاد الروم ود وصيت بالعلم والزهد، وكان يقال: من غرس العلم اجتني النباهة، ومن غرس الزهد اجتني العزة، ومن غرس الإحسان اجتني المحبة، ومن غرس الفكرة اجتني الحكمة، ومن غرس الوقار اجتني المهابة، ومن غرس المدارات¹ اجتني السلامة، ومن غرس الطمع اجتني الخزي، ومن غرس الحسن اجتني الكمل.

وكان يقال: الأمم على اختلاف أديانها وأزمانها وبلدانها متفقة (على)² حمد أخلاق أربعة: العلم والزهد والاحسان والأمانة، قيل فانطلق سابور ووزيره منفردين إلا أن الوزير يراعي أحوال سابور أشد المراعات³، فلم يزالا على ذلك حتى طرقا جميع الشام وتجاوزا الدرب وقصدا القسطنطينية فقدماهما، فذهب الوزير إلى البطرك، وتفسير هذا الاسم أبو الأباء، فاستأذن عليه فأذن له وساله عما يرده فاخبره أنه هاجر من أرض الجلالقة ليتشرف بخدمته، ويدخل في اتباعه، وأهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه وأكرمه وأحسن نزوله وألحقه ببطانته، واختبره فوجده لبيبا ممتعا، فأعجب غاية الإعجاب، وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ليصحبه بما يوافقه وينفق به عنده، ويحسن موقعه منه، وكان يقال: إذا أردت صحبة رايس فانظر ماذا يشتمله وينفق عنده من الأثاث، فإن كنت مطيقا للعمل بما في طلب إقباله عليك، وحضرتك عنده فاقدم عليه، وإلا فرض نفسك على ذلك حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته فتقدم على بصيرة. قيل: فلما تأمل وزير سابور أخلاق البطرك وجده مائلا إلى الفكاهة، معجبا بنوادر الأخبار، فأخذ الوزير في إتحافه من ذلك بكل نادرة غريبة ملحة عجيبة، فلم تطل المدة به في

1 - هكذا كتبت في الأصل.

2 - ما بين هالين من إضافتنا

3 - هكذا كتبت في الأصل.

صحبته حتى على بعينه، وصار ألصق به من شعرات قصه، وجعل مع ذلك يعالج الجرحاء ولا يأخذ على ذلك عوضاً، فعظم قدره في الناس ووسعته القلوب.

وكان يقال إذا كانت القلوب مجبولة على مقت الحسنين وكانت المحبة رقا والأحرار يكرهون الاسترقاق فالحر على الحقيقة من فدى نفسه من رق الحسنين لمكافأهم على إحسانهم جهرة حتى إذا لم يستطع فليرق نفسه بهم معذورا.

وجعل الوزير يتعهد أحوال سابور في كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة وحشد إليها الناس على طبقاتهم وتهدد من تخلف عنها فأراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قيصر وهمته في قصره وذخائره فنهاه وزيره عن التغير بنفسه، فعصاه وتزيا بزي وظن أنه يستر به أمره ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة، وكان قيصر لما بلغه به سابور من لطف الفطنة وعظم الهمة وشدة البأس في حال صباه حذره حذرا شديداً، فبعث إلى حضرته بمصور ماهر فحكى سابور في مجلسه وحال ركوبه وغير ذلك من ضروب الأحوال التي شاهدها المصور عليها، وقدم بتلك الصورة على قيصر، فأمر قيصر أن تصور تلك الصورة على فراشه وستوره وفي آلات أكله وشربه، فصنع ذلك على ما أمر به ورسمه.

ولما دخل سابور دار قيصر واستقر في مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس وأتوا بالشراب في كؤوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم، وكان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم ذو فراصة صادقة، فلما وقت عينه على سابور وأنكره وجعل يتأمل من شخصه ونظرته وإشارته فرأى عليه مخايل الرئاسة فطفق يستشفه ولا يصرف بصره عنه، فأتى ذلك المتفرس الرومي بكأس فيه صورة سابور فتأملها فانطبعت في نفسه مثالا لذلك الشخص الذي أنكره وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدح من يده إمساكا طويلا ثم قال رافعا صوته: إن هذه الصورة التي في هذا القدح تخبرني خبرا عجيبا! فقليل له: ما الذي تخبرك هذه الصورة؟ فقال: تخبرني هذه الصورة أن الذي هي مثالا له معنا في مجلسنا هذا، ونظر إلى سابور وقد تغير حين سمع مقالته، فحقق ما ظنه به وأعاد القول، فبلغ كلامه

قيصر فآدناه وسأله فأخبره أن سابور معه في مجلسه وأشار إليه، فأمر قيصر بالقبض عليه أي على سابور فقبض عليه، وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل، فقال ذلك المتفرس لا تقبلوا قوله فهو سابور لا محالة، وأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك فارعترف لهم بأنه سابور.

وكان يقال إن قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار،
وطال ما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات.

وقيل: كما أن الأبصار مرآي تنطبع فيها المشاهدات إذا سلمت من صدى الأفات فكذلك العقول مرآي لتطبع فيها الغايات إذا سلمت من صدى الشهوات.
وقيل: من الأدلة على مكاشفات الله القلوب على بعض الغيوب أن الانسان قد يتوقع الشيء على نحو ما توقع منه، فقد يرى الانسان الإنسان فيحبه لغير إحسان فرط منه إليه، أو يبغضه لغير إساءة جناها عليه، ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة. قيل: ولما اعترف سابور بصدق ذلك المتفرس حبسه قيصر مكرما وأمر فجعلت له من جلود البقر صورة بقرة كأعظم ما يكون من البقر، وطبقت عليه الجلود سبع طبقات، واتخذ لها بابا من أعلاها في ظهر الصورة يدخل إليها ويخرج منها، وجعلت فيها كوة من أسفلها في موضع المبال وأمر بسابور فجعلت يده إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة ليتمكن معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره، وأدخل سابور في جوف تلك الصورة، وهذا بعد أن حشد قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس، ووكل بتلك الصورة التي سجن بها سابور مائة رجل من ذوي البأس والقوة يحملونها دولا بينهم، وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يظبط أمرهم، وصرف أمر جميعهم إلى المطران، ومعنى هذا اللقب صاحب البلد إلا أنها رئاسة دينية وهو خليفة البطرق، فكانت تلك الصورة التي فيها سابور تحمل بين يديه فإذا نزل العسكر نزلت الصورة المذكورة في متوسط العسكر، وضربت عليها قبة سترتها وأطلق بها خمسين من الموكلين ورؤساؤهم معهم، وضربت حولها عشر

قباة مستديرة بها؁ وكان في كل قبة خمسة ورئيسهم معهم وضربت حولها للمطران قبة مجاورة قبة سابور وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقيد سابور على حسب أقدارهم ومراتبهم؁ وصار قيصر محتفلا في جنوده وقد عزم على اأراب بلاد الفرس وتعقبه معالم ذكرهم لعلمه أن لا دافع يدفعه عنه.

وكان يقال: الحزم التزام مراعات العدو ما دامت لدولته ربح إقبال؁ كما أن العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرت دولته وركدت ربح إقباله.

وكان يقال: العاقل لا يكون في سلطان ملك اجتمعت فيه خصلتان الانهماك في اللذات وإضاعة الفرص.

وكان يقال: تميز الملوك على السوقة إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات؁ وفضيلة ذات الملك بخمس خصال: رحمة تشمل رعيته؁ ويقظة تحوطهم؁ وصوله تدب عنهم؁ ولبابة يكيد بها الأعداء؁ وحزامة ينتهز بها الفرص.

وأما فضيلة الآلات فاتخاذ المباني الوثيقة العلية؁ والملابس الأنيقة الثرية؁ والدخائر النفيسة الكثيرة؁ والمطاعم اللذيذة الشهية؁ والمراكب الشريفة البهية؁ فهذه فضيلة تفضل بها الآلات على ما دونها من اجناسها؁ فيكون للقصر فضل على غيره من القصور؁ وللتوب فضل على غيره من الثياب؁ وللذخيرة فضل على غيرها من الذخائر؁ وللطعام فضل على غير من الأطعمة؁ وللذات فضل على غيرها من اللذات؛ فالفضيلة لهذه الأشياء لا للمالكها.

قيل: فلما سار قيصر بجنوده ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها قال وزير سابور للبترك: إن مما استفدت لخدمتك والقرب منك الرغبة في صالح الأعمال؁ وأنه لا عمل أنفـس من تنفـيس كربة عن مجهود وجر نفع إلى مضطر؁ وقد علمت

كفايتي في معانات¹ الجرحى، وأن نفسي لاتنازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا؛ فلعل الله أن يستنقذني نفسا صالحة يترحم علي من أجلها، ويغرس قلبي بخدمتها، ويحيطني لها فكرة البطريك ذلك، وقال له: لقد علمت أني لا أستطيع فراقك ساعة فكيف تطالبني بالسفر البعيد عني، ما ظننت أنك تلقاني بما أكرهه وتشويقي بما يشق علي احتماله، كما لم أظنك تؤثر شيئا من الأشياء على القرب مني، والتحجب إلي فقد أزلتني عن حسن ظني بك.

ولم يزل الوزير يتضرع إلى البطريك ويتملقه ويقارب له العود إلى أن سمح له بذلك، فأذن له وزوده وكتب معه كتابا إلى المطران يخبره فيه أنه قد بعث إليه بسويد قلبه وسواد بصره فليحلله من نفسه بأعلى المراتب ويستضيئ به فيما أشكل عليه؛ فقدم الوزير على المطران فعرف حقه وأنزله معه في قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده، وجعل الوزير يتملق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل إليه ويطر به كل ليلة بأخبار ممتعة، رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتأسا بذلك، ويدس في حديثه ما يجب أن يعلمه سابور من الأخبار ويعظمه له من الأسرار، فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة، وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكائد رتبها وأسسها عندما قدم على المطران.

وكان يقال: من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط وإن أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح، وإنما كانت فطن الوزير أثقب من فطن الملوك لأن الملوك يتفقهون أبدا في سياسة من دونهم من الرعايا فهم أشبه شيء بالجوارح التي تصيد ويفترس، وتصيدها أيضا جوارح أشد منها، فهي أعرف الجوارح بمكائد الاحتراز ومكائد الاكتساب. وكان يقال: أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يحور وقوعه، ويمكن كونه عدة فإذا وقع الأمر قابله لما يكون أعد له، وأسوء الوزراء حالا من توكل على لفظ فطنته وقوة حيلته ودرية ممارسته فترك

الأعداء للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه، وإنما هو في ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول وإعداده وترويته توكلًا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله، فيوشك أن يستولي عليه العبي والحصر في بعض مقاماته، وهو بمنزلة من ترك حمل السلاح توكلًا على قوة بدنه وشجاعة قلبه فيوشك أن يظفر به عدوه في بعض المواضع.

قيل: وكان من المكائد التي أعدها وزير سابور أنه امتنع عن مواكلة المطران وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذي زوده البطرك طعامًا غيره لما يرجوه من بركته وبركة الاعتداء به؛ فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو من ذلك الزاد فينفرد بالأكل منه، فلم يزل قيصر سائر الجنود حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتال والسي وتحويل المياه وقطع الشجر وإخراب القرى والحصن، وهو مع ذلك يواصل السير مبادرًا ليستولي على دار ملك سابور ويباعث من بما من رؤساء الفرس قبل أن يملكوا عليهم رجلاً، ولم يكن للفرس هم إلا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعقل، فلم يزل قيصر على ذلك حتى نزل مدينة سابور ومزاره ملكه، وهى المسماة بجري سابور فاحاط بما جنوده ونصب عليها المجانيق، ولم يكن عند من بما من عظماء الفرس حيلة في دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها، وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل بما يفهمه إياه وزيره ويرشد في حديث من الإشارات والرموز والكنائيات، وكان سابور لم يسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر في تلك الصورة فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جند سابور وقد ثلم الأسوار بالمجانيق وأشرف على افتتاح المدينة عيل صفره، وساء ظنه بوزيره، ويئس وخرج من النجاة مما هو فيه، فلما جاءه الموكل به بطعامه وشرابه قال له إن هذه الجماعة قد نالت مني منالا ضعفت عن احتمالها فإن كنت تريد بقاء نفسي فنفسوا عني منها واجعلوا بينها وبين عنقي ويدي حزما من الحرير، فجاء وزير سابور فعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصد سابور، فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له: لقد ذكرت الليلة حديثًا عجيبًا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة، ولوددت أني حدثته البطريك قبل سفري عنه، قال المطران: إني

أرغب أن تحدثني به الليلة أيها الحكيم الراهب، قال الوزير: نعم وكرامة، ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور، فقال له: إنه كان عندنا بجليقية فتى وفتاة في نهاية الحسن والطرف اسم الفتى مامعناه عين أهله، واسم الفتاة معناه سيدة النار، وكانا زوجين مؤتلفين متحابين لا يبتغي أحدهما بالآخر بدلان إن عين أهله، جلس يوما مع أصحابه يتحدثون فتذكروا النساء إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع والطرف الرابع، اسمها ما معناه سيدة الذهب، فوقع بقلب عين أهله ميل إليها فسأل الواصف لها عن مترها فذكر أنه بقرية غير قرية عين أهله في أمرها، ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها، وطمحت نفسه إليها طموحا شديدا. وكان يقال: العقل كالبعل والنفس كالزوجة والجسم كالبيت لهما فإذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطة اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرأة التي قهرها بعلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها وبعلها، فصلحت الجملة وإذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعي النفس فاسدا و نزاعتها مذمومة كفعل المرأة التي قهرت بعلها، قيل فانطلق عين أهله إلى القرية التي تسكن بها سيدة الذهب وطلب مترها حتى عرفه ولم يزل يتردد إليه حتى رءاها فرأى منظرا عظيما عجيبا ولم يكن أحسن من امرأته ولكنه كان ينال من ضرورة النفس أن تحن إلى الشغل في الأحوال إذا كانت ثقلت بالتركيب إلى عالم الكون والفساد، ثم ينتقل بالتفريق إلى عالم الفساد وما افتتح أمره واختتم بالنقلة فألقى الأحوال بتوسطه النقلة، ونازعت عين أهله نفسه إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب فلزم المعاودة إلى مترها والتمتع بتأملها حتى فطن له فعلها، وكان جافي الطبع قاسي القلب شديد البطش يسمى الذيب، فرصد عين أهله حتى مر به فلما رءاه وثب عليه فقتل فرسه ومزق ثيابه، وتعنقه وعنف عليه واستعان بأصحاب له فاحتملوا عين أهله وأدخلوه إلى دار الدنيا وربطوه إلى سارية في بيت من بيوتها، ووكل به الذيب عجوزا قطعاً اليد جدعا الأنف عوراء العين شوهاء الحالة، فلما جن الليل أوقدت تلك العجوز نارا بالقرب

من عين أهله وجعلت تصطلي فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز فزفر¹ زفرة عالية فأقبلت عليه العجوز وقالت له إيه الفتى ما ذنبك الذي أوردك موارد الذلة والشدة؟ فقال عين أهله: ما علمت أن لي ذنبا، فقالت العجوز: هكذا قالت الفرس للخترير، فلم يصدقها الخترير ثم باحثه عن أمره فظهر على ما خفى عنه وعلم صدق ظن الخترير، فقال عين أهله للعجوز: إن رأيت أن تحدثيني بذلك وكيف كان فإنك تحسنين إلي به فقالت العجوز: ذكر أن فرسا كان لرجل من الفرسان فكان يكرمه ويحبه ويحسن القيام عليه ويعده لمهامه ولا يصبر عنه ساعة، وكان يخرج به في الغزوات إلى مرج فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس، وأنه خرج يوما إلى المرج ونزل عنه فلما استقرت قدمه على الأرض نفر الفرس وحجج ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس.

ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل رام أن يرعى فمنعه اللجام ورام أن يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يستقر على أحد جنبيه فمنعه من ذلك الركابان فبات بشر ليله، ولما أصبح ذهب يتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نمر فدخله ليقطع إلى ضفته الأخرى فإذا هو بعيد القعر، فسبح فيه وكان حزامه ولبيه جلدا لم يبالغ في دبغه فلما خرج من النهر أصابت الشمس الحزام واللبب فييسا واشتد عليه، فورم لبابه وحزامه واشتد الضرر عليه إلى مابه من الجوع، فلبث كذلك أياما إلى أن ضعف عن المشي لذهاب قواه فأقام بموضعه ذلك، فمر به خترير فهم بقتله ثم عطف عليه لما رآه فيه من الضعف فسأله عن خبره وحاله فأخبره بما هو فيه من أضرار اللجام واللبب وحزام وسأله أن يصطنع عنده معروفا

1 - زفر: الزفر: الزفير، والفعل: يزفر، وهو أن يملأ صدره غما ثم يزفر به، والشهيق مد النفس، ثم يزفر، أي: يرمي به ويخرجه من صدره.

الخليل بن أحمد، م س، ج 2، ص 86.

ويخلصه بما ابتلى به، فسأله الخنزير عن الذنب الذي استحق به تلك العقوبة فزعم
الفرس أنه لا ذنب له، فقال له الخنزير كلا بل أنت كاذب في زعمك وجاهل
بجرمك، فإن كنت يا فرس كاذبا فلا ينبغي أن تنفس عنك خناقا ولا أطلب فيك
أجرا، وأنه كان يقال إذا رأيت نفس الكذاب قد تشتت بما عالم الفساد فكلها إليه
فإنه اللائق بما لفساد تركيبها، والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب أنها مضربة
معرضة عن الحقيقة في الحوادث وتنازعه إلى العدم المحض، فتصور العدم وجودا
والباطل حقا، وتصور ذلك في نفس المغتر بما، الراكن إلى قولها. وكان يقال أحذر
مقارنة ذوي الطباع المرذولة لثلا تسرق طباعك من طباعهم وأنت لا تشعر.
وكان يقال لا تطمع في استصلاح الرذل والحصول على مصافاته فإن طباعه أصدق
إليه منك، فلن يترك طباعه لك، ثم قال الخنزير وإن كنت يا فرس جاهلا بذنبك
وجرمك الذي استوجبت به هذه العقوبة بجهلك فذنبك أعظم منه، فمن جهل
ذنوبه أصر عليها ولم يرج فلاحه. وكان يقال احذر الجاهل فإنه يجني على نفسه
ولست أحب إليه منها. وكان يقال ماشيء أشبه بالكذب من الجهل، وذلك لأن
الكذاب يتناسى الصورة والقضية المحسوستين ويتخيل الكذب الذي هو ضدها حتى
ينطبع ذلك في عقله ويترك الصواب عمدا إلى غيره، والجاهل يرى الأشياء على
خلاف ما هي عليه فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، وإنما الفرق بين الجاهل
والكذاب يأتي ما يعلم خطاب فيه، والجاهل لا يعلم ذلك فهو على نفسه وعلى
غيره أشد جناية من الكذاب، فقال الفرس للخنزير ينبغي لك أن لا تزهد في
اصطناع المعروف، فقال الخنزير إني لست بزاهد ولكنه كان يقال العاقل يتخير
لمعروفه كما يتخير الباذر لحبوبه الذي يبذر ما زكى من الأرض، فحدثني يافرس
عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لأعلم من حيث ذهبت،
فحدثه الفرس بجميع أمره وكيف كان عقل فارسه، وكيف فارقه، وما لقي في
طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير، فقال له الخنزير قد ظهر إلا أنك جاهل بجرمك
وإن لك ذنوبا ستة، أولها: خذلانك فارسك الذي أحسن إليك وأعدك للمهمات،
والثاني: كفرك لإحسانه، والثالث: إضرارك به في طلبك، والرابع: لتعديك على

ماليس لك وهو السرج واللجام، والخامس: إسائتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست له أهلا ولا لك عليه مقدرة، والسادس: إصرارك على ذنبك وتماديك في غوايتك؛ فقد كنت متمكنا من العود إلى فارسك والاستقالة من فرط جهلك قبل أن يوهنك اللجام بالجوع واللبب والحزام بالضبط؛ فقال الفرس للختير أما إذا عرفت ذنوبي وأيقظتني لما كنت عنه ذاهلا محجوبا لجهل فاطلقني الآن ودعني فأني مستحق لأضعاف ما أنا فيه، فقال له الختير أما إذا اعترفت وفطنت لهذا القدر وطنت نفسك ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها واستعملت الحكمة التي وعيتها فإنك حقيق بأن ينفس عنك، وأنه قيل إن الأب لوقا كتب على باب بيته لن ينتفع بحكمته إلا من عرف نفسه ووقف بما عند قدرها فمن كان بهذه الصفة فليدخل والا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة، ثم إن الختير قطع غرار الحزام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس.

قال فلما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز وفهم ما ضربت له من الأمثال أقبل على العجوز قد صدقت فيما نطقت وضربت لي مثلا كشف لي عن جليلة أمري وأفدتني خصالا كفى بها وأدبتني فتأدبت ووعظتني واتعظت، ثم حدثها حديثه ورغب إليها في أن تمن عليه بالاصطناع وتطلقه كما فعل الختير للفرس، فقالت العجوز إنك غر لا بصيرة لك فأكثر الأمور، وأن الذي سالتني لا يمكنني فعله الآن ولعلي أن أجد لك فرجا ومخرجا مما أنت فيه، فعليك بالصبر.

وأمسكت العجوز عن مخاطبته، قال فلما أنهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال له: إني أحس في رأسي صداعا وفي أعضائي فتورا و لايمكنني الليلة إتمام الحديث، ولعل أن أكون في الليلة القابلة نشيطا إلى ذلك قديرا عليه فأكمل مسرتك باكماله، ونهض إلى مضجعه، فجعل سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل الأمثال التي وصفه بها ففهم أن الوزير عنا عنه بعين أهله لأنه ملك فارس وعنا عن مملكته وإقليم بابل بسيدة النار لأن رعيته يعبدون النار، وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب، وكنى عن قيصر بالذيب الذي ذكر أنه بعد سيدة

الذهب، وكفى عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة قيصر بطموح نفس عين أهله إلى سيدة الذهب، وكفى عن أخذ قيصر له بقبض الذيب على عين أهله، وقصد بما ضرب له من الأمثال الحكيمية تأديبه على سيرته وتغريه بنفسه ومخالفته نصحه، وكفى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذلك في خدمة المطران وطلبه مرضاته، وتلقه بالعجوز القطعا الجذعا العوراء المشوهة الخلقة، وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه في ذلك الوقت وأنه ساع في خلاصه، فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعادته ثقته بوزيره واستراح ريح الفرج، ولبت بذلك ليلته وعدّها إلى الليلة القابلة، فلما تعشى المطران وأخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور: أيها الراهب الحكيم اخبرني ما كان من أمر عين أهله وكيف كان عاقبة شدته وهل خلصته العجوز من وثاق الذيب فإن نفسي إلى علم ذلك متطلعة وأراك الليلة صالح الحال، قال الوزير سمعا لقولك وطاعة لأمرك ثم أقبل عليه يحدثه فقال إن عين الله أقام على حاله موثقا طول ليلته تلك، فلما أصبح دخل الذيب فتهده بالقتل وزاده إلى وثاقه قيذا ثقلا وخرج عنه، فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأمان فلما جنه الليل قلق واستوحش فبكى وانتحب، وجاءت العجوز فأضرمت نارا قريبا منه وجلست تصطلي ثم أقبلت على عين أهله فقالت له: تعز واصبر واذكر مصائب الناس فتأسى بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى في حفظ نفسك، فقال لها عين أهله: لقد صدق القائل هان على الطليق ما لقي الأسير، قالت العجوز أيها الفتى إن حداثة نفسك قصرت بك عن كثير من إدراك الحقائق فاستمع حديثا لك فيه سلوى، قال نعم فانعم علي به، فقالت العجوز ذكر أن تاجرا مكثرا كان له ابن ليس له ولد غيره وكان شديد المحبة له والتشغف به فألحقه بعض معارفه بغزال شرح صغير فعلق به قلب ولد التاجر، فكان لا يفارقه، وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال جليا نفيسا وأن تبطوا له شاه ترضعه حتى إذا اشتد الغزال وشدر نجم قرناه، فقال الغلام لأهله ما هذا في رأس الغزال قالوا قرناه، فأعجبه سوادهما وبريقهما، فقيل للغلام أنه ستكبران وتطولان حتى تكون صفتها كيت وكيت فقال الغلام لأبيه أحب أن أرى ظبيا له قرنان كبيران، فأمر أبوه فصيد له ظبي ثني قد استكمل قرناه ونموا

فأعجب الغلام وكرمه أهله وحلوه وأنسوه فأنسي وألف الغزال إلى الظبي لمجانسة الطبيعة، فقال الغزال للظبي ما ظننت قبل أن أراك إن لي في الأرض شكلا ثم لما رأيتك وقع في نفسي أن لي اشكال سواك، فقال له الظبي نعم إن اشكالك لكثيرة، فقال له الغزال أين هي؟ فأخبره الظبي بتوحشها وانفرادها في فلات الأرض فرارا من الناس، وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتناسلها فارتاح الغزال لما سمع من الظبي وتمنى أن يراها فيكون معها، فقال الظبي هذه منية لا خير لك فيها وأنت قد نشأت في رفاهية من العيش وامنه لا تعرف غيرها ولو حصلت في ما تمنيت لندمت، وكان يقال الأمانى في الشدة ارتياح وفي الرخاء جماع، فلا ينبغي أن يأذن العاقل لنفسه من الأمانى إلا في المقدار الذي يونس الوحشة وينفس الكربة فإن استيلاء الأمانى على النفوس كتأمر السفلى الذين يعبدون الرءوس إعجازا والإعجاز رءوسا ويسعون في قلوب الأعيان وتغيير صورة الصواب، فقال الغزال للظبي لا بد لي من اللحاق بأشكالي فلما رأى الظبي أن الغزال غير منته وخاف عليه أن يقطع به قبل بلوغ ما تمناه لأنه غر لا يعرف التحرز من مكائد الأنس لم يجد بدا من اتباعه والكون معه ليقضي حق حرمة ألفته إياه، فرصد حيناً يمكنه فيه الفرار وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو لا يشيه شيء فسقط في أحدود ضيق قد قطعه السيل فنشب فيه وانتظر أن ياتيه الظبي ليخلصه فلم يأت به فبقي هناك، وأما ولد التاجر فإنه لما أصبح عدم الغزال والظبي فجزع لفقدتهما واشفق أبوه عليه فاستدعى كل من يعاني الصيد بذلك البلد فعرفهم القصة وكلفهم الظبي والغزال ووعد من وجدهما وعدا مرغوبا فيه فانبتوا في سهل الأرض وخرقها يطلبون ذلك، وركب التاجر دابته وفرق اتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من يأتي من الصيادين، وانطلق هو وعبدان من عبيده حتى أتوا الصحراء فرارا على بعد رحلا مكبا على شيء بين يديه فأسرع نحوه فإذا هو صياد قد أوثق ظبيا وهو يريد ذبحه فتأمله التاجر فإذا هو ذلك الظبي الذي يطلبه فتخلصه من يد الصائد وأمر عبيده ففتشاه فوجدوا معه الحلي الذي كان على الظبي فسألوه كيف ظفر بالظبي وأين وجده فقال إنني بت في الصحراء نصيد ونصبت شركا وكمنت

قريبا منه فلما أصبحت جاء هذا الظبي ومعه غزال فمر الغزال يغدو ويمرح في جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الظبي حتى دخل في الشرك فأخذته وقصدت به المدينة، فلما بلغت هذا الموضع ظهر إني مخطيء في إدخال الظبي المدينة حيا لعلمي أنه إن ريء طلبت بما كان عليه من الزينة فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما فهذا خبري، فقال له التاجر لقد جنى عليك شحك الخبية والحرمان فماذا عليك لو أطلقتته فذهب الظبي وحصلت أنت على حلية وزينته، ولقد صدق القائل لا يدخل الشدة مدخلا إلا اعتقبتة الحسرة، ألا ترى أن من جملة البخل والشدة على أكل اللقمة التي عافتها نفسه كان متعرضا للحرمة فهو ما أكله والحسرة عليه عند مفارقتها، ثم إن التاجر بعث بالظبي إلى ولده مع أحد عبيده، وقال لذلك الصياد أرجع معي فإن في الجهة التي رأيت الغزال سعى نحوها فرجع إلى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويشرف على المواضع ومشى التاجر على رسله فسمع نيزيف الغزال، وهو صوته، فصاح به التاجر فصوت فاتبع التاجر حتى قام عليه وإذا هو في أحدود، أي شق من الأرض، متشبثا فيه فأخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ورجع التاجر بالغزال إلى ولده فكملت مسرة الغلام وجعل الغزال يتجنب الظبي إذا راه ولا يألفه كما كان، وإذا حصل معه في موضع نفر منه أشد النفار فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الغزال والظبي على حال ألفة وسكون فلم يقدر على ذلك، فبينما الغزال يوما قائما في بيت دخل عليه الظبي فعاتبه على نفاره منه وطول هجره له فقال الغزال: نسيت عدوك لي أحوج ماكنت إلى عونك وأوثق ما كنت بنصرتك؟ فقال له الظبي إني لم أغدر ولم أجن ولكن عدم رسوخك في علم التجربة أوقعك في قمة البريء، وإني لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه إلا مضطرا إلى التأخير عنك عاجزا عن المبادرة إليك، وقص عليه قصته وإنه حصل في شرك الصياد فعلم الغزال عذره وعاد إلى تأليفهما.

قال فلما سمع عين أهله حديث العجوز فهم ما أرادت من ذكر عجزها عن تخليصه أمسك عن خطابها قليل فلما أنتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحد

سكت فقال له المطران أيها الحكيم الراهب ما هذا السكوت لعلك تريد أن تجز
أجباري بما كان من عاقبة عين أهله وما لقي من الذيب وما صنعته العجوز فقال
إني لعازم على ذلك لفتور أجده في أعضائي فقال المطران لا تفعل فإن ذلك يسوئي
ويشقي علي فاحمل على نفسك الليلة أيها الحكيم فإني راغب في تأنيبك، معجب
بأحاديثك، فقال الوزير أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ولو علمت أيها المطران ما
ادخرت لك من عجائب الأخبار وغرائب الأسرار لعجبت من ذلك أشد العجب
ثم اندفع يحدّثه أن عين أهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما أرادته أمسك عنها
وبات ليلته تلك بأسوء حال، ولما أصبح دخل عليه الذيب فنال منه وتعنفه وتحدّده
بالقتل وزاده قيذا إلى قيده، وعرفه أن لا ناصر عليه ولا مخلص له من يده وخرج
عنه، فجعل يعلل نفسه ببقية نهاره ويمنيها الفرج، فلما أقبل عليه الليل استوحش
واستوحشته الأفكار المومضة وانتظر أن تجلس إليه العجوز أو تحدّثه فلم تفعل
وجعلت العجوز تكثر الدخول والخروج إلى البيت الذي فيه عين أهله ولا تستقر
فيه فساء ظن عين أهله وأيقن بالهلكة، وما شك أن الذيب يقتله تلك الليلة، فأقبل
على البكاء حتى ذهب صدر من الليل ثم قال للعجوز مالك لم تؤنسي الليلة
بحديثك ولا جلست إلي فجلست إليه وقالت أما كان في رؤيته قطعاً جذعاً مشوّهة
عوراء سيئة الحال، ما يحملك على التأسّي فتأخذ في الشكر لله على سلامة نفسك
ومعافاتك من بلاء هو أعظم من بلائك حتى قلت هان علي الطلاق ما لاق
الأسير، ولو اعتبرت باطن حالي لما ظهر لك منها لعلمت أن أسري أشد من
أسرك، فاستمع إلي أحدثك حديثي: اعلم أيها الفتى إني كنت زوجاً لبعض
الفرسان وكان إلي محسناً وبني رفيقاً ولي محباً فكنت معه في ارغد عيش وأهناه،
فلث بذلك مدة طويلة وولدت له الأولاد ذكورا وإناثاً فكبروا في رفاهة ونعمة
فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه فقتله وقتل ذكور أولادي وباعني أنا
وبنائي مفترقات فاشتراني هذا الفارس الذي عدى عليك واحتملني إلى هذه القرية
وأساء إلي وكلفني من العمل ما لا طاقة لي به، وكثر معاقبتي على غير ذنب لما طبع
عليه من القسوة والفظاظة، فسألته مراراً أن يرفق بي واستعنت عليه بإخوانه ومن

يكرم عليه لكي يخفف عني فلم يزد السؤل والشفاعة إلا قسوة علي واضراراً بي،
فلبث بذلك سبع سنين ثم فررت منه فاتبعني فدركني فجذع أنفي ثم عاد قسوة
علي واضراراً بي وعادت مسأله والاستشفاع إليه، وهو مقيم على سوء رأيه بي،
فمكثت بذلك سبع سنين أخرى ثم فررت منه فظفر بي فقفاً عيني ثم عاود عسفي،
فكملت سبع سنين أخرى ثم فررت منه فظفر بي فقطع يدي وقال إنما بقي من
أعضائك التي انتفع بها عينك ويدك فإن فررت بعد هذا قطعت رجلك معا
وابقيتك انتفع بعينك في الحراسة وبيدك في العمل، واقسم على ذلك بغليظ الأيمان
وعاود عسفي ومضرتي، وقد عزمت على أن اخلصك الليلة واقتل نفسي بيدي
طلباً للراحة مما أنا فيه، ولقد رأيتني أكثر الدخول عليك والخروج عنك لحيرتي
وجزعي من الموت وقد طابت نفسي على الموت ثم أنها فتحت قيود عين أهله
وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً فقال لها عين أهله لم اتركك تقتلين نفسك لقد
شاركتك في دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومي اذهبي معي لكي ننجو
معا أو نعطب معا، فقالت له إن كبر سني وضعفت حالتي ليمعني من اتباعك
وأهرب معك، فقال لها: إن الليل متسع والموضع الذي نأمن إذا وصلنا إليه قريب
ولي قوة على حملك، فقالت العجوز أما إذا عزمت على هذا فإنني لا احوجك ما
دمت به مسكة، وخرجنا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا إلى حيث أمنا فجزاها عين
أهله خيراً بما صنعت واتخذها ما يسمع لها ويطيع؛ فهذا ما بلغني من ذلك. فقال
المطران ما اعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت أن لا أفارقك وأن سفري
هذا يطول لتطول متعتي بك ويعظم حظي من أنسك ولقد استعذبت مفارقة الأهل
والوطن لقربك ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه، وبات سابور يتصفح حديث
وزيريه ويتأمل أمثاله ففهم أن الغزال مثل سابور، وأن الظبي مثل الوزير، وأن
خروج الظبي مع الغزال إلى الصحراء وحصول الغزال في الأخدود مثله بصحبة
سابور حتى صار سابور في حبس قيصر، وأن نفور الغزال من الظبي لسوء ظن
سابور بوزيريه لتأخره عن استنقاذه، وعرف أن الوزير قد عزم على تخليصه

والخروج إلى المدينة قريب منها وأنه يحمله إن عجز على المشي فأيقن سابور بقرب
الفرج.

ولما كانت الليلة القابلة تلتطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ فيها
الطعام للمطران وللموكلين بحفظ سابور على حال خلوة واحتراس فألقي في تلك
الأطعمة مرقدًا قوي الفعل، ولما حضر طعام المطران انفراد الوزير بأكل زاده على
ماجرت به عادته، فلم تكن إلا ساعة حتى استحوذ المرقد على جميعهم، وبادر
الوزير ففتح باب المقصورة على سابور واستخرجه وازال الجامعة من يده وعنقه
وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به جند سابور، وهي مدينة ملكه
منهما معا إلى سورها فصرح فهما الموكلون بحراسة السور، فتقدم الوزير إليهم
وأمرهم بخفض اصواتهم وعرفهم بنفسه وأعلمهم بسلامة ملكهم، فابتدروا
وأدخلوها المدينة، فقويت نفوس أهلها، وأمرهم سابور بالاجتماع، وفرق فيهم
السلاح وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم، فإذا ضربت الروم نواقيسهم الضرب الأول
خرجوا من المدينة إلى مقربة من عسكر الروم وقاموا على تعبئة وتأهب حتى إذا
ضربت الروم النواقيس الضرب الثاني حملوا بأجمعهم كل فرقة على من يليها،
فامثلوا أمره، وانتخب سابور كتيبة عظيمة وقام معهم في ما يلي الجهة التي تلي
قيصر، فلما ضربت النواقيس المرة الثانية حملوا من كل جهة وقصد سابور اخبية
قيصر، ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم، وأنهم قد بنوا
ابواب مدينتهم، فما شعروا حتى دهمتهم الفرس، وأخذ سابور قيصر أسيرا، وغنم
جميع عسكره، واحتوى على خزائنه ولم ينج من جنوده إلا الشديد.

وعاد سابور إلى قرار ملكه وقسم الغنائم بين أهل عسكره وأفاض الصلاة
على جميع من في مدينته بقدر أحوالهم وأحضى إلى حفظة ملكه وشرفهم وفوض
جميع أموره إلى وزيره الذي تخلصه ثم احضر قيصر فأكرمه ولاطفه وقال إني مبق
عليك كما أبقيت وغير مجاز لك بتضييق محبسي ولكني وأخذك بإصلاح ما

افسدت من جميع ممالك، فتبني ما هدمت، وتغرس مكان كل نخلة قطعته من
بلادي زيتونة، وتطلق من في مملكتك من اساري.

فضمن له قيصر ذلك كله و وفى له به، ولما انتهى في الإصلاح إلى بناء ما أثلم
من سور مدينة جندي سابور قال سابور لقيصر إنما تبنيه من تراب بلدك فأمر قيصر
رعيته من الروم يحملون التراب من بلادهم إلى جندي سابور فرفع ما أثلم من
سورها.

ولما أتم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إليه وأطلقه إلى دار مملكته بعد أن
قال له خذ أهبتك واستعد عدتك فإني غازيا أرضك عما قريب.

فتأمل يابني حسن محاولة هذا الوزير وارتكابه في استخلاص سلطانه كل أمر
خطير، واجتهد على أن تتخذ من يقارنه في الدهاء والتدبير وكوزير جديمة الأبرش
وهو قيصر بن سعد والزبا بنت مليح وكيفية ذلك: ما رواه هشام بن محمد الكلبي
عن أبيه قال: كان جديمة بن ملك ملكا على الحيرة وما حولها من السواد ملك
ستين سنة وكان به وضح في بدنه، أي برص، وكان شديد السلطان قد خافه
القريب والبعيد فتهابه العرب أن تقول الأبرص فقالت الأبرش، فغزا مليح بن البراق
كان ملكا على الحصن وهو الحاجز بين الروم والفرس وهو الذي ذكر عدي بن
زيد في قوله وأخذ الحصن إذ بناه واد دجلة يحني¹ إليه والخابور²، فقتله جديمة
وطرد الزبا إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة
السلطان كبيرة الهمة؛ قال ابن الكلبي: ولم يكن في نساء عصرنا أجمل منها، وكان
اسمها فارعة وكان لها شعر إذا مشت سحبت من ورائها وإذا نشرته جللها، فسميت

1 - يحني وحنى عليه ويحنو: يشفق.

انظر صاحب بن عباد. م س، ج 1، 2535.

2 - الخابور هو مجلس الفساق.

ابن منظور، م س، مادة حبر.

الزبا، وبعث عيسى (بن مريم عليهما السلام)¹ بعد قتل أبيها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى دار أبيها ومملكته وأزالت جذيمة الأبرش عنها، وبنت على مرافئ الفرات مدينتين اثنتين مقابلتين من شرقي الفرات، فكانت إذا أرهاقها الأعداء أوت إليهما وتحصنت بهما، وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء بتول وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة فحدث جذيمة نفسه بخطبتها فجمع خاصته فشاورهم في ذلك، وكان له ابن عم يقال له قيصر بن سعد وكان عاقلا لبيا وكان صاحب أمره وعميد دولته فسكت القوم وتكلم قيصر فقال: أبيت اللعن أيها الملك إن الزبا امرأة قد حرمت الرجال وهي عذراء بتول لا ترغب في الرجال، ولا غرض لها في مال ولا جمال، ولها عندك ثأر، والدم لا ينام، وإنما تاركتك رغبة ورهبة، والحق داء في سويداء القلب له كمون ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وللملك في بنات الملوك الأكفاء متسع ولهن فيه مقنع، وقد رفع الله قدرك عن الطمع فهو دونك وعظم شأنك فما أحد فوقك، فقال له: يا قيصر الرأي ما رأيته والحزم فيما قلته ولكن النفس تواقة، وإلى ما تحب وتهوى مشتاقة، ولكل أمرئ قدره لا مفر منه ولا حذر؛ فوجه إليها خاطبا وقال له: إئت الزبا واذكر لها ما يرغبها في ونصبو إليه، فجاءها خاطبه فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له أنعم بك عينا وبما جئت به وإليه، وأظهرت السرور والرغبة فيه، وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كنت اضرب عن هذا الأمر خوفا أن لا أجد كفؤا والملك فوق قدري وأنا دون قدره وقد أحببت إلى ما سأل ورغبت فيما قال، ولولا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرت إليه ونزلت عليه، وأهديت إليه هدية سنية ساقت العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم وجملة من الثياب والعين والورق فلما رجع إليه خطبتها أعجبه ما سمع من الجواب وأبجمه ما رأى من اللطف، ورأى أن

1 - الجملة التي بين هلالين نقلتها من النسخة المطبوعة طباعة المحررة عام 1862 م، وقد سقت الإشارة إلى هذه النسخة.

ذلك لحصول رغبة فأعجلته نفسه وسار من فوره بمن يثق به من خاصته وأهل مملكته، وفيهم قصير خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخيه عمرو بن عدي اللخمي، وهو أول ملوك الحيرة من اللحم وكان ملكه عشرون ومائة وسنة، والذي خطفته الجن وهو صبي صغير ورد وهو قد شب وكبر، فقالت أمه التفوه للطوق، فقال خاله جزيمة شب عمرو عن الطوق، فذهبت مثلاً، فاستخلفه وصار إلى الزبا فلما كان في بعض الطريق نزل فتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي في أصحابه فسكت القوم، وافتتح الكلام قصير فقال: أيها الملك كل عزم لا يؤيد بحزم فإلى أين ما يكون، ولا تثق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعقد الرأي بالهوى فيفسد والحزم بالمنى فينفذ، والرأي عندي للملك أن يتعقب أمره بالثبوت، ويأخذ حذره بالتيقظ، ولولا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزمًا لا يفعل.

وأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم من الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصرفوا رأيه، وقوا عزمه، فقال جذيمة: الرأي مع الجماعة والصواب ما رأيتم، فقال قصير القدر سابق الحذر ولا يطاع لقصير أمر، فأرسلها مثلاً، وسار جذيمة فلما قرب من دار الزبا نزل فأرسل إليها يعلمها بمجيئه فرحبت وقربت وأظهرت السرور والرغبة فيه، وأمرت أن يحمل إليه الانزال والعلوفات، وقالت لجندها وخاصة أهل مملكته وعامة أهل دولتها ورعيته: تلقوا سيدكم وملك دولتكم، وعاد الرسل بالجواب لما رأوا سمعوا¹، فلما عزم جذيمة أن يسير دعا قصير فقال: أنت على رأيك؟ قال نعم، قد زاد رغبتي فيه، فقال قصير ليس للأمور بصاحب من لم ينظر في العواقب، وقد يدرك الأمر قبل فوته وفي يد الملك هو بما مسلط في استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو ملك وسلطان وعشيرة ومكان والقيتها في يد من لست آمن مكره وغدره، فإن كنت ولا بد فاعلا ولهواك تابعا فاعلم بأن القوم إن يلقوك غرا فرقا وساروا أمامك، وجاء قوم

1 - في الأصل كتبت وسمع، وكتبتها سمعوا، لتناسب السياق.

وذهب قوم فالأمر بعد في يدك والرأي فيه إليك وإن يلقوك زردقا¹ واحدا فأقاموا إليك صفين حتى إذا توسطتم انقضوا عليك من كل جانب واحد قرابك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم، وهذه العصا لا يشق غبارها، وكانت لجذيمه فرس تسبق الطير وتجاري الرياح يقال لها العصا فإذا كان كذلك فتحلل أظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها، فسمع جذيمه كلامه ولم يرد جوابا وسار.

وكانت الزبا لما رجع رسول جذيمه من عندها قالت لجندها: إذا أقبل جذيمه غدا فتلقوه باجمعكم وقوموا صفين من عن يمينه وعن شماله فإذا توسط جمعكم فانقضوا عليه من كل جانب حتى تحدقوا به، وإياكم أن يفوتكم.

وسار جذيمه و قصير عن يمينه فلما لقيه القوم زردقا واحدا فأقاموا له، فلما توسط القوم وانقضوا عليه القضاء الأجلال على فريسة، واحدقوا به وعلم أنهم ملكوه، وكان قصير يسايره، فأقبل عليه وقال: صدقت يا قصير، فقال قصير: أيها الملك أبطأت بالجواب حتى فات الصواب فأرسلها مثلا، قال: كيف الرأي الآن؟ فقال: هذه العصا فدونها لعلك تنجو، فانفك جذيمه من ذلك وسارت له الجيوش، فلما رأى قصير أن جذيمه قد استسلم الأمر وأيقن بالقتل جمع نفسه وسار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها، فذهبت تهوي به هوى الريح، فنظر إليه جذيمه وهي تتناول، وأشرفت الزبا من قصرها وقالت: ما أحسنك تجلى علي وتزف إلي حتى دخلوا به على الزبا، ولم يكن معها في قصرها إلا جوار أبكار أتراب، وكانت جالسة على سريرها وحواليها ألف وصيفة كل وصيفة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي، وقالت لوصائفها خذوا بيد سيدكن وبعل مولاته مولاتكن فأخذن بيده وأجلسنه على الانطاع بحيث تراه ويراه وتسمع كلامه ويسمع كلامها ثم أمرت الجواري فقطعن رواهش² ووضعت الطست وقطرت

1 - الزردق: الصف القيام من الناس.

ابن منظور، م س، مادة زردق.

2 - الرواهش: العصب التي في ظاهر الذراع ، واحدتها راهشة وراهش بغير هاء.

قطرة على القطع فقالت لجواريتها: لا تضيعوا دم الملك، فقال خديمة: لا يحزنك دم
أضاعه أهله، فلما مات قالت: والله ما أوفى ولا أشقى قتلك وإنما هو غيظ من
فيض، ثم أمرت به فدفن.

وكان قد استخلف على مملكته ابن أخيه عمر بن عدي، وكان يخرج كل يوم
إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الأثر من خلفه، فخرج ذات يوم فنظر إلى
فارس تموي به فرسه هوي الريح فقال: أما الفرس ففرس جديمة وأما الراكب
فكالبهيمة، لأمر ما جاءت العصا، فأشرف عليهم قصير، فقالوا: ما وراءك؟ فقال:
سعى القدر بالملك إلى حتفه على الرغم من أنفي وأنفه، فاطلب تأرك من الزبا؛
فقال عمر وأي ثأر يطلب من الزبا وهي أمتع من عقاب الجوا! فقال قد علمت
نصحي لخالك وكان الأجل قائده وإني والله لا أنام عن الطلب بدمه ما لاح نجم
وطلعت شمس، أو أدرك به ثأرا أو تحترم نفسي فأغدر، ثم أنه عمد إلى أنفه فجذعه
ثم لحق بالزبا هاربا من عمرو بن عدي، فقبل لها هذا قصير بن عم خديمة وخازنه
وصاحب رأيه قد جاءك، فأذنت له فقالت ما الذي جاء بك إلينا يا قصير وبيننا
وبينك دم عظيم يقطر؟ فقال: يا بنت الملوك العظام لقد أبيت فيه ما يأتي مثلك في
مثله، ولقد كان دم الملك يطلب حتى أطلب، ولقد جئت مستجيرا من عمر بن
عدي فإنه اتهمني بحاله وبالمشورة بالمسير إليك فجذع أنفي وأخذ مالي و حال بيني
وبين عيالي وتهددني بالقتل، وإني خشيت على نفسي فهربت منه إليك وأنا مستجير
بك ومستند إلى كنفك وعزك، فقالت: أهلا وسهلا بك لك أمن الجوار وذمة
المستجير. وأمرت به فأنزل وأجرت عليه الأنزال ووصلته وكسته وأكرمته وزادت
في إكرامه فأقامت مدة لا يكلمها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها، وموضع
الفرصة منها.

وكانت متمنعة بقصر مشيد على بابه نفق تعتصم به فلا يقدر عليه أحد؛ فقال لها إن لي بالعراق مالا كثيرا وذخائر نفيسة مما تصلح للملوك فإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيني شيئا أتعلل به في التجارة وأجعله سببا في الوصول إلى مالي أتيتك بما قدرت عليه من ذلك، فأذنت له وأعطته مالا، فقدم العراق ببلاد كسرى فأطرفها وألطفها من كل طريفة وزادها مالا إلى مالها كثيرا، وقدم عليها به فأعجبها ذلك منه وسرها، وترتبت له عندها مترلة، وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك طرفا من الجواهر والبر والخز¹ والقز² والديباج، وزاد مكانة منها وازدادت مترلته عندها ورغبتها فيه، ولم يزل يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه، ثم خرج ثلاثة فقدم بأكثر من الأولين طرائف ولطائف فبلغ مكانه منها موضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهماتها، واستأمنت إليه وعولت عليه في أمور، وكان حسن القد والرأي، لبيا أديبا؛ فقالت له يوما: إني أريد غزو البلاد الفلاني من أرض الشام فاخرج إلى العراق وايتني بكذا وكذا من السلاح والكراع والعبيد والثياب، فقال: ولي في بلاد عمر بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح فيها كذا وكذا وما يعلم بما عمر ولو علم بما لأخذها واستعان بما على حربك، وكنت أتربص به المنون وأنا أخرج متنكرا من حيث لا يعلم فأتك بما مع الذي سألت، فأعطته من المال ما أراد وقالت يا قصير: الملك يحسن بمثلك وعلى يد مثلك يصلح أمره، ولقد بلغني أمر جذيمة وأن إيراده وإصداره كان إليك وما نقص بك عن شيء تناله يدي، ولا انعقد بك عن حال ينهض بي، فسمع كلامها رجل من خاصتها فقال: أسد حادر³ وليث ثائر قد تخير للوثبة.

١ - الخز: جمعه خزوز وهو الحرير.

ابن سيده، المخصص، موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، مادة الخز والقز.

٢ - القز: الحرير على الحال التي يكون عليها عندما تنسجه دوده الحرير. القاموس الفقهي. موقع موقع: <http://www.yasoob.com>، ج ١، ص 302.

٣ - حادر: غليظ. ابن منظور، م س، مادة حدر.

ولما رأى مكانه منها وتمكنه من قلبها قال الآن طاب المصراع، وخرج من عندها فأتى عمر بن عدي فقال له: قد أصبت الفرصة من الزبا فأنهض وعجل الوثبة، فقال له عمر وقل أسمع ومر أفعل فأنت طيب هذه الفرصة، فقال: الرجال والأموال، فقال: حكمك فيما عندي مسلط؛ فعمد إلى ألف رجل من فتاك قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود وألبسهم السيوف والحجب وأنزلهم في الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسفلها مربوطة من داخل؛ وكان عمر فيهم، فساق الخيل والكراع والعبيد والسلاح والإبل جملة فجاءها البشير وقال: قد جاء قصير.

ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلحين بالسيوف والحجب وقال: إذا توسطت الإبل المدينة فالأمانة بيني وبينكم كذا وكذا، فاخترطوا المربط، فلما قربت العير من مدينة الزبا كانت الزبا في قصرها فرأت الإبل تتهاذى بأحمالها فارتابت بها، وقد كان وشي بيقصير إليها، وحذرت منهم فقالت للواشي به إليها: إن قصيرا اليوم منا وهو رجي¹ هذه النعمة وصنيعها (وقد تغذى بلبن)² هذه الدولة، (وهو اليوم شمسها)³، وإنما يبعثكم على ذلك الحسد وأن ليس فيكم مثله فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها فقال: _____:

أرى الجمال مشيها رويدا اجندلا يحملن أم حديدا

أم صرفانا باردا شديدا أم الرجال جثما قعوذا

ثم أقبلت على جواربها وقالت: إن الموت إلا جر في الغرائر السود، فذهب مثلا، حتى إذا توسطت الإبل _____ من المدينة وتكاملت القى إليهم الأمانة

1 - كذا في الأصل ولعلها رجا؛ فهي التي تتفق مع السياق.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

3 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

(التي كان قد عرفهم)¹ فاخترطوا رعوس الغرائر فسقط إلى الأرض ألفا دارع بألفي
باتر، وتبادروا بثأر القتل غدرا، وخرجت الزبا للموضع تريد النفاق فسبقها
إليه فحال بينها وبينه، فلما رأت أن قد أحيط بها وهلك التقت خاتما في يدها
تحت فصها سم ساعة وقالت بيدي لا بيد عمرو، وقيل إنه لحقها وجللها
بالسيف وحط قبر جذيمة وضرب عليها فسطاطا وكتب على قبره:

ملك تمنع بالعساكر والفتى والمشرقية عزه ما يوصف

فسعت مبيتة إلى اعدائه وهو المتوج والحسام المرهب

فهذا يا بني كان وزيرا محبا في سلطانه ناصحا له في جميع شأنه راغبا لحقه
وذمه أخذا لثأره ودمه، وكان الوزير المقطوع اليدين يروى أنه كان من الملوك
المتقدمين، وكان له وزير ناصح وخدم صالح رضي بأهلاك نفسه في حياة سلطانه،
وأبقى على جيشه وبلاده وأوطانه، وكيفية ذلك: أن الملك له عدو ينافسه ويعاديه
ويطالبه ويشانه وكان أكثر منه مالا وجيشا وسطوة وبطشا فتحرك العدو عليه
يريد إهلاكه إذا توصل إليه، فلما اتصل الخبر بالملك الأضعف أن الملك الأقوى
تحرك عليه وأن الأضعف لا يقدر عليه إذا وصل إليه تحدث مع وزيره في شأن
عدوه ومخافته من سلطانه وعتوه، فقال الوزير لمكله الأضعف: أيها الملك أشر
عليك برأي فيه سلامتك وسلامة جيشك وبلادك وهلاك نفسي في طاعتك، قال:
وما رأي اتلاف نفسك بشديد؟ قال: نعم في صلاحك رشيد، قال اخبرني، قال:
أيها الملك أنا وزيرك المشهور القائم بأمرك في الغيبة والحضور يعرفني هذا المدرك
بالنصاحة لك والأخذ فيما يبلغك أملك وأنا أشير عليك وأن تقطع رواهشي
وتجليني على البلاد وتخرج أهلي وولدي وتركهم في بعض بلادك وتجري عليهم
في خفية جزيل نعمتك وأن فادك حتى أقضي لك مئاربك وأصد عنك طالبك؟

فقال له الملك: لا يهون علي هذا ولا أفعله بك ولا اسعفك في هذا بمطلبك، فأقسم عليه الملك أن لا يفعل.

ثم إن الوزير أقسم وقال إن لم تفعل بي هذا لأفعله بنفسي ففعل به الملك ما أراد من قطع يديه ونفيه من بلاده وإخراج أهله وحاشيته وأولاده، فما لبث الوزير أن لحق بالملك القاصد لسلطانه وهو قادم على أول أوطانه، فقصده قبل دخوله بالبلاد وهو في جمهور أعدائه والأحشاد، فلما قدم عليه الوزير في أسوأ حالة (وملاقة)¹ أحواله، وقطع رواهشه وأوصاله، تأسف له تأسفا شديدا وزاده ما أصابه حنقا وتنكيذا وقال: لم فعل بك سلطانك هذه الفعلة ومثل بك هذه المثلة؟ فقال: أيها الملك إنه اتهمني بخدمتك وإني كنت السبب إليه في حركتك وعزيمك، فقال له الملك: إذا ظفرت به لأردن عليك مالك وأحسن جميع أحوالك وأردك أكرم وزرائي علي وأقرجم مني وإلي، ولكن أيها الوزير كيف الحيلة إلى أخذ ملكك الذي عذبك ومكر بك وأنصبك ومثل بك هذه المثلة وغدر؟ قال له: أيها الملك أنا أعرف أخباره وعلى ما هو معتمد وإن أخفى عني أسرارته، قال: أخبرني، قال: أيها الملك عزم على أنه إذا أخذت بلاده وشتت أجناده وقواده يفر إلى حصنه الحصين الذي أعده ويتحصن به لما فيه من العدد والعدة، والذي أشير به إليك وأتقرب به في الخدمة إليك أن تأخذ حصنه الحصين ومقر أمنه الأمين، فإذا احتويت على ما في حصنه من الذخائر والأموال وحلت بينه وبين حماية الأبطال رجعت إلى أخذ بلاده واستوليت على عدته وإعداداته؛ فقال له الملك: وكيف ذلك؟ قال: تسير بجملته جيشك وإعدادك، وذلك بأن تعمل عشرين يوما لكافة أجنادك، وأنت تقطع المفاوز المعطشات والمهامه الموحشات، وأنا معك حتى تأخذ ما في حصنه، وتحول بينه وبين أمنه.

1 - ما بين هلالين من السخنة الحجرية.

قال: وكان الوزير الأقطع عارفا بمسالك الصحراء والجوب في الأقطار والبراري، وكان قد رغب الملك في الأموال والذخائر والأثاث والعدد المشاهر، إلى أن أسعفه ذو المسير من الحصن الذي ذكر له، وتأتى له فيما عوله وأمله.

وأمر الملك جيشه بعمل الأزواد والتهيب لذلك والاقتصاد، فاتخذ أهل العسكر زاد عشرين يوما من الماء والطعام، ودخلوا الصحراء والوزير يقدمهم من أمام إلى أن أوغلهم في البراري المعطشات والمهامه الموحشات التي لا يرجى للمنقطع بها حياة، إلى نفدت الأزواد وهلك الأجناد أقبل الملك على الوزير المذكور يسئله عن الحصن المذكور وما يصل به جيشه المغدور؛ فقال له الوزير: والله لا أعلم له حصنا إلا بلده الذي هو فيه، وأنا غدرتك في موضع لا يمكن إلى رجوعك تلافيه.

قال: فقتله الملك لحينه ومات هو وجيشه بعطشه وتموينه، فكان في هلاكه حياة سلطانه وفي قطع رواحشه بقاء أوطانه وعزة أهله وإخوانه.

وهكذا ينبغي للوزير الناصح لسلطانه أن يكون مثل هذا الوزير لجميع شأنه.

يابني وإذا لم تجد وزيرا جامعا لهذه الأوصاف التي قدمناها، وللخصال الحموده التي ذكرناها، فاختر من تكون فيه خصلتان جامعتان لتلك الخصال الثمان: الأولى أن يكون محبا فيما يصلح عليك في دنياك وأخراك، والثانية أن يكون ذا رأي سديد في شدتك ورخائك.

ثانيا: الجلساء¹

فأما جلساؤك يابني: إنه يجب لك أن تختار لنفسك جلساء رؤساء من قومك ذوي عقول وإمرة وأذهان حاضرة، فصحاء اللسان نصحاء في السر والإعلان، يجانبون مخالطة الناس ويعظمونك إذا أظهرت لهم البسط والإيناس، فإذا اتصفوا بهذه الصفات وتميزوا بهذه الأشياء تباغت بهم الخلافة وزادتهم رفعة وإنابة.

1 - العنوان من وضعنا.

وينبغي لك لن تختبر أحوالهم وتمتحن أقوالهم و أفعالهم فإن مات وزير من وزرائك اخترت وزيرا منهم لسبق معرفتك لما انطوت صدورهم عليه، وما تقدم منهم وما صدر من النصيحة عنهم، فتجعله مكانه وتشد به أزر الملك وأركانها، فمن وجدته منهم بعد الاختبار مديعا للأسرار، غير واف بالعهد ولا مبرم للعقد، وصدرت منه نغمة أو غيبة أو ظهرت عليه زلة أو ريبة أبعدته عن منزلة الرفعة والإيناس، وجعلته كسائر الناس؛ وقد قال بعض الملوك لجلسائه جنبوني ثلاثا: لا تمدحوني فإني أعرف نفسي منكم، ولا تكذبوني فإنه لا أرى رأيا لمكذوب، ولا تغتابوا عندي أحدا فتفسدوا قلبي عليكم.

وقال ابن عباس: مجالسة العقلاء تزيد في الشرف والعقل.

يابني وينبغي لجلسائك أن يحفظوا أسرارك ولا يذيعون أخبارك فإنهم خاصتك الأصفياء، وبطانتك الخلصاء، ومن فسدت بطانته كان كمن غص بالماء.

يابني جالس الفضلاء وشاور العقلاء وخذ الرأي من النصحاء واقتد بذوي التجارب النبلاء، وجانب مجالسة الجهلاء فإنه من أخذ الرأي مع من لا يفقه الحديث كمن قدم الطرف للبهائم.

ثالثا: الكتاب¹

يابني وأما كتابك فلتتخير منهم لسرك كاتباً من وجوه بلدك، موفياً لغرضك ومقصداً، فصيح اللسان، مريد الجنان، بليغ البيان، عارفاً بالآداب، سالكا طريق الصواب، بارع الخطب، حسن الضبط، عالماً بالحل والربط، كاتماً للأسرار، متحلياً بتحلي الوقار، ذا عقل وافر، وفهم حاضر، وذهن ثاقب، وفكر صائب، حلو

الشمائل، موسوما بالفضائل، جميل الهبة واللباس والمؤالات¹ للناس، لأن الكتاب عنوان المملكة لتبين الأمور المشتبكة.

ومن كتابك يستدل على عقلك، ويعترف معرفتك وفضلك.

فهذا أقل ما يشترط في الكاتب ويكون في حقه وحقك من الواجب، فإنه إذا كان الكاتب بهذه المثابة صلح أن يكون أهلا للكتابة، وإن خل بهذه الشروط كان جديرا بالتأخير والسقوط لإخلاله بكتابه، وعدم إصابته، وكان ذلك وصما في حق مخدومه، ودليلا على جهله في تقديمه.

رابعا: صاحب الأشغال²

يا بني وأما صاحب أشغالك وضابط أعمالك فلتتخير من وجوه بلدك الأنخيار وكفات الحساب والنظار، ويكون ذا ثقة وأمانة وعفة وصيانة، وصلاح وديانة، وحزم وكفاية، وضبط ودراية، عدلا في أحواله، صادقا في أقواله، عارفا بأنواع الخراج والجبايات، ضابطا للزمام والحسابات، ويكون ذا مال ويسار وأتات³ وعقار؛ فإذا كان على ما وصفناه من أحواله كان محافظا على بيته وديانته وماله، ويكون محبا في سلطانك، ءاخذا بالنصح في جميع شأنك؛ لأن مالك ومجالسك تحت نظره، وعلى يده التصريف فيها في ورده وصدوره.

خامسا: الفقهاء⁴

يابني وأما فقهاؤك فلتختار لنفسك فقيها عالما نبيها موسوما بالصلاح، سالكا طريق الرشاد والفلاح، يرشد إلى الهدى ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمور، ويأمر

1 - هكذا في الأصل

2 - العنوان من وضعنا

3 - أتات: لم أجدها في المعاجم العربية، وبجئت عنها في موطن أبي حمو، تلمسان، فذكر لي زميلي الدكتور محمد رايس، وهو من مرابطين تلمسان وأستاذ في جامعته، أن هذه الكلمة تستعمل في تلمسان في الوقت الراهن وتعني الأثاث.

4 - العنوان من وضعنا

بالسداد، ليبين لك ما أشكل عليك من الأحكام، وما تأتيه من الحلال وتدعه من الحرام، وما تقف عنده من الحدود الشرعية التي هي قوام الملك والرعية، وما يصلح لك من الأمور الدنيوية والأخروية، ويتخولك بالموعظة، ويذكرك أحوال الآخرة، ولينبهك من سنة الغفلة.

سادسا: القضاة¹

يابني وأما قضاتك فيجب عليك أن تتخير قاضيا من فقهاءك؛ أفضلهم في متانة الدين، وأرغبهم في مصالح المسلمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمح لظلامة ظالم، ولا يغتر بالرشاء، ولا يعلق دلوه منه برشا، يساوي بين الشريف والمشروف، والقوي والضعيف، عالما بتنفيذ الأحكام، مفرقا بين الحلال والحرام، قاضيا بالعدل، آخذا بالفضل، موجزا منجزا في الفضل.

سابعا: الأعوان²

يابني وأما أعوانك فلتتخير لنفسك عوناً تجعله مقدما على أعوانك، ومتصرفا في أمور سلطانك، يصرف شرطه بين يديك فيما لا يمكن توصلك إليه، ويتولون الانتقام ممن سخطت عليه، وينبغي أن يكون ذا دربة وشدة وكفاية ونجدة، مبادرا لامثال الأوامر، متيقظا لما تريد منه في الباطن والظاهر، عارفا بتصرفاتك وأخلاقك في حالتي توقفك وإرهاقك؛ فرما غضبت على من لا تريد أن يدركه عقابك؛ بل يزجره تخويفك وإرهابك، فليثبت في أمره ولا يعجل عليه من فوره إلى أن تسكن من غضبك، ويكون ذلك من حسن تصرفه في قضاء إربك، ويجب عليه أن يكون مرتقبا لبابك، شديد المحبة في جنابك.

1 - العنوان من وضعنا

2 - العنوان من وضعنا

ثامنا: قادة الجيش¹

يابني وأما قوادك فلتتخير قوادا من أنجاد جندك، زعماء صادقين في محبتك، وافرين بعهدك، ذوي حزم وكفاية ومعرفة ودراية، لا يصلون إلى الرعية بمضرة ولا بإذاية؛ بل يسددون الثغور ويصدون العدو المحذور، ويحيطون البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد وساع في الفساد، فتكون بهم مطمئن الخاطر، أمناء في الباطن والظاهر لسدهم الثغور المخوفات، وكفهم الأكف العاديات، واجزائهم عنك في المعضلات بحيث إذا بعث العدو جيشا لفساد البلاد قابله بقائد من هؤلاء القواد؛ مثل ما فعل الأمين حين بعث علي بن عيسى بن ماهان قائدا على مئتي ألفا، فقابله المأمون بطاهر ابن الحسن قائد عنته في ثلاثة عشر ألفا، وقد كان كتب إليه كتابا يقول فيه: إني وجهت إليك بحيرات من سمسم لا يحصى جندي إلا من يحصي ما فيه.

قال: فكتب إليه المأمون عندي حمام يلتقط ذلك السمسم في يوم واحد. فلما دنى على بن عيسى بن ماهان من طاهر بن الحسن قال ولد علي بن عيسى لوالده يا أبت تحرز من طاهر فإنه رجل خبيث، قال: إنما تتحرز الرجال من أقرانها وسترى طاهر إذا وقعت عينه علي كيف يأتيني مستأمنا! فلما تجمعا في أرض واحدة خرج طاهر في جملة خيل ووقف بموضع يشرف فيه على عسكر علي بن عيسى بن ماهان فرأى ما ملأ الأرض من الجيوش وهاله كثرة ذلك فالتفت إلى هرمة وقال: هذا جمع لا قبل لنا به، فقال هرمة: الرأي ما ترى، فقال طاهر: أما أنا فوالله لا رجعت إلى صاحبي مهزوما أبدا حتى أموت ولكني اجعلها جاهلية وأضرب في عسكرهم ومن تابعني من أصحابي حتى أموت أو يفتح الله لي، قال هرمة: وإنما افعل مثل فعلك، فرجعا إلى عسكرهما وانتخبا منه نحو الستمائة ثم اقتحما بهم عسكر علي بن عيسى، وجعل يشوبهم الناس حتى وصل مضرب علي ابن عيسى

بن ماهان، فخرج إليه عبد أسود لعلي بن عيسى كان من أنجد الرجال فدافع عن علي فجمع طاهر يديه على قائم سيفه وضرب به الأسود، فسمي بذي اليمينين، ثم اقتحم علي فقتله، فلما قتله وانفصل جمع علي مهزوما اتبعه هو وأصحابه نحو من ستة أيام يقتلونهم في كل موضع.

ومشا طاهر بن الحسين وهرمة حتى نزلا على الأمين ببغداد فحاصراه، فلما ضيقا عليه الحصار كتب إليه الأمين: إلى طاهر الحمد لله الذي يرفع من يشاء بقدرته ويضع من يشاء بحكمته، الذي يمنح ويعطي ويقبض ويبسط، أحمدته على نوائب الزمان وخذلان الأعوان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله خير آل عدنان؛ أما بعد فقد رأيت من الصلاح الخروج إلى أخي من هذا السلطان، فإني أرى الملك خطأ له دوني، وهو المحكم في أمري فأعطني الأمان على نفسي وأمي وولدي وحاشيتي حتى أخرج إليك على حكم أخي راضيا بجوره وعدله وانتقامه من عفوه؛ فقال طاهر: هيهات هل لا كان هذا قبل ضيق الخناق وتفرق الفساق، فلما يئس الأمين من طاهر كتب إليه: يا طاهر إنه ما قام لنا قائم قط في حق قيامه لنا أو لأحدنا إلا كان السيف جزاؤه منا فانظر لنفسك أو دع وقد علمت ما فعل أبو سلمة الخلال من أول هذا الأمر، وكان وما كان من أبي العباس له، وما كان من أبي مسلم صاحب الدعوة وعلى أي شيء انقضى أمره ع أبي جعفر والسفاح.

قال طاهر وقد كان قوم يضعفون عندي الأمين أما والله لقد قذف في قلبي نارا من الخوف لا يطفئها أمن أبدا؛ وكان يقرأ كتاب الأمين على أهل خراسان ويقول: ليس بمضعوف ولكنه مخذول.

ولما يئس الأمين من طاهر خاطب هرمة يطلب منه الأمان فهبط فقتله طاهر بن الحسين وبعث برأسه للمأمون.

ويقال أن إرسال طاهر بن الحسين لقتال علي بن ماهان إنما كان عن رأي دوبان الحكيم الهندي؛ وكان دوبان هذا من رجال تلمسان قد وجهه ملكه هدية

إلى المأمون، وكتب إليه إني وجهت إليك بهدية ليس في الأرض اسنى منها ولا أرفع ولا أفخر ولا أنفع، فعجب المأمون من ذلك وقال لوزيره الفضل بن سهل: سل الشيخ ما عنده، فسأله فقال: ما ثم عندي أكثر من علم، قال: وأي شيء علمك؟ قال: رأي ينفع، وتدبير يقطع، ودلالة تجمع.

فلما اجمع المأمون أن يوجه إلى علي بن ماهان إلى العراق قال له الشيخ: رأي وثيق، وأمر رفيق، وحزم مصيب، وملك قريب، وأسير ماض، فاقض ما أنت قاض؛ فقال: من نوجه من القواد؟ فقال الشيخ: الفتى الأشهر الطاهر الأطهر يسير ولا يعسر، قوي مرهوب، مقاتل غير مغلوب؛ قال: فكم نوجه معه من الخيل؟ قال أربعة آلاف من الأسياف لا تنقص من العدد ولا تحتاج إلى مدد؛ فوجه طاهر بن الحسين فقال: في إي وقت يخرج؟ قال: مع طلوع الفجر يجتمع له الأمن ويسير إلى النصر، نصر سريع، وقتل دريع، النصر له لا عليه، ثم يرجع الأمر إليك لا إليه؛ فظهر طاهر بن الحسين على ابن ماهان واستولى على عسكره؛ فأمر المأمون لدوبان بمائة ألف فلم يقبلها وقال: أيها الملك إن ملكي لم يوجهني لا نقص مالك و سأقبل ما بقي لهذا المال أو يزيد، قال: وما هو؟ قال: كتاب يوجد بالعراق له مكارم الأخلاق وعلوم الآفاق من كتب عظيم الفرس، فيه شفاء للنفس من صنوف الآداب مما ليس في كتاب، عند عاقل لبيب ولا فطن أديب، يوجد في خزائن تحت أبواب المدائن فيقاس بالذرعان في وسط الإيوان لا زيادة ولا نقصان، فاحفر المرر، وأقلع الحجر، فإذا وصلت إلى الساحة فاقطعها تجد الحاجة، ولا تلزم غيرها فيلزمك غب¹ ضرها. فأرسل المأمون إلى إيوان كسرى فحفر في وسطه فوجد صندوقا صغيرا من زجاج أسود عليه قفل منه فحمل إلى المأمون، فقال لدوبان ألماذا بغيتك، قال نعم أيها الملك، قال خذه وانصرف، فتكلم ونفخ في القفل فانفتح فأخرج منه خرقة ديباج فنشرها فسقط منها أوراق فعدّها مائة ورقة ولم يكن في الصندوق

1 - غب: غبت الأمور أي: صارت إلى أواخرها. الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 342.

شيئا غيرها فأخذ الأوراق وانصرف إلى منزله؛ قال الفضل بن سهل: فبحثته وسألته، فقال: هذا كتاب جاوبدان خرد تأليف كنجور وزير الملك منوشهر، فطلبت منه شيئا فدفعت إلي ورقات وترجمها إلي الخضر بن علي، ثم أخبرت المأمون، فقال: احمل إلي الورقات فحملتها إليه فقرأها فقال: هذا والله الكلام لا ما نحن فيه من لين ألسنتنا وقعود إشدائقنا، ولولا أن العهد جبل طرفه بيد الله وطرفه بأيدينا لأخذتما منه؛ وقد قيل: إن الحكم التي كانت في الأوراق قوله: نصحي النصحاء ووعظني الوعاظ شفقة ونصحة فلم يعظني شيء مثل شيبي، ولا نصحي شيء مثل فكري، واستضاءت بنور الشمس وضوء النهار فلم استضيء بشيء أضوء من نور قلبي، وكنت عند الأحرار والعبيد ولم يملكني أحد ولا قهرني مثل هواني، وعاداني الأعداء فلم أر عدوا أعد إلي من نفسي، إذا جهلت واحترست لنفسي بنفسي من الخلق كلهم حذرا عليها وشفقة فوجدتما أشر الأنفس لنفسها، ورأيت أنما لا يأتيها الفساد إلا من قبلها، ورحمتني المضايق فلم يرحمني مثل الخلق السوء، ووقعت في أبعد البعد وأطول الطول فلم أقع في شيء أضر علي من لساني ومشيت على الجمر، ووطئت الرمضى فلم أر نارا أحر من غضبي، وطلبني الطلاب فلم يدركني مثل إسائي، ونظرت ما الدماء القاتل ومن أين نالني فوجدته من معصية ربي سبحانه، والتمست الراحة لنفسي فلم أجدها شيئا أروح من ترك ما لا يعنيه، وركبت البحار باشرت الأحوال فلم أر هوى مثل الوقوف على سلطان جائر، وتوحشت في البرية فلم أر شيئا أوحش من قرين السوء، وعالجت السباع والضباع والذئاب وعاشرتني فغلبنني صاحب الخلق السوء، وأكلت الطيب وشربت المسكر وعانقت الحسان فلم أر شيئا ألد من العافية والأمن، وتوسطت الشياطين والجبال والسباع فلم أجزع إلا من الإنسان السوء، وأكلت الصبر وشربت المر فلم أر شيئا أضر من الفقر، وشهدت الزحوف ولقيت الحتوف وباشرت السيوف وصارعت الأقران فلم أر قريبا أغلب من المرأة السوء، وعالجت الحديد ونقلت الصخر فلم أر حملا أثقل من الدين، ونظرت فيما يذل العزيز ويكسر القوى ويضع الشريف فلم أر أرذل من ذي حاجة وفاقة، ورشقت بالنشاب ورجمت بالحجارة

فلم أر أنفر من كلام السوء يخرج من فم مطالب بحق، وحبست في السجن
وشددت بالوثاق وضربت بعمد الحديد فلم يهدمني مثل ما هدمني الهم والغم
والحزن، واصطنعت الإخوان و انتجبت الأقدام للعدة والشدة والنائبة فلم أر شيئا
أحمد من التكرم عندهم، وطلبت الغنا فلم أر أغنى من القنوع، وتصدقت بالذخائر
فلم أر صدقة أنفع من ذي ضلالة إلى هدى، ورأيت في الوحدة والغربة الذلة فلم أر
أذل مقاسات من جار السوء، وشيدت البنيان لأعرفه واذكر فلم أر شيئا أرفع من
اصطناع المعروف، ولبست الكسا الفاخرة فلم البس مثل الصلاح، وطلبت أحسن
الأشياء عند الناس فلم أجد شيئا أحسن من حسن الخلق، وسررت بعطايا الملوك
وحماهم فلم أر شيئا أكثر من الخلاص منهم.

وفي رواية أخرى إن دوبان هذا وقف للمأمون مشتكيا ظلامه نائبة، وقد كان
المأمون ركب إلى متّره له لينظر وزراءه في تدبير أمره ومحاولته على أخيه الأمين
فعارضه دوبان المذكور في طريقه مستغيثا، فلما نظر المأمون إلى هرمه رق له وأمر
أن يحمل على دابة ويتبع به إلى الموضع الذي قصده، وأدخل عليه بغير استئذان.
ولما استقر المأمون ووزراؤه بذلك الموضع الذي قصده أدخل عليه الشيخ الفارسي
فأمره بالجلوس في حاشية المجلس ثم أقبل على أصحابه فأخبرهم بما صنع أخوه
الأمين من القبض على حاشيته وماله وتجهيزه علي ابن عيسى وهو يظن أن الشيخ
لا يحسن اللسان العربي، وأن ما به من الهرم شاغل له عن الإصغاء إلى ما هم فيه مع
ما حمله من الاضطراب، فلما رأى القوم أن المأمون لم يتحفظ من الشيخ تفاوضوا
فيما جلسوا إليه وطالت مناظرهم، إلى أن قال أحدهم: الرأي اصطناع قوم من
الاعتماد الذين لا يعرفون علي بن عيسى فيلقى بهم. وقال غيره: الرأي عندي أن
يأدر بالإرسال إلى الأمين بطلب الصفح وبذل الانقياد لأمره فإنه يرى ذلك خطئا.

وقال غيره: الرأي أن تجمع الأهل وتلجأ إلى بعض المعامل فتعتصم به وتنظر
الفرج. وقال غيره: الرأي أن تجمع أهل النجدة فتربح عليهم ثم تقتصد بهم بعض
هذه الممالك المجاورة لنا من ممالك الكفار فتصدقهم القتال فلعل الله أن يظفرنا

فنصير إلى مملكته تأوينا، ويترع إلينا من هو على مثل رأينا فنتمتع ونجاهد في سبيل الله حتى يقضي الله أمره. وقال غيره: الرأي عندي أيها الأمير أن تنحاز إلى ملك الترك مستجيرا به ومستعينا على أخيك الغادر القاطع، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به؛ فلما سمع المأمون هذه المقالة ركن إليها وعول على هذا الرأي ثم فكر فقال: كيف الترك! اجعل للترك على حرب المسلمين سبيلا، وقال لأصحابه: قوموا عني، فنهضوا أجمعين، والتفت ورأى الشيخ الفارسي فقربه ورفق به وسأله عن أمره وما قصد له، على لسان ترجمان أقامه له، فقال الشيخ بلسان عربي: أيها الأمير إني جئت لحاجة فعرض لي دونها ما هو أكدر منها وأولى بالعناية، فقال له المأمون: قل ما أحببت سالكا سبيل الأدب، فقال: أيها الأمير إني دخلت عليك وأنا غير متصف بالحببة لك ثم ألقى الله في قلبي من المحبة للأمير ما ملأه، وإنه كان يقال: الرق ثلاثة أنواع: فأولها وأشدّها استيعابا للباطن والظاهر رق الاختراع وهو الرق لله سبحانه صانع الأشياء ومخترعها، والثاني رق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنع، والثالث رق الأتباع، وهو صنفان: أحدهما رق الحب وهو أقربهما إلى رق الاختراع لأن له سلطانا مبسوطا على الظاهر والباطن، والثاني رق الرعية لراعيها والعبيد لساداتها؛ وأنا أخير الأمير أعزه الله أنه قد تضافرت له على ثلاثة قوى من الرق: رق الحب ورق الاصطناع ورق الأتباع، فإن رأى الأمير أعزه الله أن يرسل وسيلتي ويصدق أمني ويسعف طلبي فليلحقني بأهل اختصاصه، ويكرمني بمكاثرة أوليائه ونصحائه، فعل ذلك متطولا به غير محتاج إليه، وأن عبده ليرجو أن يصادف الصنيعة منه شاكرا والاختصاص منه مشفقا ناصحا. قال له المأمون: ما دينك أيها الشيخ؟ فقال: مجوسي، فأطرق المأمون مفكرا فيما تكلم، فقال الشيخ: لا يصدق الأمير عني حقارة قدرني عنده فإنه يقال: لا تحقرن من الأتباع أحدا فإنك تنتفع به كائنا من كان، وهو أحد رجلين: إما شريف فتتحمل به وأما وضع فيحتمى عرضك ويصون مروءتك، وعلى أبي لست أعني بحقارة

قدري عند (هما) ¹ الأمير وأما أعراقي فإني برهمي من ولد البرهمي سيد ملوك فارس المتوسط بينها وبين أول الأوائل، وإنما أعني حقارة ديني وكوني في عقد ذمة وصغار جزية ، فقال له المأمون: ما بنا عنك أيها الشيخ من رغبة وإن انتقلت من ذمتنا إلى ملتنا التحقناك شعارا، فقال الشيخ: الباعث من نفسي إلى ما دعاني إليه الأمير لشديد ولكن لا أفعله في مقامي هذا، ولعلي أفعله فيما بعده، ثم قال: أياذن لي الأمير أن أتكلم فيما فاوض وزراؤك فيه ؟ فقال له المأمون: نعم، فقال الشيخ: سمعت ما أشار وزراء الأمير وكل منهم مجتهد في الإصابة ولست أرض شيئا مما ذهبوا إليه، فقال المأمون: اطلعنا على رأيك، فقال الشيخ: إني أجد في الحكم التي ورثها آبائي عن آبائهم أنه ينبغي للعاقل أنه إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التعلم لحكم قاسم الحظوظ، ولا يضيع مع ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر، فقال المأمون: أيها الشيخ إنه كان يقال لا رأي لمكذوب وقد سمحت أنفاسنا لك بالثقة من غير امتحان، وما ذاك لاختيارنا إضاعة الحزم، ولا كنا أحبينا أن نذيقك ثمرة حبنا بالمكاشفة الدالة على القبول، وها نحن نخبرك أن هذا المتوجه إلينا أعني علي ابن عيسى هو أملك بالبلد منا، ثم لا يمكننا مقاومته لو أردنا ذلك وهدرنا الأموال؛ فقال: أيها الأمير ينبغي أن تمحو هذا الأمر من قلبك بالجملة، وأن لا تصغي إلى من ينطق به، فإنه كان يقال: ما أكثر من كثرة البغي ولا أقوى من قواه الظلم، ولا ملك من ملكه الغضب، وها أنا أحدثك عن من إن حذوت مثاله نلت مثاله، فقال له المأمون: هات فقال الشيخ: إن الختشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك فارس وأراد إطلاقه أخذ عليه عهدا أن لا يغزوه ولا يقصده بمكرهه، ووضع في أقصى تخوم الهياطلة صخرة وأخذ على فيروز عهدا أن لا يتجاوز تلك الصخرة، ولما استوثق الختشوار من فيروز ما أخذه عليه من عهود السلامة أطلقه، فحين أطلقه رجع فيروز إلى دار ملكه داخلته الحمية والأنفة فعزم على غزو الختشوار، واطلع وزراءه

1 - يبدو أن ما بين حلالين زيادة

على ذلك فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغي، ومارده ذلك عماهم به فاذكروه العهود التي أخذها عليه الختشوار؛ فقال لهم: إني إنما خلفت أن لا أتجاوز تلك الصخرة وأنا أمر بحملها على فيل فيكون بين يدي جنودي لا يتجاوزها أحد منهم، فلما رأوا أن الهوى وقف به على حد الرضى فهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته فأمسكوا عنه، واعتقدوا أن لا يراجعوه في ذلك؛ وكان يقال: إن الهوى صداً يعلو العقل فلا تنطبع فيه. وكان يقال: ما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر، فإذا بلغ اللجاج فذلك زين السكر وسلطانه عليها، فأما سلطان العقل فطاريء مستفاد، وللعقل حاجبان وهما الشهوة والغضب فلا يزال العقل ناظراً إلى الهوى قاهراً له ما لم يحجبه غضب أو شهوة، فحينئذ ينبسط سلطان الهوى وينفذ حكمه؛ قال فجمع فيروز مرازبه وهم أربعة يتبع كل مرزبان خمسون ألف مقاتل، كان كل واحد منهم ضابطاً لربع من أرباع مملكة بابل وأمدهم بالتجهيز لحرب الهياطلة ففعلوا، وصار فيروز نحو الختشوار في جيوش يظن أن لا غالب لها، وكان الختشوار يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبة فيروز، وإنما كان ظفره بفيروز أولاً بمكيدة ليس هذا موضع ذكرها، وقد كان موبدار مؤيد، ومعنى هذا اللقب حافظ حفظة الدين، وهو عند الفرس كالنبي قال لفيروز حين رأى عزمه على غزو الختشوار أن لا تفعل أيها الملك فإن رب العالم يمهل الملوك على الجوار ما لم يأخذوا في هدم أركان الشريعة فلا تعرض له بسوء، فلم يلتفت فيروز إلى هذه المقالة وركب رأسه في معصية، وكان يقال: يستدل على أدبار الملك بخمسة أمور: أحدها أن يستكفي بالأحداث ومن لا خبرة له بالعواقب، والثاني أن يقصد أهل مودته، والثالث أن ينقص خواجه عن قدر مؤنة ملكه، والرابع أن يكون تقريره وإبعاده للهوى لا للرأي، والخامس استهانتة بنصائح العقلاء وأراء ذوي الحنكة.

وكان يقال: من عصا نصيحاً فقد استفاد عدواً.

وكان يقال: إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكري وضعفه، فمن قوى تخيل فكره فهو في سلطان الرأي غالبا، ومن ضعف تخيل فكره فهو في سلطان الهوى غالبا.

وعلى حكم هذا القانون: فمن عدم الفكرة في الأمور التحق بالبهائم، قال الشيخ الفارسي: وإن فيروز سار قاصدا نحو الختشوار حتى انتهى إلى الصخرة التي نصبها علما لتخوم أرضه واستحلف فيروز أن لا يجاوزها، أمر فيروز فأمر بقلعها وحملها على فيل، وأن يكون الفيل الذي يحملها بين يدي عسكر فيروز، ونهى أن يتجاوز ذلك الفيل أحد من العسكر، فما بعد عن ذلك الموضع الذي كانت الصخرة فيه حتى جاءه رجل من ثقات أصحابه وذكر له أن أسوارا عظيم القدر من أساورته قتل رجلا مسكينا ظلما وعدوانا، وجاء أخو ذلك المسكين المقتول فاستغاث بفيزوز وتظلم من الإسوار قاتل أخيه، فأمر له فيروز بماله ليرضيه به من دم أخيه، فأبى قبول المال وقال لا يرضيني إلا دم قاتل أخي، فأمر فيروز بطرده فانطلق من فوره إلى ذلك الأسوار الذي قتل أخاه فشد عليه بخنجر في يده فلما رآه الأسوار حرك فرسه هاربا بين يديه، وانتهى الخبر إلى فيروز فتعجب من ذلك فترل وزير من وزراء فيروز عن دابته وتقدم بين يدي دابة فيروز فسجد له، فسأله فيروز عن أمره، فذكر له أنه يريد الخلوة به في مهم (عرض له)¹، فأمر فيروز فضرب له فسطاطا فترل به وأذن لذلك الوزير فدخل عليه وأمره بذكر ما عنده، فقال له أيها الملك السعيد ملكت الأقاليم السبعة وعمرت عمر يدي وأسف في مثل عزته وقوته، لقد ظهرت عناية أول الأوائل بك فما ضربه لك من المثل في أمر هذا الأسوار إذ كان أسوارا نجدا هرب بين يدي مسكين في يده خنجر، وما ذلك إلا لبغيه وتعديه، فقال له فيروز: إنه لم يفر منه لعجزه عنه بل لخوفه منا، ولم يكن ليفعل تلك الفعل القبيحة ثم يشفعها بمثلها. فقال الوزير: أيها الملك أرأيت إن

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

دعوته إلى مبارزة ذلك المسكين وأمنته من سطوتك فظهر ذلك المسكين عليه أتعلم أن هذا مثل ضرب لك قيم المعالم، فقال الملك: لأفعلن ذلك، ثم إنه أحضر الأسوار فأمنه وأمره بمبارزة ذلك المسكين الثائر بأخيه فأجاب إلى ذلك وجمع عليه سلاحه وركب فرسه، فقال لهم المسكين: دعوني إياه فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة، وهو مقاتل بسيف البغي وأنا مقاتل بسيف الحق، فقال الوزير لفيروز: أيها الملك إن كلام هذا المسكين أبلغ في المثلية والموعظة من ظفره بهذا الأسوار، فصن أسوارك واستبق نفسه ولا تعرضه للهلكة بقاء هذا المسكين، واعمل في رضى هذا المسكين بالإحسان إليه، فإن لم يرضه إلا القصاص فاقض له بالعدل المألوف منك، واستدم عناية الأول الأخذ بناصيتك بعنايتك بالحق الذي يرضيه العمل به ويسخطه اجتنابه، فقال فيروز: لا بد أن أخلي بينهما وانظر إلى من يكون منهما إن كان المسكين يختار ذلك ويرغب فيه، فأعادوا عرض مبارزة الأسوار على المسكين ما صر على الرضية فيها والحرص عليها وخوفه الهلاك فلم يزدته تخويفهم إلا جرأة وإقداما، فقبل للأسوار القه ولا تخبر عنه، فحمل كل واحد منهما على الآخر فالتقيا وقبض المسكين على شكيمة فرس الأسوار وضربه الأسوار بالسيف ضربة تطأطأ لها المسكين فأصاب دباب السيف التي فيها أثرا ليس بالكبير، ثم ثار إليه المسكين فضربه بالخنجر في عنقه وجذبه فصصره ثم ضربه وهو ملقا ضربة أخرى، وأدخل من الدرع حلقات في جوفه وقضى عليه؛ فبات فيروز تلك الليلة في موضعه ذلك يفكر فيما يأتيه من الأمر، ثم أنه استقاد لهواه فنفر لوجهه.

وكان يقال: أولى الهوى هون. وكان يقال: الهوى طاغية، فمن ملكه أهلكه. وكان يقال: الهوى كالنار إذا استحكمت اتقادها عسر إخمادها، والسيول إذا اتصل مداه تعذر صدها.

وكان يقال: ليس الأسير من أوثقه أعداءه أسيرا وإنما الأسير من أوثقه هواد وأرهقه خسرا، قال الشيخ: ولما علم الختشوار قصد فيروز إليه لحربه حمل نفسه

على التثبت ووكّل الأمر إلى الأول الأخذ وسأله أن يغضب لعهوده وموآثيقه التي لم يرع فيروز حقها، ولا خاف تبعة نكثها، وأخذ مع ذلك لحة من الحزم وسد ثغوره وجمع إليه جنده وأعد للقاء فيروز عدته، وأمهل حتى وطئ فيروز كثيرا من أرضه، وتوسط مملكته وعاث في بلاده وساء على رعيته، إثره فنهض إليه ففاجأه وصدقه الجلاد فانكشف فيروز منهزما وأسلم ما كان في يده، فقتل الختشار رجاله وغنم أمواله، وأمعن في طلب فيروز حتى ظفر به فقتله، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه فكانت العاقبة له.

قال: فلما سمع المؤمنون ما ضرب له الشيخ الفارسي أقبل عليه مستبشرا وقال: قد سمعنا مقاتلك وصادفت منا قبولا لها وشكرا عليها وسرورا بما فمادّا ترى فيما دعوتك إليه من توحيد الله عز وجل، الذي أجزل من العقل حظك، وفتق بالمعرفة فكرك، وانطق بالحكمة لسانك، وقطع بمحمد صلى الله عليه وسلم عذرك؟ فقال الشيخ: اشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمدا رسول الله؛ فسر المؤمنون بإسلامه وأجزل صلته، وقرب منزلته فألحقه بخاصة أوليائه وأصحابه وأمره بملازمة بابه، فما لبث إلا أياما قلائل حتى لحق بربه.

وعمل المؤمنون برأيه فأنجح عمله وبلغه من الخلافة ما أمله، فهكذا يا بني ينبغي أن يكون قوادك.

تاسعا: العمال¹

يا بني وأما عمالك فتتحر منهم العارفين بجبايات الخراج وأهل البصر بالألقاب، التي بما الاحتياج، ويكون ذوي حزم وكفاية ودربة ودراية وضبط وأمانة وفضل وديانة، لا يضيعون أعمالك المخزنية ولا يضررون في ذلك الرعية، ويحتاطون في الحالين جريا على سبيل السوية.

1 - العنوان من وضعنا

يابني لا تطمئن إلى العمال وإن اظهروا لك التقشف والإقلال، وتلبسوا بالعبادة والزهادة في الحال، وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختيار العمال في جبايات الأموال؛ كما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى أن يأتيه بعماله، وكان واليا على العراق قال الربيع بن زياد الحارثي: وكنت عاملا لأبي موسى الأشعري على البحرين فأمر عمر رضي الله عنه بقدوم العمال عليه، وأن يستخلفوا جميعا فلما قدمت المدينة أتيت يرفى مولى عمر رضي الله عنه فقلت له يا يرفى مسترشدا وابن سبيل أخبرني في أي الهيئات يحب أمير المؤمنين أن يرى عامله فأوحى إلى الخشونة، فاتخذت مطرفين ولبست جبة صوف ولثمت عمامتي على رأسي على غير استواء، فدخلنا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصفنا بين يديه، فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيري فدعاني فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي، قال: وما تتولاه من أعمالنا؟ قلت له: البحرين، قال: وكم ترزق؟ قلت: ألفا، قال: كثير فما تصنع بها؟ قلت: أتقوت ببعضها وأجود على أقاربي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين، قال: فلا بأس عليك، عد إلى مكانك من الصف فرجعت إلى موضعي، وصعد فينا وصوب فلم تقع عينه إلا علي فدعاني ثانية فقال لي: كم سنك قلت خمس وأربعين، قال: الآن استحكمت أمرك.

ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث¹ بلين العيش، وقد تجوعنا، فأتى بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابي يعافون أكله، وجعلت أكل وأجيد وأنا انظر إليه فلحظني من بينهم، ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني صحت في الأرض ولم أقلها فقلت: يا أمير المؤمنين إن الناس يحتاجون إلى إصلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا! فزجرني ثم قال: كيف قلت يا أمير المؤمنين لو أمرت بقوتك من الطحين أن يخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذلك فيؤتى بالخبز إلينا وباللحم عريضا فسكن غضبه، ثم قال ها هنا عزت، قلت نعم، قال: يا ربيع إنا لو شئنا

1 - في النسخة المحررة: حديثه عهد

لكن رأيت الله عز وجل غير قوم بأمر فعلوه، فقال عز من قائل: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)¹. ثم أمر عمر رضي الله عنه أبا موسى الأشعري بإقرار لي على عملي وأن يستبدل بأصحابي.

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن الأتمية فلما جاء قال يا رسول الله هذا لكم وهذا لي فغضب النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدي له)²، قال مالك رحمه الله تعالى: وكان عمر رضي الله عنه يشاطر العمال ويأخذ نصف أموالهم وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال لم تكن لهم أموال قبل الولاية.

قال أبو هريرة: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي³: أخذت مال الله، فقلت: ما أخذت مال الله، فقال من أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم؟ قلت: خيلي تناجت وعطايا تلاحقت وتجارة تداركت، قال إذا الشطر، فلما صليت الصبح استغفرت لأمر المؤمنين، فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل لنا؟ قلت لا، قال: قد عمل من هو خير منك يوسف صلوات الله عليه، قلت إن يوسف كان صديقا نبيا وأنا ابن أمية أخشى أن تشتم عرضي وتظرب ظهري وتأخذ مالي.

1 - سورة الأحقاف، الآية 20.

2 - رواه البخاري ولفظه: (استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني أسد يقال له ابن الأتمية على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي لي فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر قال سفيان أيضا فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول هذا لك وهذا لي فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ألا هل بلغت ثلاثا).

صحيح البخاري، باب هدايا العمال.

3 - انظر حوار عمر مع أبي هريرة في: شرح كتاب السير الكبير، للسرْحسي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرْحسي، نسخة إلكترونية منشورة على موقع الوراق: <http://www.alwarraq.com>، ج 1، ص 389.

ودعا عمر رضي الله عنه بالحارث بن وهب حين عزله فقال له: ما قلاص واعبد بعثها بمائتي دينار؟ قال: خرجت بنفقة معي فتاجرت بها، فقال إنا والله ما بعثناكم بالتجارة في أموال المسلمين أدها، قال: أما والله ما عملت لك عملا بعد هذا أبدا، قال انتظر حتى استعملك.

قال: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمر بن العاص وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أما بعد فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وبقر وعهدي بك قبل ذلك ولا مال لك فاكتب إلي من أين أصل هذا المال؛ فكتب إليه عمرو: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو فإنه أتاني كتابك تذكر فيه فاشية ما فشيت وإنك تعرفني ولا مال لي قبل ذلك، فاعلم يا أمير المؤمنين إني ببلد السعر بما رخيص وإني أعالج الحرفة والزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أمير المؤمنين سعة وبالله الذي لا إله إلا هو لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك فأقص إليك أيها الرجل فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك إن رجعنا إليها عشنا، ولعمري إن لنا مالا تدوم معيشته ولا ندوم فأني الآن ذلك ولم يقبح فعليك ولم يشكرك في عملك؛

فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أما بعد فإني والله ما أنا من أساطرك التي تسطر ونسقت الكلام في غير موضع، وما يغني عنك أن تزكي نفسك، وقد بعثت لك محمد بن مسلمة فشاطره مالك فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون الأموال ثم لم يغركم غرر تجمعون لأبنائكم وتمهدون لأنفسكم، أما إنكم لتجمعون النار وتورثون النار والسلام.

فلما قدم محمد بن مسلمة على عمرو بن العاص قدم له عمر طعاما كثيرا فأبى محمد من أكله فقال عمر: تحرمون طعامنا، فقال: لو قدمت إلي طعام الضيف لأكلته ولكنك قدمت طعاما ما أراه مقدمة شر، والله لا أشرب عندك الماء، فاكتب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه، ففعل وشاطره في جميع ماله حتى نعليه أخذ

إحداهما وترك الأخرى؛ فغضب عمرو وقال: قبح الله زمانا عمل فيه عمرو لعبد الله إني لا أعرف الخطاب يحمل على رأسه حزمة الخطب وعلى ابنه مثلها وما منهما إلا عليه نمره لم تبلغ رسغيه وبالله ما كان العاصي بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب، فقال محمد اسكت عمر والله خير منك، وأما أبوك وأبوه في النار ولولا الزمان الذي سببته فيه لا لقيت معقل شاه يسرك غزرها ويسوئك بكيها؛ فقال عمرو هي عندك أمانة اكنمها عني.

وبعث معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو وال على الشام بمال وأدهم، وهو القيد، وكتب إلى أبيه أبي سفيان أن يدفع المال إلى عمر والأدهم فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم فذهب أبو سفيان بكتاب معاوية والأدهم إلى عمر وجلس¹ عند نفسه، فلما قرأ عمر الكتاب قال: أين المال أبا سفيان؟ قال كان علينا دين ومؤنة ولنا في بيت المال حق فإذا أخرجت لنا شيئا فاحتسبنا به، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال، فلما رأى ذلك أبو سفيان أرسل في المال فأتى به وأمر عمر بإطلاقه من الأدهم، فلما رجع الرسول إلى معاوية قال أرأيت أمير المؤمنين أعجب بالأدهم، قال له: نعم وطرح فيه أباك، قال لم ذلك؟ قال: حبس المال وجاء بالكتاب والأدهم إلى عمر؛ فقال معاوية: أي والله والخطاب لو كان طرحه فيه.

وبلغ عمر بن الخطاب أن سعد بن أبي وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال الصويت فأرسل عمر محمد بن مسلمة، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما هو بعثه فقال له: أئت سعدا فاحرق عليه بابه، فقدم الكوفة، فلما أتى الباب استخرج زنده واستورى نارا ثم أحرق الباب، فأتى سعد الخبر ووصف له بصفته فعرفه، فخرج إليه سعد فقال له محمد: إنه بلغ أمير المؤمنين أنك قلت انقطع

1 - في النسخة الحجرية: و حبس المال عند نفسه.

الصويت، فحلف سعد بالله أنه ما قاله، فقال له محمد: نفعل الذي أمرنا به ونؤدي عنك ما تقول؛ ثم ركب راحلته راجعا.

فلما دخل على عمر قال لولا حسن الظن بك ما رأينا أنك أديت، وذكر أنه أسرع السير فقال: قد فعلت وإن سعدا ليعتذر ويحلف بالله ما قال، فقال عمر: فهل أمر لك بشيء، فقال: قد رأيت أنك لم تأمر لي فكيف هو؟ فقال عمر: ائت أرض العراق، أرض رقيقة وإن أهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت أن أمر لك بشيء يكون لك بارده ولي الحار.

وزار أبو سفيان معاوية ابنه بالشام فلما رجع من عنده دخل على عمر بن الخطاب فقال له عمر: احزنا أبا سفيان قال ما أصبنا شيئا فنجزيك فأخذ عمر خاتمه وبعث بها إلى هند وقال للرسول قل لها يلبث عمر أن أوتي بحرفين فيهما عشرة آلاف درهم فאלقاهما عمر في بيت المال فلما ولى عثمان ردهما على أبي سفيان فقال أبو سفيان ما كنت لأخذ مالا عابه على عمر وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال عمر بن سعد فلما مضت إليه السنة كتب إليه أن يقدم فلم يشعر به عمر أن قدم ماشيا عافيا عكازه بيده وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره فلما نظر إليه عمر قال يا عمير أجبنا أم البلاد بلاد سوء فقال يا أمير المؤمنين أما نحيث أن يجهر بالسوء ونحيث عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتكم بالدنيا أجرها بخوافرها قال وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكؤ عليها وادفع بها عدوا إن لقيته ومزودي احمل فيها طعامي وأدواتي هذه احمل فيها شيء ماء لشربي وطهري وقصعتي هذه أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وأكل فيها الطعام؛ فو الله يا أمير المؤمنين ما الدنيا إلا تبعنا لما معي.

قال فقام عمر عن مجلسه فقال: ما صنعت في عملك يا عمير؟ قال: أخذت الرقة من أهل الرقة والإبل من أهل الإبل وأخذت الجزية من أهل الجزية عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء وأبناء السبيل والمساكين، فو الله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي شيء أتيتك به فقال له عمر: عد إلى عملك، قال عمير:

أُشَدُّكَ اللَّهُ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى عَمَلِي لَمْ أَسْلَمْ مِنْهُ حِينَ قُلْتَ لَدُمِّي أَخْزَاهُ اللَّهُ، وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَخْصِمَنِي لَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (أَنَا حَجِيجُ الْمَظْلُومِ فَمَنْ جَاءَ حِجَّتَهُ صَحْبَتَهُ)¹ وَلَكِنْ أَئِذَنْ لِي آتِي أَهْلِي، فَأُذِنَ لَهُ فَأَتَى أَهْلَهُ، فَبِعِثَ عَمْرٌ رَجُلًا يَقَالُ لَهُ حَبِيبٌ بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَقَالَ: إِيَّتَ عَمِيرٌ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَإِنْ يَكُنْ خَائِنًا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ فَادْفَعْ لَهُ الْمِائَةَ، فَأَتَاهُ حَبِيبٌ فَتَرَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَلَمْ يَرِ لَهُ عِيشًا إِلَّا الشَّعِيرَ وَالزَّيْتَ، فَلَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُ قَالَ يَا حَبِيبُ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى جِيرَانِنَا فَلْعَلَّ أَنْ يَكُونُوا أَوْسَعَ عِيشًا مِنَّا أَمَا نَحْنُ فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ عِنْدَنَا غَيْرُ هَذَا لِأَثَرْنَاكَ بِهِ؛ قَالَ: فَدَفَعَ لَهُ الْمِائَةَ وَقَالَ لَهُ: بَعِثْ بِمَا إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَدَعَا بِخُمَارٍ لِأَمْرَأَتِهِ فَصَرَّهَا الْخُمْسَةَ وَالسَّتَةَ وَالسَّبْعَةَ فَقَسَمَهَا، فَقَدَّمَ حَبِيبٌ عَلَى عَمْرِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ أَزْهَدِ النَّاسِ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، فَبِعِثَ إِلَيْهِ عَمْرٌ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ يَا عَمِيرُ بِالْمِائَةِ؟ قَالَ لَا تَسْأَلْنِي عَنْهَا، قَالَ لِتَخْبِرَنِي: قَدْ قَسَمْتُهَا بَيْنَ إِخْوَانِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَمْرٌ لَهُ بِوَسْقَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثَوْبَيْنِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا الثَّوْبَيْنِ فَقَبِلْتَهُمَا وَأَمَا الْوَسْقَيْنِ فَلَا حَاجَةَ لِي بِمَا عِنْدَ أَهْلِي صَاعٌ مِنْ بَرٍّ هُوَ كَافَهُمْ حَتَّى أَرْجِعَ.

وَرَوَى أَنَّ عَمْرُ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَرَّ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ وَقَالَ لِلْغَلَامِ: أَذْهَبْ بِمَا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ثُمَّ تَلَكَّأَ سَاعَةً فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَرَى مَا يَصْنَعُ بِمَا، فَذَهَبَ الْغَلَامُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَوَائِجِكَ، قَالَ وَصَلَهُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يَا جَارِيَةُ أَذْهَبِي بِهَذِهِ السَّبْعَةَ إِلَى فُلَانٍ وَبِالْخُمْسَةَ إِلَى فُلَانٍ حَتَّى أَنْفِذَهَا، وَرَجَعَ الْغَلَامُ إِلَى عَمْرِ فَأَخْبِرَهُ فَوَجَدَهُ قَدْ أَعَدَّ مِثْلَهَا لِمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، فَقَالَ: أَذْهَبْ بِمَا إِلَى مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَتَلَكَّأَ فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَرَى مَا يَصْنَعُ بِمَا؛ فَذَهَبَ بِمَا إِلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكَ: أَجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَوَائِجِكَ

1 - رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَلَفْظُهُ: (عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَلَا مَنْ ظَلَمَ مَعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طَلِبٍ نَفْسُ فَاَنَّا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).
أَبُو دَاوُدَ، سَنَنَ أَبِي دَاوُدَ، بَابُ فِي تَعْشِيرِ الذِّمَّةِ.

فقال رحمه الله و وصله ثم قال يا جارية أذهبي إلى بيت فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا، فقالت امرأة معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرق إلا ديناران قد حاجهما إليها، فرجع الغلام فأخبر بذلك أمير المؤمنين عمر؛ فقال إنهم إخوة بعضهم من بعض.

ولما عزل عثمان بن عفان عمر بن العاص عن مصر استعمل عليها ابن أبي سرح فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمر فقال له عثمان يا عمر أشعرت أن اللقاح درت بعدك؟ فقال: ذلك والله لأنكم أجحفتكم بأولادها.

قال زياد أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لن تزالوا سمانا ما سمنوا.

وقال جعفر بن يحيى: الخراج عمود المملكة وما استغزر بمثل العدل ولا استر بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراج البلاد الجور.

عاشرا: الجيش¹

يا بني وأما جيشك فاعلم انه يجب عليك أن تنتحب لجيشك أنجاد القواد من أنجاد الأجناد فقد قالت الحكماء أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلتقدم على جيشك أهل النجدة والبسالة والشجاعة والبسالة ممن مارس الحروب ودافع الخطوب وصارع الأبطال واقتحم الأهوال اعلم يا بني أن خير الأصحاب أربعة وخير الراما أربعمئة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يبلغ جيش يبلغ اثنا عشر ألفا من قلة إذا اتفقت كلمتهم وقد قالت الحكماء للكثرة الرعب وللقلة النصر يا بني اعلم أن الجيش ينقسم إلى أربعة أقسام خاصتك وقبيلك وأنصارك ومماليك.

القسم¹ الأول: الخاصة

اعلم يا بني انه ينبغي لك أن تتخذ خاصة من وجوه القبائل وكرام العشائر تستخلصهم لنفسك ليعلمك كل واحد منهم محبا في جانبك ومائلا إليك ومعتمدا في أموره عليك، لأنه إذا كان محبا في جانبك قاد جميع جماعته إلى بابك، وسعوا كلهم في مرضاتك وآرائك، فليترل كل واحد منهم في منزلته وتربته على قد ما يليق به من مرتبته.

القسم الثاني: من الجيش القبيل أعني قبيل الملك

اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تكون محافظا على قبيلك، مواسيا لهم من كثيرك وقليلك، لا توجههم إلى غيرك، ولا تمنعهم من خيرك، وتختص منهم من يكون محبا ناصحا مخلصا صالحا، ومن تراه لا اختصاصك أهلا، ولتقريبك واصطفائك محلا، وتقدم الأشياخ على الجموع فإن التابع يصلح بالمتبوع فتجعل على كل جماعة منهم شيئا من كبارهم وأعيانهم وخيارهم، محبا في سلطانك وجماعتك، باذلا في خدمتك جهد استطاعته، مأمون القائلة من النميمة والغيبة، سالما من النقيصة والريبة، محرضا لجماعته على طاعتك، مطالعا لك بأحوالهم في كل أحيانه، ولا يقول عنهم إلا الحق، ولا يعامل سلطانه إلا بالصدق.

القسم الثالث: وهم أنصار الملك من حماته المحدثون به من جميع جهاته

اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ لنفسك أنصارا لا يفارقونك ليلا ولا نهارا، وهم أربعة أقسام: ميمنة، وميسرة، وتقدمة، وساقة؛ فأما الميمنة يا بني فلتخبرهم من ذوي الشدة والكفاية والنجدة والحماية، وتقدم عليهم من خاصتك الأجواد قائدا من القواد رابط الجأش صادق الناس، وأن يكون نزولهم في محلتك عن يمينك في المنزل متزينين أحسن زي وأجمله؛ وأما الميسرة يا بني فلتخذهم أيضا من حماة

1 - كلمة القسم من إضافتنا

الأبطال المقتحمين للأهوال، من مشاهرة الفرسان، وأسود الضراب والطعان، وأهل الجلال والكفاح، والإقدام والنطاح، وتقدم عليهم قائدا ثابتا القلب، عارفا بمواقع الحرب، صابرا للطعن والضرب، ويكون نزولهم في محلتك عن يسارك مرتقبين إليك في إيرادك وإصدارك؛ وأما المقدمة يابني فلتتخيرهم أيضا من أصحاب الخيول السوابق، العارفين بالشدائد والمضايق، من كل أسد باسل وبطل، مقاتل صائد للمقاتل، وتقدم عليهم قائدا بصيرا بالمواضع الفرص والغرة قد مارس الحروب المرة بعد المرة، لا يحجم عن الإقدام ولا يتحزح عند تزلزل الأقدام، ويكون نزولهم في محلتك أمامك لا يتجاوزون غرضك ومرامك؛ وأما الساقة يابني وهم أهل دخلتك المخصوصين بموالياتك ونصرك اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تتخذ دخلة من الحماة الأبحاد، والأعيان الأنجاد من سراة القبائل وصناديد المواقف والمحافل، ذوي ثبوت عند نزول النوازل، وصبر عند قراع الكنائب، وأهل نجدة عند حلول المصائب؛ لأنهم القطب الذي عليه المدار، والمربد¹ الذي يرجع إليه ذوو القرار، وبهم ترد الهزائم وتدفع العظائم وتنكشف الكروب، وتدور عليهم الحروب؛ فهم يرهبون العدو بوقوفهم، ويخذلونه بثبوت صفوفهم فيكون جميعهم يقاتل أهل الميسرة والميمنة والتقدمة.

وهذا رأي من ساس الحرب وقومه أو حكمه وأبرمه لأنه ربما وقع من بعضهم اختلال وعصيان وشنثان في بعض الأحيان فتقمعهم بأهل الدخلة، وتردهم بهم عن تلك الفعلة، ولتقدم عليهم قائدا من خيار خاصتك الأقربين الممارسين للحروب الجريين، ممن ظهرت نجابته وكثرت إصابته واعتورته الأمور، واشتهر في كل معترك مشهور، من ذوي الحسب اللباب والكرم في الأنساب، ويكون نزولهم في محلتك خلف مترلتك، وكذلك في ركوبك وحالي سلمك وحروبك.

وهذه الجموع المذكورة المخصوصون من المحلة بهذه المنازل المشهورة يركبون
ركوبك ويتزلون لتزولك، لتبلغ بهم غاية مقصدك ومأمولك، فيحذقون بك من
جميع جهاتك في ليلك ونهارك وسائر أوقاتك، ويكونون مقاومين لقبيلك في
الشجاعة ليلا يخرج بعضهم عن الامتثال والطاعة فإن ظهر من بعض قبيلك تخاذل
وإنكار فتقمعهم بهؤلاء الحماة والأنصار.

القسم الرابع من أقسام الجيش: ممالك الملك

وهم على أربعة أقسام: الأعلاج، والنصارى، والأعزاز، والوصفان.

ويكون قدر هؤلاء الذين ذكرناهم قدر الحماة والأنصار الذين قدمناهم بحيث
إذا ظهر منهم جموح لعصيانك وإخلال لجانبك فتقمعهم بهؤلاء الأصناف وتمنعهم
من الخذلان والخلاف.

وليكن هؤلاء المذكورون أهل شدة وكفاية ونجدة في غاية وزينة وعدة وجرة
وشدة وحدة، وليكن سكناهم ببلد حضرتك لتجدهم لعضدك ونصرتك، لا
يفارقونك طرفة عين، ولا يزالون تلقاء وجهك كل أين، وأما ترتيبهم في الركوب
وطبقاتهم في هذا الغرض المطلوب فليكن إعزازك وأعلاجك بين يديك وركاب
خيلك بإزائهم يتقدمون عليك، وكذلك النصارى والوصفان يركبون خلفك مع
أهل دخلتك الفرسان، وليتقدم على كل جماعة من هؤلاء قائدا متحفظا ناجدا،
وكذلك الأعزاز والأعلاج يجرون في التقديم على هذا المنهاج.

والأعزاز تنقسم إلى أربعة أقسام: وصفان، وأترار، وأعلاج، ومناصفون؛
وتقدم على كل جماعة منهم قائدا يقتدون به، ويكون لهم علم يمتازون بسببه.

ويستحب للملك رجالا أنجادا كفاة اطرادا مشائين بين يديك إذا ركب،
ومصرفين حيث ما صرت، يكون لهم ترتيب في اللباس، يمتازون بذلك، يتزينون
بالأقنية الحسان المختلفة الألوان، وبأيدهم الحراب عليها صغار الرايات من أنواع

الحرير مختلفات؛ لأنهم مما يزودون في بهاء الملك وجماله وضحامته وكماله، وهم مما يتزين بهم الملوك والأمراء والأشراف والكبراء.

القسم الثاني من قواعد السياسة: أن تتزل الناس في منازلهم

يابني اعلم أنه ينبغي لك أن تتزل الناس في منازلهم وترتبهم بحسب أقدارهم عندك ومناصبهم، وذلك على طبقات:

الأولى: الوزراء والكتاب¹

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن يكون أول ذلك عليك مزوارك الموصوف وعونك المعروف ليعرفك بمن بيابك من وزرائك وحجابك وأرباب دولتك وكتابك، فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك، إذ بهما صلاحك وتديرك ليجمع معك على الرأي والتدبير والجليل من أخبارك والحقير، فإن الوزير إذا كان على ما وصفناه وبالصفة التي ذكرناها فلا ينبغي لك أن يخفي عليك شيء² من أمرك بل يشاركه في حلولك ومرك وقلك وكثرك، ويجب على هذا الكاتب التي³ تقدمت صفته ووصفت نباهته ومعرفته، أن يكون دربا⁴ في قراءة الكتب وسردها متحرزا من ألفاظ شائنة أو وصمة في ضمن الكتاب ثاقبة، فإنه ربما يجب فيها ما يكون في حق المجلساء وصما وقبيحا يستحق في الوقت كتمانها فيتجاوز الكاتب ذلك اللفظ المتين ولا يبينه في الحين، ثم ينتظر به خلوة إليك فيعيد قراءته عليك، ويظهر لك ما أخفاه عن المجلساء، فيعد ذلك من جملة فطنته والذكاء، فإذا فرغ الكاتب من عرض كتبك وتلقى بالتوقع ما أردت من إربك خرج لكتابة ما أمرته به، ويجري على

1 - العنوان من وضعنا

2 - هكذا في الأصل والصواب: شيئا، لأنكلمة شيء في الجملة مفعول به.

3 - هكذا في الأصل والصواب: الذي.

4 - درب دربا إذا اعتاد الشيء وأولع به.

انظر الزبيدي، م س، مادة درب.

أحسن مذهبه وتبقى أنت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة.

يابني ينبغي أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هيبة ووقار وتعظيم وإكبار وتفاوض في الأخبار، وأخذ في المصالح، وتدبيراً يعود بالمنافع والمنامح، لا مجلس هتار ومزاح، ولا مباسطة اطراح، فإنه إذا مازحت وزيرك اسقط المزاح عنده هيبتك وتوقيرك، لأنه ربما تكلمت بما تزول به عند وزيرك هيبتك وربما أيضاً تكلم الوزير بما يستخف به عقله فتسقط رتبته عندك.

الثانية: صاحب الأشغال¹

وبعد دخول وزيرك وكاتبك وقضاء ما أردته من مآربك يدخل صاحب أشغالك الموكل بحفظ جبايات أموالك تعرفك بما تحمل وتصير من مالك وبمحاسبة عمالك وبجميع أشغالك المختصة بدارك في إيرادك وإصدارك مثل أصناف الحلي وأنواع الثياب وغير ذلك من الأثاث والأسباب، وليتلقى أيضاً منك ما تأمره به جارياً، على عرضك في قلبه مما يستأنف في يومه من الأشغال وما يليق من الأعمال.

الثالثة: صاحب الشرطة²

ثم يدخل صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما ترايد في ليلتك حتى لا يخفى عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك، ومع ضبط مملكته فتسأله عن القليل والكثير والجليل والحقير ليلا يتوصل أهل العناية للرعية بالمضرة والإذابة، ولا يقع من الحاكم جور في البلد ولا ظلم لأحد، وأنه إذا علم الحاكم وغيره من أهل العناية وأهل الدعارات والجنايات فإن الملك لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده

1 - العنوان من وضعنا

2 - العنوان من وضعنا

فيمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند حدودهم ويأمنون من الجور في صدورهم وورودهم، وفي هذا إبقاء لنظام الملك وأمان للرعية من الهلك.

يابني وينبغي لك أن تتخير صاحب الشرطة ، لأنها عند الملوك أكبر خطة فتقدم لها من يكون صاحب ديانة وعفة وصيانة وهمة ومكانة وسياسة ورياسة ورأي وفراصة، ثم تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك وخلصائك وأشياخ قبيلك وأوليائك، فتشاركهم فيما ظهر من آرائك، وتأخذ معهم فيما عليهم وما لهم، وما يصلح أحوالك وأحوالهم.

الرابعة: أشياخ القبائل وقادة الجيش¹

ثم تدعو إلى الدخول أشياخ دخلتك وأشياخ القبائل المقربين لخدمتك وقواد أجنادك المستمسكين بحرمتك.

يابني وينبغي لك أيضا أن تتخذ طعاما تجعله عادة مستمرة لتستجلب به القلوب للمسرة لا طعام ما ذكرناه من أشياخ القبائل ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسائل فإذا فرغ الناس من أكل الطعام بين يديك قمت إلى مترلك ودخلت إليه وانصرف الناس ما عدى الحاشية، ثم تعود إلى مجلسك ثانية ثم تدعو للجلوس وزيرك وخاصتك، وتتخذ ذلك سيرة وعادة، فيكون جلوسك معهم مجلس وقار وهيبة وسكون ورغبة، يصغون لحديثك وأخبارك، غير مريعين لأسرارك، يعلمون بما انطوت عليه سرائر خدامك وجميع أجنادك بتفاوضهم بما يصلح أمور دولتك ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك، ويكون جلوسك معهم بقدر ما يقتضيه الحال، ويحتمله المجلس من المقال ثم تدخل إلى دارك لراحتك واستقرارك، وتنصرف الخاصة إثر ذلك، ويتربص الوزير قليلا هنالك لقضاء حوائج من لا يبلغ إليك ولا يجد من سبيلا ولا مسلكا للوقوف بين يديك، فإذا استوى

1 - العنوان من وضعنا

مبارب الناس على اختلاف الأنواع والأجناس رتب الحراس على أبواب القصر وقد استوفى ما قبله من الأمر..

فإذا أذن المؤذن للعصر خرجت إلى الصلاة وترتب للجلوس في أحسن الميئات، ثم تجلس بمجلسك المعتاد وتأذن لوزيرك بالدخول دون الخاصة والقواد فتفاوضه فيما يختص بك وما تراه من مظلة مطلبك، ثم تأمر بالدخول الخاصة بعد ذلك فتسلك معهم في الحديث أحسن المسالك، وتأخذ معهم فيما يظفر بالأعداء ويصلح على حماتك الأولياء، وكيف تتوصل لأخذ بلاد العدو والمعاند والمساوي الحاسد بوجوه المقاصد، وليكن جلوسك ذلك متصلا بالعشاء الآخرة تقطع ذلك في المفاوضة والمذاكرة، ثم تدخل لدارك وقد نلت من التدبير معهم غاية اختيارك فتخرج الخاصة إلى ديارهم ويبقى الوزير قليلا بعد انتشارهم ترتب لك الحراس للبيات وتغلق بعد الترتيب على البيات ويأخذ الحراس بالطواف على القصر من خارجه، ويخص بالتحفظ على جميع مناهجه، وعلى هذا تكون عادتك في سائر الأيام على الاستمرار والدوام ماعدا يوم الجمعة؛ فإنه يوم راحة وسعة فيه تستعد للصلاة ويعتد الخدام لركوبك في أحسن الميئات تنظف وتنظف، وتخرج في أحسن اللباس نوعا على الترتيب المطلوب شرعا.

وبعد فراغك من الصلاة تجلس بمجلسك للشكايات وتأخذ في قضاء الحاجات والفصل بين الخصماء والأنتقام من الظلمة الغشمة، فتقمع الظالم وتقهره وتحمي المظلوم وتنصره، وتحض الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لإزالة ما يقع في الأحكام من الالتباس، وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور مخصوص بالرعية وبالجمهور (تتفقد)¹ الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام المحتاجين وتنظر في أهل سجونائك وفيما أخذ المأخوذ من رعيتك، فتسرح من ترى تسريحه وترد إلى السجن من لم يرد الله أن يريحه، وتواسي ذوي الحاجات ومن يستحق المواساة،

1 - الكلمة المكتوبة في الأصل متورة فنقلنا كلمة تفقد من النسخة الحجرية، وهي مناسبة للسياق.

فمن كان له حق من الحقوق الشرعية رددت له أمره إلى قاض البلد ليفصل في القضية، ومن كان في غير ذلك من الأحكام التي لا يقضي فيها أحد سوى الإمام فصلته بما يقتضيه نظرك السديد ورأيك المصيب الرشيد، كما قال ابن حميداني لواقف على رأس المأمون وقد جلس للمظالم وكان آخر من تقدم إليه امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال يحيى وعليك السلام يا أمة الله سلي حاجتك فأنشدت:

يا خير منتصب يهدي له الرشد ... ويا إمام به قد أشرق البلد

تشكو إليك عميد القلب أرملة عدى ... إليها فلم يترك لها سبد

وأهرمني ضياعي بعد منعتها ظلما ... وفرق عني الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه وقال:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني ... وأقرع مني القلب والكبد

هذا أو ان صلاة العصر فانصرفي أنصفك ... فيه وإلا لمجلس الأحد

والمجلس السبت أن يقضي الجلوس لنا ... واحضر الخصم في اليوم الذي أعد

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال لها: وعليك السلام أين الخصم؟ فقالت: واقف على رأسك وأومأت إلى العباس بن المأمون، فقال المأمون لأحمد بن خالد: خذ بيده واجلسه معها بمجلس الخصم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين إنك تكلمين الأمير فاخفصي من صوتك، فقال المأمون دعها يا أحمد فإن الحق انطقها والباطل أخرسه؛ ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وظلم العباس بظلمه، وأمر بالكتاب لها إلى عامل بلدها أن يدفع إليها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة.

يابني وينبغي لك أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس و لا تمضي فيه حكما تنفرد فيه بالنظر في مجاييك وأموالك، وتتفقد أحوالك وتعرف أموالك، ومالك من الحاجات في ديار الصناعات مثل النظر في العدد الحربية التي تظفر بها القوة في الكلية، وفيما يخصصك في نفسك ومالك وأهلك، وما تحتاج إليه من كثر وكلك.

يابني وينبغي لك أن تتخذ أياما في السنة، وتلك من السير الحسنة تتفقد فيها أحوال جيشك وقوادك وأجنادك وعددك وإعدادك، فتميزهم تميزا تعرف منه أحوالهم، وتختبر قطائعهم وأموالهم، وتضبط عددهم، فتحسن لمن يستحق الإحسان، وتمتحن من يستحق الامتهان.

وعلى هذا يكون عملك في سائر أعوامك يرجى لك سعادة أيامك ودوام سلطانك إن شاء الله تعالى.

القسم الثالث من قاعدة السياسة: أن يجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم، وأن تسايس من كان مفرط الجهالة من الخدام، وترايضه¹ مرايضة الجموح باللجام حتى تنتفع بخيره وتأمين من شره، فتستدرجه بلطف سياستك وترده إلى وفق غرضك، وذلك من رياستك حتى يصير بعد جفوته طوع قيادتك، ولا تتلقاه بالعنف من أول وهلة، فالخير كله في التأني والمهلة، ولا خير في السرعة والعجلة، ولا تعنفه على حاجة إذا كانت لك به حاجة.

وكن كالطبيب الماهر الذي يعرف الأعراض فيعطي الأدوية على حسب الأمراض، وكذلك إذا كانت لك قبيلة وافرة وجموح متكاثرة وأحوالها متشاجرة

1 - كذا في الأصل ولعلها تصحيف ، والكلمة التي تناسب السياق : تراوض، من المراوضة.

فتجرى أولا على أغراضهم، ولا يسوءك ما تراه من جفوتهم وإعراضهم، وعدهم بنيل مطلوبهم ليميلوا إليك بقلوبهم، فإن رجع بعضهم إلى عرضك وهواك وبقي البعض تابعا لسواك فسلط من أطاعك منهم على من عصاك، لتبلغ فيهم مرادك ومناك، وانتقم لبعضهم من بعض، وادخل بينهم الشنئان والبغض؛ وكذلك تفعل بخدامك وأجنادك وحواضر بلادك، ترتبهم ترتيبا حسنا وتوسعهم إكراما ومنا فيكون الشرفاء عندك، رفع الناس في الرتب لأنهم أشرفهم في الحسب وأعلامهم في النسب، ثم الفقهاء لأنهم مصابيح الدين وبهم اقتداء المسلمين، بهم تقام الشرائع وتسد الذرائع، وتعتصم بهم من الأهوال والبدع، ويعتز بهم الإسلام ويرتفع، لأنهم ورثة الأنبياء وهم أعلام الاقتداء؛ ثم أشياخ البلد والأمناء والوجود والفضلاء والضابطون لجموعهم، الرابطين تابعتهم لمتبوعهم، مثل أهل التجارات وأهل الحرف والصناعات، فتزل كل جماعة منزلتها وترتبتها في طبقتها، ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم وأياديك منبسطة إليهم، فرما تدعوك الضرورة إلى الانتفاع بهم في الشدائد فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، وذلك لحسن مدافعتك عنهم، وتوثقك بالإحسان منهم، ولتكن معاملتك معهم بما يليق من إكرامهم وحفظهم واحترامهم، وأما العامة والدهماء فتسلك بهم طريقة واحدة يقفون عندها ولا يتعدون حدها، وتجريهم على ما تعودوا من السير الحميدة والمواليات¹ المجيدة، ثم لا تتركهم لأغراضهم الفاسدة وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة، فإن العامة مجبولة على الفساد وعلى اتباع الأهواء وقلة السداد، لأن العامة الغالب عليها الشرار والهرج والاضطراب، فإن العامة إذا قدرت أن تقول قدرت أن تصول.

وقال أرسطو اتقوا العامة فإنها إن قامت لم ترفد وإن طلبت لم تجدد.

وأما الجري معهم على حسب أوقاتهم وأزمانهم وطبقاتهم فإن كل زمان رخاء وخير فتسير فيهم أحسن سير، تعدل في مغارمهم عند الغرامات وتوصي بالتحفظ

عليهم الولاة، ولا زيادة ولا إحطاط، وإن كان زمان فتنة ثائرة وفساد في البلاد ومشاجرة فتشد على الرعية جهد الاستطاعة، وتظهر عليهم فضلك فتنتفع بهم في الطاعة و تدافع عنهم وإما بوجوه السياسة وتدبير الخلافة والرياسة وإما بوافر أجنادك بما تراه من قوته واستعدادك، وإن كان من قحط وجماعة واقعة وأزل¹ فترفق بهم في المخازن والمجاي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اختزنه من الطعام، مما يقوم بهم أود الناس في ذلك العام.

فإذا كنت يابني عاملا على هذا الأسلوب جبلت على محبتك كل القلوب
ودعت لك الرعاية بقاء الدولة والتمهيد والنصر والتأييد، وفي ذلك الصلاح التام
لدولتك والخير العام لرعايتك.

واعلم يا بني أن بالطعام قوام عالم الإنسان فلا تفرط في اختزانه في كل أوان واعتبر في ذلك بحال نبي الله يوسف الصديق على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فإنه اختزن الطعام في زمن الرخاء وأمر الناس بذلك فوجدوا ذلك في زمن الشدة والدواء وجعل ذلك سببا إلى أن ملكه مصر فعاد ملكا بعد ما كان مملوكا.

القسم الرابع من قاعدة السياسة: أن يكون الملك يقضانا ماهرا حازما
دهقاناً، ضابطاً لأُمُوره

اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تكون يقضانا ماهرة حازما دققنا، ضابطا
لأمورك، عالما بصغير الأمور وكبيرها في تدبيرك، وإنما ذكرنا اليقظة لأنها رأس
الحزم وعمدة العزم، وفيها باب————ان:

1 - أزل: ضيق من العيش. تقول: قل نزلهم، وطال أزلهم، وأزلوا، حتى هزلوا، أي حسوا وضيق عليهم. الزمخشري، أساس البلاغة، نسخة إلكترونية منشورة على موقع الوراق.

http://www.alwarraq.com ، ج ١ ، ص 7.

الباب الأول: (الأمور التي لا يحيد عنها للملك)¹

اعلم يا بني أن من حزم الملك وسياسته ويقظته ورياسته أن يعتد لنفسه بأربعة أمور لا يحيد عنها لكل ملك مشهور:

الأمر الأول: اتخاذ المعقل

أنه ينبغي لك أن تتخذ لنفسك معقلا يكون لك في المهمات موقفاً تلجأ إليه عند الشدائد وتتحصن به من العدا والمعاوند.

وصفة المعقل أن يكون حصناً حصيناً لا يرام، وركناً منيعاً لا يضام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تفرع، وعقيلة لا تفرع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب؛ قد اشتمل على الماء والاختزان والعدد والمكان، تجعل فيه ذخائرك وأموالك وأتاتك وأمتعتك وإثقالك، تسكن فيه أجود أجنادك وحمايك وقوادك، تشحنه بالرجال والرماة المرتجلة، والزعماء من الرجال المحصلة الذين لا يروعهما الحمام ولا يخوفهم سل الحسام، ولا يبالون بما أبرق وأرعد، ولا بمن تجرع وأوعد، وتسكن فيه أهل الصناعات وأرباب التجارات والبضاعات، حتى لا يحتاج الحصن إلى غيرهم على قتلهم أو كثرتهم.

وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع مثل التين والزيتون وما قارب هذا الأنواع وأن تأتي أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر فنعم الحصن والثغر، وإن قدرت أن يكون بحره تحت حكمك فهو أحسن لنظمتك، وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون وأحصن وأمنع منها وأمكن، كما يروى عن حصن الأركان.

يروى أنه وصف لكسرى أنوشروان أرضاً من التخوم الهندية تتأخم أرض بابل فذكرت له بحسن المنظر وطيب الهوى وكثرة الإثارة وكثرة العمائر وحصانة

1 - العنوان الوارد بين هلالين من إضافتنا.

المعقل، ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم وبلادة الفهوم وشجاعة القلوب وقوة الأبدان والصبر على العماراة وملازمة الطاعة ولين المقادة، فشرهت نفس كسرى إلى ملك تلك الأرض والتكثر بأهلها.

وكان يقال التره أغرق الخصال في اللوم، فالخريص أبوه الذي يلدّه، والبغي ابنه الذي يلدّه، والطمع شقيقه والذل رقيقه.

وكان يقال الشدة ينتجها طبع ويهيئها¹ طمع، فلما طمح أنوشروان إلى تملك تلك الأرض سأل عن ملكها فأخبر أنه عظيم من أراكنة الهند وأنه شاب منقاد لشهوته، مقبل على لذاته، إلا أنه سالك صراطا من العدل لا يجور ومالك منهلا من البدل لا يغور، إلى رافة برعيته قد اشترأت قلوبهم وده وصرفت آمالهم إلى ما عنده؛ فندب له كسرى رجلا من ثقات² أصحابه، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك، وتفقه من سياستهم، وكان ذا دهاء وفكر وصرامة ومكر؛ فأمره بتأمل مسالك تلك الأرض والبحث عن ثغورها ومعاقلها، وتطلب عورتها وتفقد أخلاق ملكها وأهلها، وكتب معه كتابا إلى ذلك الأركان يدعوّه إلى الدخول في طاعته ويحذره التعرض لصولته لمخالفته، فانطلق ذلك الرسول حتى قدم على الأركان فأكرم نزوله وبالغ في بره وتكرمه، وعمى عليه الأخبار وبالغ في بره وتكرمه وفي قبض الناس عن لقائه، فاحتجب عنه ولم يسترع الكتاب منه وندب إلى اختباره وعلم ما قصد له رجلا من دهات أصحابه فأمره بالتجسس عن أنبائه والتلطف في مداخلته ومخالفته، فانطلق ذلك الجاسوس، فاكترى حانوتا بإزاء دار الرسول وملاها فخارا وجلس فيه يبيع ذلك الفخار، وكان للرسول غلام يخف في حوائجه ويتصرف في مآربه، فجعل الجاسوس إذا رأى ذلك الغلام حشر إليه وأكرمه، وسأله عن ماله من حاجة إلى أن أنس الغلام، فكان يجلس إليه ويستعين به على

1 - في الأصل ينتجها طبع ويهيئها.

2 - كذا في الأصل والصواب النقاة.

أمره، فلبث بذلك مدة لا يسأله عن شيء من أمر سيده، فلما تأكد أنس الغلام به قال له يوما: من تكون ومن لك في هذه الدار التي تدخلها، فقال الغلام صحبتني مدة كذا وكذا ولا تعرفني؟ فقال الجاسوس وما: علمي قال له: أنا غلام رسول كسرى وسيدي في هذه الدار، فقال الجاسوس ومن كسرى ومن رسوله؟ فقال الغلام: كسرى ملك بابل أرسل سيدي إلى ملككم، فقال الجاسوس: قد عرفت حين ذكرت لي بابل، لأنني كنت في صباي أجيرا لرجل من أهل بابل.

ثم أمسك عن الغلام أياما لا يسأله عن شيء، (وكان يقال)¹ التنقير تنفير، وقيل التنفير يرتاب الأديب، وقيل من تسرع إلى المشاركة في السر فلا لوم على من اتهمه بالإذاعة، و(من)² تنصح قبل أن يستنصح فلا لوم على من اتهمه بالخداع، ومن عني بكشف ما استر عنه فلا لوم على من اتهمه بخبث الطباع.

ثم إن الجاسوس قال للغلام يوما إذا خرج مولاك أرني إياه، فقال الغلام: إن مولاي يتصرف، قال الجاسوس: أمرىض هو؟ قال الغلام: لا ولكن ملككم حصر عليه الخروج وعلى الناس الدخول، فبكى الجاسوس، فقال الغلام: ما الذي أبكاك؟ فقال له الجاسوس: أبكتني الرحمة لمولاك فيما هو فيه، لأني ابتليت بمثله؛ وذلك أني حبست مدة في دين كان علي، ومنعت امرأتي الدخول علي، فلولا أن الله من علي برجل كان محبوسا معي فكان يسليني بحديثه وأنسي لهلكتي غما، فهل تحدث مولاك وتسليه؟ فقال الغلام: إني لا أعرف هذا ولا أدري خبرا أطرفه به، فقال له الجاسوس: إذا خرجت من عند مولاك فطف في المدينة وتأمل ما تراه فيها، وإذا رأيت جماعة يتحدثون فأحسن إليهم واستمع ما يفيضون فيه، فإذا رجعت إلى سيدك وخلوت به فقل رأيت اليوم كذا وكذا، وسمعت من يقول كيت وكيت، فإن هذا تسلية له وأنسا من وحشة، ويوشك إذا بلغت ذلك أن تخطر به عنده،

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ففعل الغلام ما أمره به الجاسوس، فقال له سيده: من ذلك على فعل هذا؟ فقال له الغلام: أنا فطنت له ففعلته، فقال له سيده: كلا ليس هذا من قوى عقلك فاخبرني من ذلك عليه، فقال الغلام دلي عليه جار لنا يبيع الفخار ما رأيت أجهل ولا أبله منه، فقال له سيده ما الذي ذلك على جهله ولا أبله بل وبعله؟ فقال له الغلام: أنه صحي أكثر من شهر وهو لا يعرف من أنا ولا من سيدي، وذكرت له الملك كسرى فإذا هو لا يعرفه، فلما سمع الرسول ذلك استراب منه وأحس أنه متجسس عليه لما رأى أنه أفرط في تجاهله عليه.

وكان يقال: من أفرط فهو كمن فرط، ومن احتفل في علوه استغل عن علوه.
وكان يقال: ما دل على الأحوال ولا أهتك قناع العقول كسامع المقول.

وكان يقال: من لم تعرفك غائبا أذناه لم تعرفك حاضرا عيناه.

قيل: فلما سمع الرسول مقالة الغلام أمره أن يأتيه به ففعل، ولما رآه الرسول حقر ما كان ظنه به من كونه جاسوسا عليه فأكرمه وقربه وتظاهر له بغباوة وجهل لا مزيد عليها، وسأله أن يواصل زيارته فلبث الجاسوس متفقدا حال الرسول في ليله ونهاره مدة متراخية، ولما ظن ذلك الجاسوس أنه قد حصل على ما أراد علمه من أمر رسول كسرى ذهب إلى الملك فأخبره أن ذلك الرسول قدم غي لا ذكاء له ولا عنا عنده، وأكثر من أنه ذو نجدة وفراسة، فوثق الملك بقوله وتخيل الرسول بالصورة التي مثلها به الجاسوس عنده.

وكان يقال: لا يكن سمعك الأول مخبرا ولا نفسك لأول مجلس.

وكان يقال: إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب فالقضاء بأحدهما قبل الامتحان جور.

وكان يقال: إنما يقضى بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه، وشرح هو أن المخبر الصادق إذا لم يكن معصوما فهو عرضة للتليس وفرصة للتدليس وكون المخبر ثقة صدوقا إنما يعيد سلامة من التخويف فيما نقله ولا يفيد عصمة إدراكه

فيما أدركه؛ فقد ينظر الصادق العاقل إلى الشمس فيخبر بأنه أدركه سرعة سيره، وينظر في سفينة جارية إلى البر فيزعم أنه يجري، وينظر إلى أخبار الشعوذة فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويسمع كلام البغاء المحجوبة عن بصره فيخبر عن إنسان، فلم يدخل الخلل عن جهة تحريفه لكن من جهة إدراكه.

قيل فلما وثق الأركان بمقاله جاسوسه أحضر رسول كسرى فأكرمه وخاطبه بكل قول حسن وأخذ منه الكتاب وخلع عليه وأجزل صلته وردّه إلى منزله مكروما مبرورا، وأباح له التصرف وأذن لمن أراد قصده في زيارته، وتابع إتحافه وتكرّمه، ولبث بذلك عاما ثم استحضره وسلم إليه جوابه كتابة وأعطاه هدية إلى كسرى؛ يقال إن منها سيف طوله خمسة أشبار ولونه كلون النحاس الأحمر يعمل في الحديد كما يعمل غيره من السيوف في الرصاص، وصحفة من الياقوت الأزرق تسع مدا من الطعام، وكأسا من الزمرد البحري يسع رطلا من الشراب، وألف درة فريدة، وقنديلا من المها فيه ياقوتة حمراء كبيضة الحمام إذا علق في بيت فيه مصباح ليلا ألقى شعاع الياقوتة على الألوان القابلة للحمرة فلا يوشك في حمرة، وطيبا كثيرا، ودروعا، ودرقا¹، وغير ذلك.

وخص الرسول بمفاخر ذخائر، وغير ذلك، نفيسة وصرفه إلى مرسله عما ندبه، فأخبره بطيب تلك الأرض وفضل خصائصها وشرف مزاياها وحصنة ثغورها، وأنه لم يجد عورة تؤتى منه إلا عورة سكاكها؛ بأن قلوبهم متهيئة لقبول الخدع، محجوبة عن النظر في العواقب، وأن هذا موجب حسن طاعتهم لما لقوا طاعة، فلو ندب إليهم رجال يحسنون نصف الدعوات إلى الدول لاستمالوهم وصرفوا طاعتهم عن ملكهم، فإذا انصرفت طاعتهم لم يبق لملكهم بعد ذلك قائمة، لأنهم أعضاؤه الذين يصل بهم فيهم في الرخا ثمار مجتناة وفي البلاء سيوف منتضاة.

1 - درق: الدرقة: ترس من جلود، ويجمع على درق وأدراق ودراف.

الخليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 390.

فنظر كسرى فيما كتب إليه به الأركان فوجده قد خاطبه بالملاطفة، واعترف بفضلته وتملقه ورغب إليه في المودة والمواخاة، فاستشار أنوشروان وزراره في أمره وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمة، فاختلفوا عليه، فأجمع على أن يرد هديته إليه ففعل، ثم أنه ندب لاستفساد رعيته رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول، وأمدهم بالأموال وأزاح (عللهم)¹، وبين لهم مثالا يحذون عليه فنفذوا لما أمرهم به حتى انتهوا إلى مملكة ذلك الأركان فتفرقوا فيها وأعمل كل واحد منهم قوته فيما انتدب إليه، فلما أتى عليهم عاما واحكموا ما أرادوا من ذلك في دار مملكة الأركان وفي غيرها من مدنه وحصونه ورساتيقة²، وكتبوا إلى كسرى بذلك فجرى عليهم المرزبان المتولي بربع المملكة المقابل لتلك الجهة الهندية.

وذلك أن إقليم بابل كان مصروفا إلى أربعة مرازمة لكل مرزبان منهم ربع منه، ومع كل مرزبان منهم خمسون ألف مقاتل؛ فلما شرع ذلك المرزبان في الحشد والإعداد كتب عيون الأركان في تلك الجهة إليه يخبرونه بأن المرزبان المجاور لجهة بلاده قد أخذ في حشد الأجناد وتأهب الاستعداد، فعلم الأركان أنه قاصده ونجم النفاق ببلده وتحدث الناس بقصد المرزبان إليه وأكثروا الأراجيف، فانتبه الأركان من غفلته وبحث على الأمر فوقف على حقيقته.

وكان أمر مملكته يدور على خمسة رجال أربعة منهم وزراء والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة والذي يأخذون عنه دينهم؛ فجمعهم الأركان وعرفهم ما بلغه من فساد قلوب رعيته وحشد مرزبان لقصد بلده، وأظهر لهم الحاجة إلى كفايتهم، فجلسوا يتناظرون في ابتغاء صواب الرأي؛ فقال أحد الوزراء الأربعة: الرأي عندي أن يستصلح الملك رعيته فيملاً أيديها رغبات وقلوبها آمالا حتى يستقيم معوجها ويأنس نافرهما، فإن عدونا إذا علم ذلك جبن على الإقدام

1 - ماين حلالين من النسخة الحجرية.

2 - الرستاق معرب ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم والرزداق بالزاي والبدال مثله والجمع رساتيقة. الفيومي، م س، ج 3، ص 394.

علينا، وإن قدم لقيناه بكلمات مجتمعة وأيد متناصرة؛ فقال رئيس الزمازمة إننا يصلح هذا من الرعية لو كان فسادها إنما أوجبه هضم جور وفساد سيرة، فيزال عنها سبب فسادها فتصلح، وليست رعية الملك بهذه الصفة وإنما أورد عليها الفساد لجهلها بموانع الصواب وبطرها لترادف النعم، وقد قيل أربعة إذا أفسدهم البطر¹ لم تزدهم المكرومة إلا فساد الولد والزوجة والخادم والرعية، وضربوا لذلك مثلاً القوى الأربعة المردولة إذا هاجت لتعدى حدود المصلحة وهي: الغضب إذا تعدى حد الشجاعة، وحد الأنفة من الرذائل والشهوة إذا تعدت حد راحة العقل من حد اكتساب الفضائل، والحرص إذا تعدى حد الكفاية، والكسل إذا تعدى حد راحة الجسم من حد اكتساب المصالح؛ فإن هذه القوى الأربعة إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المدارات والرفق إلا هيجاناً وطغياناً، وإنما تعاني بجسم مرادها؛ فقال الملك: صدق الحكيم، ثم قال وزير آخر من الوزراء الأربعة: الرأي عندي أن نصرف بما صلح من الرعية من فسد منها حتى تستقيم وتستوثق لنا، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله²، ولا نحذر غشه لأننا مضطرون إلى الحرب لكون عدونا لا يرضيه، الأخذ ما بأيدينا جملة، فقال رئيس الزمازمة: هذا انفع لعدونا من جيشه وادعى إلى طاعته من دعائه، مع أنه إذا علم بخبرنا فيما بيننا وتناصفنا ذهب هيبتنا من نفسه، وبلغ فينا أمله.

وقالت الحكماء أربعة من استقبلها بالعنف والردع في أربعة أحوال هلك بما: الملك في حال غضبه، والسييل في حال مرمرته، والفيل في غلمته، والعامه في حال هيجانها ومرجها. وقالوا: إن شبه شيء يردع العامة عند ثورها وهيجهها معاناة الجدرى في حال انبعائه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة؛ فقال الملك صدق

1 - البطر: يقال: بطرت عيشتك، والبطر أيضاً: الحيرة والدعش. وأبطره، أي أدهشه. وأبطرت فلاناً إذا كلفته أكثر من طوقه.

الجوهري، م، س، ج 1، ص 46.

2 - الدغل: الخيانة، قال ابن دريد: الدغل اشتباك النبات والتفافه، ويقال: مكان دغل ومدغل، ومنه قيل: أدغل الرجل يدغل إدغالا فهو مدغل، إذا فسد قلبه وخان. ابن دريد، م، س، ج 1، ص 359.

الحكيم فقال وزير ثالث: الرأي عندي أن تطلب أولا تعيين من فسدت طاعته من الرعية فميزه ممن سواه، ثم نرى رأينا فيه بما يقتضيه حاله من قلة أو كثرة أو انباهة، أو ضعف أو قوة، فنقابله بما يوجب حاله من التدبير؛ فقال رئيس الزمازمة: البحث على هذا خطر عظيم، لأنه يوحش المريب فيحركه على اللحاق بعدونا، (وإذا لحق بعدونا)¹ قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا، وبذل جهده في العودة إلى وطنه وأهله وماله، وعدونا لا يقاتلنا على مثل ذلك وربما لم ينفصل عنا المريب بل يقاومنا بموضعه، ويكاشفنا ويتكاثر علينا بشكله من الرعية فتنصره، وإن لم يكن على مثل رأيه بقلة مشاكله، كما أن الكلبين لا يمنعهما تعديهما وتمازجهما من التعاون على الذيب إذا أبصره، ولا يلتفتان إلى تحقق الذيب في الخلق الكلي ولكنهما ينافرانه ويصطلحان في التعاون عليه نظرا إلى تخصيص توحشه وأنفته وجراته، فكذلك العامي لا ينظر إلى الملك من حيث تحققه في الخلق الإنساني بل ينظر إلى الملك من حيث خصيصي تفرده وأنفته وعلو همته فينافره لذلك ويألفه العامي الذي شاكلة في الأخلاق بقلة المشاكلة؛ وقد قالت الحكماء: ثلاثة إن لاشفتهم بالامتحان في ثلاثة أحوال خسرتم: امرأتك في حال استقلالك، وصديقك في حال اختلالك، وامرأة في حال اكتهالك، والرعية كالزوجة وإدبار الملك كالاكتهال.

وقالوا مثل ذلك: امتحان قوى معدتنا من الأمراض بالأطعمة الغليظة ، فقال الملك: صدق الحكيم ، فقال الوزير الرابع: كان أوسعهم علما وأفضلهم رأيا أما أنا فأحدث الملك حديثا أخبرني به مؤدبي وكان من آخر ما أفادني به، وقال لي: اخزن هذا الحديث في حبة قلبك ولا تتمن أن تعيش إلى اليوم الذي تحتاج فيه إليه (فيه)²، وإنى لأحسبه هذا اليوم، فقال الملك: قل نسمع لحديثك، فقال: رئيس (الزمازمة)³

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - ما بين هلالين مكررة في الأصل.

3 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ما أولاه بالإصابة؟ فقال الوزراء الثلاثة: إنه لكذلك، فقال الوزير الرابع: إنما الزمازمة كأصابع الراحة في افتقار بعضها إلى بعض وقوة بعضها ببعض، وإنما نستمد الدراري من نور الشمس، فكلنا إلى الملك نحتاج، وبه نقتد، فقال الملك: قل يا أيها الوزير الصالح فالقبول والكرامة لك ولن نتب عنه فأنتم في مناصحتنا والغنا عنا والأداء إلينا كالحواس الخمس للقلب، فسجدوا له أجمعون، ثم قال ذلك الوزير الرابع: زعم مؤدبي أن رجلا موسرا من التجار كان يأوي من داره إلى بيت مبطن السقف وفيما بين السقف وبطانته فئران كثيرة فكن فيما شئن وادعين من الأمانة وتيسر الطعمة يخرجن النهار كله على حال طمأنينة فإذا جاء الليل نزلن من السقف فتفرخن من مخازن التاجر ومساكن عياله فأكلن واحتملن فكثر أداؤهن على التاجر، وأنه يدخل يوما مسكنه ذلك فاستلقى فيه مفكرا في بعض أموره وجعلت الفئران تموج على بطانة السقف والتراب يتساقط من خلل الألواح فضجر التاجر ونحس مبادرا فأمر بتحويل ما في البيت من الأثاث ثم أمر عبيده فوضعوا بطانة السقف، وانتشر الفئران في الدار فقتلن شر قتلة ولم ينج منهن إلا جرد وفارة كانا غائبين عن السقف، فلما رجعا وأبصرا فساد وطنهما ومصارع الفئران في جميع الدار أغمهما ذلك، وأقبل الجرذ على الفأرة فقال لها: صدق القائل من صحب الدنيا واثقا بما كان كالقائم في الظل الذي يكون فيه قبل بلوغ الشمس إلى نصف دائرة فلکها الأعلى فيقلص الظل بتصويب الشمس فيوقظه حرها ولا يجد للظل عينا ولا أثرا، فقالت الفأرة: صدقت فماذا ترى؟

قال الجرذ: أرى أن لا أسكن بموضع ينال منه هذا المنال وأفر من الأنس جهدي، فإن سخطهم شديد وحيلهم أقوى من قوة غيرهم من العالم، فقالت الفأرة: وأنا معك؛ فانطلقا حتى أتيا أرضا فرءا¹ جرداء ذات أخلاط من الوحش تكتنف واديا معشبا فيه غرر وماء ذات ضفاديع وسلاحف فأعجبهما وسارا في

1 - فالحجرية كتبت كلمت برازا بدل فرءا.

والوادي يلتصقان موضعاً يحتفران فيه جحراً وانتهيا إلى ربوة عالية في وسط ذلك الوادي قد أنجب عنها سيل الماء فيه يمينا وشمالا فاحتفرا في أصل تلك الربوة، فرأيا في أعلاها يربوعاً قد علت سنه على باب جحر له، فرحب بهما وحادثهما وسألهما عن أمرهما، فأخبراه إلى أن ذكرا أنهما قد أوطنا جحراً في أصل تلك الربوة، فقال لهما اليربوع لولا أن النصيح كثيراً ما يدعو إلى التهمة لنصحت لكما، فقالا له: ما أحوجنا إلى نصحك، فقال: أربعة لا يقدم عليها حتى يسئل عنها الخبير بما: السوق لا تقدم حتى تسئل عليها النافذ والكاسد فيها، والمرأة لا تقدم على خطبتها حتى تسئل عن منصبها وخلعها، والطريق لا تسلكها حتى تسئل عن أمنها وخوفها، والبلدة لا توطنها حتى تسئل عن مرافقها وسيرة سلطانها وأخلاق أهلها وقوة من يكيد أهلها ويعاديه.

وكان يقال: انظر إلى المنتصح فإن أذاك بما يضر غيرك ولا ينفعك فاعلم أنه شرير، وإن أذاك بما ينفعك فاعلم أنه طامع، وإن أذاك بما ينفعك ولا يضرك فأصغ إليه وعول عليه. وكان يقال: إذا لم تعن ناصحك كان ناصحاً كمن يريد تقويم كل عود قد نصب معوجاً قبل أن يقوم العود في منصبه؛ وكان يقال: أشد ما في عالم الأخلاق التعاطي، لأن التعاطي يريد المتخلق به شراً ويعرضه في مواسم الحرى¹؛ وهذا كالضعيف يتعاطى القوة، وكالجاهل يتعاطى العلم، وكالفقير يتعاطى الغنى.

وكان يقال إذا احتجت إلى المشاورة في أمر ما فشاوِر أولي الحنكة والتجربة من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجاً عن عالم خصائصك؛ واعلم أنه جمعنا وإياكما مناسبة مناعية وهي حفر الحجارة إلا أني في علمها أرسخ منكما فانتقلا عن جحر كما فإنه بئس الجحر من شر الأوطان وأنا أبر نجدة هذه الأرض، وقد قيل: قتل أرضاً خابرها، فتحولاً عن ذلك الجحر واطلبا سواد، فخرجنا من عند

1 - الحرى: فعلى من الحر وهي تأنث حران وهما للمبالغة يريد أنهما لشدة حرهما قد عطشت ويست من العطش. الزبيدي، م، س، ج 1، ص 2629.

اليربوع يهزأن به ويسخران وينسبانه إلى الهرم والخوف ورجعا إلى جحرهما، فلبثا مدة طويلة وولدا فيه أولادا ثم إن الجرذ خرج يوما من الأيام فأوغل في تلك الأرض لبعض شأنه ثم عاد قاصدا إلى الربوة فإذا السيل قد جرى في تلك الوادي ينظر متحسرا لفساد وطنه وهلاك ألفه وولده وذهاب ما أعد من طعمته، فرأى اليربوع قائما على الربوة ءامنا، فناده اليربوع أيها: الجرذ كيف وجدت ثمة إضاعة الحزم ومعصية الخير الناصح؟ فقال الجرذ: وجدتهما مرة، فقال اليربوع للجرذ: هون عليك واخلض من حسرتك فإن النعمة في بقاء نفسك تربي على المعصية بأهلك و ولدك، فأنس النعمة بالشكر تألفك فتسمع بما؛ وأنه كان يقال: اظهر الشكر لثلاثة: للصديق والغريم والنعمة؛ وكان يقال إذا أحسن إليك محسن ثم ينكر لك وأصابك بمساءة فلا تنقبض عنه ودم على شكرك له وبرك به، فإن ذلك أوجه شفيح لك عنده؛ وكان يقال: (الحر لا تذهله)¹ إساءة من كان أحسن إليه عن شكر إحسانه السالف عنده؛ قال اليربوع: ما كان أشقاني أيها الحكيم بمعصيتك والبر عنك؟ قيل: ينبغي للعاقل أن يصحب العلماء المهذبين بالحكمة والأدب؛ ولو كنت ذا بصيرة لعلمت أنك أيها الحكيم لم تكلف نفسك صعود هذه الربوة الكرذ وهبوطها على ضعف بدنك وكبر سنك إلا لأمر اقتضته الحكمة وأوجه الرأي المصيب، ثم إن الجرذ أمهل حتى ذهب السيل فصعد الربوة واتخذ جحرا إلى جانب اليربوع فأوطنه ءامنا قرين العين؛ فهذا ما أخبرني به مؤدبي. فقال الملك: صدقت أيها الوزير الناصح قائلا، وسددت ناصحا، وأصبت مشيرا، وتلطفت مبلغا، ودعوت سيفا فالتمس لنا ربوة ترضاها لاستقرارنا، نلزم نفسنا الصبر على صعودها، ونقصر على ما فيها على مألوف ملاذها وانبساطها في هذا العالم الخبيث إليها، فلعلنا أن نحتني السلامة التي اجتناها اليربوع من سهل هذه الفتن، فقال اليربوع بل الوزير: أيها السعيد المبدي بالنفوس الزكية عشت ما بدا لك أن تعيش ونلت ما املت فما أعجب قبول لما تهديه إليك من نعمك وتجلوه عليك من

1 - ما بين هالين نقلناه من النسخة الحجرية لعدم وضوح العبارة في الأصل.

حلمك، وإني لا عرف في ناحية من الأرض معقلا تطل فيه على أهل الأرض
إطلال زحل على الكواكب، يعال دونه الأبصار اللائحة، والأفكار الطامحة، وهو
مع ذلك ذو هواء عليل، وماء سلسبيل، وحدائق باسقات، ومرافق متناسبة، كان
بعض سلف الملك السعيد عنا¹ به بعض العناية، فقطع عليه أمله الدثور المحتم القاطع
عقود الحياة؛ قال: فلما سمع الملك ما دله عليه وزيره ملكه سرورا، وركب من
فوره في خاصته وتقائه حتى انتهى إلى ذلك المعقل الذي دله عليه وزيره فوجده في
رأي العين أفضل مما صورته الوزير في نفسه ووجده رسوما واثقة وآثارا أثرها بعض
من تقدم من آباءه، فحشد إليه المهندسين والبنائين والعمال وأمرهم بالجد في
إكماله، وبادر من فوره فنقل إليه خواص بيوت أمواله وخزائن سلاحه ونفائس
ذخائره، وحشد رعيته يحملون الأرز إليه فأودعه من الأرز المقشور وغير المقشور ما
ظن أن فيه كفاية؛ وذلك أن الأرز الذي لم يقشر طويل البقاء واعد لتروله عدة،
ومع ذلك يسد الثغور ويجند الأجناد ويشيد الحصون، فلما مضت له ثلاثة أشهر
من يوم كتب له جواسيسه بحركة المرزبان (وحشده اقتحم المرزبان ثغوره في
الجيش المتوافرة والعدد الكاملة وظفر دعاة كسرى بتلك الناحية فيمن استفسده
من الرعية فغلبوا على ما يليهم من البلاد واستعمل المرزبان² عليها عمالا من
ثقات أصحابه ورتب فيها حمايات من جنوده ومن أهلها، ثم دنا يطوي الأرض
فوافقه جيوش الأركان فدافعه بعد الدفاع ثم انهزم من كان في نفسه دغل، فانهمز
المناصحون بالهزائمهم.

استولى المرزبان على عسكرهم واستبقى النفوس وأخذ الأموال ثم تجاوزهم
يطوي المملكة طيا.

1 - كذا في الأصل وفي النسخة الحجرية: عنى، وهي أصوب.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

وكان الأركان عندما افتتح المرزبان ثغوره قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل وجمع وجوه قاطني حضرته فوعظهم وذكرهم ما سلف من إحسانه إليهم وذكر ما بلغه عنهم من فساد الطاعة، وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المسن منهم، فتصلوا مما اعترفوا به عنده، وحلفوا على استقامة طاعتهم وصدق مناصحتهم، فقال لهم الملك: إني لم أجمعكم لهذا ولست بناكل عن وعدي ولا بمستعد لأظفر به، والنصر عليه، ولا بمعين تهمة أحد منكم غير أني أخبرني بعض وزرائي عن ملك من سلف أنه شرع في بناء معقل وعنى به بعض العناية فحال بينه وبين إتمام ما أراد من ذلك الأجل المحتوم على عالم التركيب فحملني على تكملة ما شرع فيه جدي - قول الحكيم إن أبر الملوك من تم به سعي سلفه وأعقهم من انقطع سعيهم عنده - ثم إني أحبيت أن أجعل ذلك الحصن من عديدي وذخائري، لقول الحكماء: إن أحزم الدعاة من أراد لجميع قضايا العقل أحكاما، وقولهم: يجب على الملك أن لا يخلو عن خمسة معاقل يتحصن بها، أحدها: فرس سابق يتحصن بظهره، والثاني: سيف قاطع يتحصن بجده إذا غشي، والثالث: وزير صالح يتحصن برأيه، والرابع: امرأة حسناء يحصن بها فرجه، والخامس: قلعة منيعة يتحصن بظهر لها إذا احيط به؛ فاتخذت هذا المعقل لأكمل به حصوني، ونقلت إليه ذخائري، وما يكرم علي، فمن رأى منكم أن يقتد بي في فعلي أخذ بالحزم فليفع.

ولما فرغ من مخاطبتهم إذن لهم فخرجوا من عنده فاقتدى به منهم من كان ذا عقل (وخبرة وتجربة بالأمر فجهزوا إلى)¹ ذلك المعقل أهلهم وأموالهم وأقاربهم، وأما المرزبان فإنه سار في تلك المملكة يطويها طي البخل ألا يقاومه جيش إلا هزمه حتى أشرف على حضرة الأركان فتزل على فرسخ منها وتحيب للإقدام عليهما، وقد كان الأركان أمر الناس بالخروج إليه، فخرجت أمة عظيمة وخرج الأركان (في)² أربعة آلاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقات أصحابه، فقام بهم في معزل عن

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

جيوشه ورعيته بظاهر المدينة وعباً فيوله ورتب صفوفه وكان في (المدينة)¹ داعيان من دعاءت² كسرى فاغتتما الفرصة واحتبلاها عند خروج الملك عن المدينة فظهرها واتبعهما من كان أطاعهما فوثبوا بخليفة الملك على المدينة فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها.

وبينما الملك قائماً بجنوده في ظاهر المدينة أتاه رئيس الزمازمة حافيا حاسرا فلطم وجهه ومنتف شعره، فأمر الملك بحمله معه على فيل واستخبره فأخبره بذهاب دار ملكه وخيانة رعيته، فانحاز الملك بخاسته ومن كان على بصيرة في طاعته وتوجهوا حامية نحو الحصن.

وانتهى خبره إلى المرزبان فجرد خيلا لأتباعه فأدركوه فوقف بإزائهم من كفى أمرهم وسار حتى دخل حصنه، وأما المرزبان فقصد³ المدينة ودخلها وضبطها وأحكم أمرها، ثم سار في جيوش إلى ذلك الحصن فرءا منظرا عظيما ومعقلا ممنوعا مانعا ولم يمكنه التزول بالقرب منه، فنكص إلى حيث أمر ونزل في جيوشه متحفظا، وكتب إلى الملك الهندي كتابا يخاطبه فيه بالتعظيم والإجلال، ويعرض عليه خصالا منها: أن يرده إلى مملكته مكرما موفورا على أن يدين بطاعة كسرى ويدخل في دينه، فلما انتهى رسول المرزبان إلى الملك الهندي حجبه ولم يأخذ كتابه، وأمره بالعود إلى مرسله، فيئس المرزبان منه؛ وكان يقال: صفرك البصر إلى عدوك إضاعة وإصغاؤك السمع إلى حديثه طاعة.

وكان يقال: إذا أمكنت عدوك من أذنك فقد تعرضت للغرق في بحره، والحصون في وهن سحره.

وكان يقال عجباً لمن يصغي إلى عدوه سمعا وهو لا يرجو عنده نفعا.

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - كذا في الأصل والصواب: دعاء.

3 - أضفت حرف الفاء إلى كلمة "قصد"، لمناسبته السياق.

وكان يقال إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فأنت عن التحصن من كيده أعجز؛ ثم المرزبان عاد إلى المدينة وكتب إلى كسرى بالفتح وبما تمياً له وعليه من الأمور؛ فكتب إليه كسرى يأمره أن يقيم بتلك البلاد أي المملكة ويترك التعرض لذلك الأركان في حصنه إلا أن يبدو¹ له منه فساداً وأن يركن العيون عليه، ويقيم المصالح في جهات حصنه؛ ففعل المرزبان ما أمره به كسرى، ولبث بذلك مدة، وجعل (أعتام)² الفرس يعبثون في تلك المملكة ويعاملون أهلها بالغضاظة والقسوة التي طبع أهل الهند على ضدها؛ فربت الشحنة في النفوس ودخلت أهل تلك المملكة الغيرة لما رأوا أن خراج أرضهم يحمل إلى غيرها، وينفق في غير أهلها، وعرفوا فضل ما كانوا فيه مشقة ما صاروا إليه، فبسطوا ألسنتهم؛ وخاف المرزبان أن يردعهم عن القول فيستوحشوا منه، فكف عنهم؛ فكان ذلك داعية إلى زيادتهم في بسط الألسنة؛ وكان يقال أيدي الرعية بيع لألسنتهم فإذا قدرت إلى أن تقول قدرت على أن تصول. وكان يقال ترك تكثير الصغائر مدعات إلى الكبائر فأول نشوز المرأة كلمة سر بحياتها، وأول حرز الدابة جبدة ساعدت عليها.

قيل وأما الأركان فإنه لما استقر في حصنه شاور وزراءه فأشاروا بالصبر، وكف الأذى، وبسط العدل والإحسان، وتأميل السيل، وإجارة المستجير، وتأليف المتوحش، والأخذ بالفضل والعفو؛ فاتخذ هذه الخلال شرعاً يدين به فازدادت سمعته حسناً، والقلوب إليه ميلاً، والألسنة له شكراً.

واتفق أن عاملاً للمرزبان على ثغر من تلك الثغور أساء السيرة فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمله فوعظه ونصحه، فكره العامل ذلك وكتب إلى المرزبان يزعم أن رجلاً من أهل عمله يعارض أمره ويؤلف العامة عليه؛ فكتب إليه المرزبان أن يحمل إليه مقيداً، فأخذ العامل الرجل فقيده وبعث به إلى المرزبان مع رجال،

1 - في الأصل يبدأ، وأظنه تصحيحاً.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية ، في الأصل اعنا، وهذه الكلمة غير واضحة.

فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر و فتاكهم فقتلوا أولئك الموكلين بذلك الرجل وأطلقوه، فأتى الرجل إلى العامل فأخبره بما فعل أولئك الأحداث وأنه عجز عن دفعهم، فأمر به العامل فضربت عنقه، وكان ذلك الرجل ذا منزلة عند أهل بلده فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله، وضبطوا ثغرهم، وانطوى إليهم من كان على مثل رأيهم ومن كان في غير حصن، وكاتبوا من يليهم فأجابوهم إلى مثل ما صنعوا وطرّدوا عمالهم، فانتهت الطاعة لكسرى في مواضع كثيرة من تلك المملكة في أسرع مدة.

ولما انتهى ذلك إلى المرزبان جمع جنوده وضبط حضرته على حال ذعر وتوق شديد، وكتب إلى كسرى يستمده، وكان أهل حضرته عندما خرج عنهم رئيس الزمازمة وتوجه مع ملكهم إلى حصنه، قدموا مكانه خليفة، وكان مرضيا عندهم، فلما رأى ما هو فيه المرزبان من الذعر والتوقي، وقصده من خلفه بالحنة والعقوبة، دخل عليه على المرزبان فقال له: إني أريد أن أسألك عن أمر ظننت علمه عندك، فقال له المرزبان: قل، فقال له: بلغني أن مما أوصى به اردشير من بابكم ملك بابل أنه قال قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى ما لا تريد من المعصية، وأنه قال في وصية: ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه ربه أن يحفظ تلك الصورة والشريطة التي تسلم عليه تلك المملكة، وأنه استخرج من يده مثل ما صارت إليه، وقيل لي: إن هذه الوصية كانت مكتوبة في مجلسه بأزياء سريره وموضع قضائه، ففهم المرزبان ما أراد إلا أنه أحب الوقوف على حد ما عنده، فقال له الوزير: الأمر على ما بلغك أيها الشيخ، فقال رئيس الزمازمة: إن كان الأمر على ما بلغني فما لك لم تستعمل الحكمة التي علمت وعنفت في سياستك الرعية عنفا أخرجها، ولعله أن يخرجها ولم تحذر خروج هذه المملكة من يديك بمثل ما صارت إليك.

فلما سمع المرزبان مقالة رئيس الزمازمة انتهره وتهدده، وكان شيخا ضعيفا البدن كبير السن فسقط إلى الأرض مغشيا عليه، وحمل إلى منزله فمات بعد أيام، فعظمت المصيبة بموته وساءت المقالة، وتشمخت الأنفس من الشقاق بما كانت

منقبضة عنه، وفشا ذلك في الرعية فشوا تاما فاستحضر المرزبان وجوه من بحضرته فوعظهم وحذرهم بطش كسرى ورغبهم في العافية، فأرضوه بألسنتهم وتسللوا عليه، وغلظ أمر الأطراف المنتفضة وشغل عنهم المرزبان بتحسين البيضة، فبعثوا رسلا إلى الأركان الذي كان ملكهم يستلونه الصفح عنهم، وأن يبعث إليهم رجلا يتخيرون إليه فأعطاهم أمانا عاما واستعمل عليهم عاملا فألقوا إليه المقاليد واستبصروا في طاعته ونصحوا في الذب عنه، واضطر المرزبان إلى أن بعث إلى جيش فبعث فعادوا منهزمين مفلولين، ولم يجد بدا من الخروج إليهم بنفسه فحضر دار الملك واستخلف عليها من ظن أنه يضبطها، وخرج منها متوجها إلى عدوه، فلما فصل عن المدينة وثب أهلها بأصحابه فاستوعبوهم قتلا وتشريدا وأحرزوا مدينتهم.

وبلغ ذلك المرزبان فاستمر لوجهه خارجا عن تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريدا مفلولا.

وعاد الأركان إلى دار مملكته فجرى على سنن العدل والأخذ بالحزم وقمع شهواته واستعمل الحكمة التي أفادته التجارب إياها.

فاتخذ يابني مثل هذا المعقل حصناتل به أمنية وأمانا كما قال الأركان حين أوى إلى حصنه وركب ————— ن.

الأمر الثاني: الجواد

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تختار جوادا من خيار الخيل وعناقها وكارمها وسابقها، كامل الخلقة، معتدر الحركة والمشية، لا يكل من السير، ولا يسئم من الجري، كالطير إذا غار وإذا سار، لا يعارض في التسيار وإذا جرى لا يسبق، وإذا طرد لحق، أسبق من السهم، وأسرع من الوهم، تعده للمهمات وتدخره للشدائد والمللمات.

الأمر الثالث: (توفير الذخائر)¹

اعلم يابني أنه ينبغي لك ألا تفارق ذخيرة من الذخائر تجدها في زمن المناكر، والمناكر مما على ثمنها وخف حملها كاليواقيت والجواهر الثمينة العظيمة التي لها نفاسة وخطر وقيمة لأنه ربما اعتراك (أمر من أمور دنياك فتجد تلك الذخيرة تدافع بها ما أهمك واعتراك)² وتصادم بها أعدائك وتقيم بها أودك وتصلح بها أمرك فإن اقتناء الذخائر معونة على الشدائد والضرائر.

الأمر الرابع: (اتخاذ وزير متوفر على المواصفات المطلوبة)³

يابني أنه ينبغي لك أن تتخذ وزيرا على ما وصفناه محتو على ما قررناه، تجده (معينا)⁴ في الشدة، أنيسا في الوحدة، يقصد في مرضاتك المهالك، ويسلك بك أحسن المسالك، لأنه قد تمرن بالأسفار، وجرب الأمور بالاختبار، وعرف مخادع الطرق ونواحيها، وسار في أقاصيها، وأنت غير عارف بالطرق وتشعبها ومخادعها وخبياتها، فلهذا يجب لك اتخاذ الوزير الصالح المشير الناصح.

الباب الثاني: (اقسام أعداء الملك)⁵

اعلم يابني أن العدو بالنسبة إلى الملك على ثلاثة أقسام: عدو أقوى منك، وعدو أضعف منك، وعدو مساو لك.

القسم الأول: أن يكون العدو أقوى منك

اعلم يابني أنه إذا كان عدوك أقوى منك فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات، وتستميل قلبه بالمراسلات، وتسايسه برأيك ومالك، وتصانعه في جميع

1 - ما بين حلالين من إضافتنا.

2 - ما بين حلالين من من النسخة الحجرية.

3 - ما بين حلالين من إضافتنا.

4 - ما بين حلالين من من النسخة الحجرية.

5 - ما بين حلالين من إضافتنا.

أحوالك، ولا يجب عليك أن تدافعه بنفسك؛ لأنه ليس من دها بك إلا من كيسك.

فمن رأيك الذي يندفع به عدوك ويرجع به سموك أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو ويرقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحواله، لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً، يسألون عن أحوال العدو سرا وجهراً؛ فكلما رام هذا العدو خداعاً وأظهر فيك أطماعاً جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسرار؛ فتأخذ في قوام مدافعته إما بحيلتك أو بمصانعتك، وذلك بقدر حزمك وجدك وسياستك وكيدك، وذلك بأن تكتب كتاباً إلى عدوك ووزرائه وخاصته وأهل رأيه تعدهم بإحصاء الأموال والزيادات الكثيرة من الأفضال، وتعاملهم بالتعطف والسياسة والتلطف، حتى تخدعهم بمالك وتستميل قلوبهم بنوالك، فإن صحت معاملتك بإعطاء الأموال ونلت بغيتك في كل الأحوال سكنت عدوك من علوه وحططته من سموه، وإذا لم تقدر على دفع عدوك بما ذكرناه ولا تجد في خاصته من يقبل مأثورة بل يردده ويأباه فتتحيل بوجود الحيل لتنال من عدوك غاية الأمل، وتأخذ بضروب من المخادعات لا بالأعطار ولا بالمصانعات، فرب حيلة أنفع من قبيلة ومنها أن تزور كتباً تعدها أجوبة، وتزخرفها بزخارف معجبة، وتبدع في تزويرها وتحسن في تصويرها كأنها وردنا عليك من خاصة عدوك، تظهر بما غاية سلوكك فتقرأ¹ حامل خاصتك الأقربين وتعلمهم أن خاصة عدوك في جانبك محبين، وأن خواص العدو قد كتبوا إليك بما يعود بالمنفعة عليك فيشيع ذلك بين خواصك الأخيار، ويناولها أهل الحضرة الحظار، وفي هذا مكرة عجيبة وحكمة بدیعة غريبة وذلك أنه إذا سمعه غير الحب في جانبك تغير في نفسه وأشرف في حسه، فإما أن يحمله البغض على أن يكتب للعدو ويعرفه بما عليه خاصته من البغي والعتو والفساد بين العدو، والخاصة إذا طلع على هذا الكتاب

1 - هكذا في الأصل، والصواب: تقرىء.

المصفي لافته، وإما أن يخاف المبغض على نفسه فلا يكتب إلى الأعداء فيقطع عنك أمر هذا الداء، وفي هذا مصلحة في كلا الوجهين، وقطع المادة من الجهتين.

فإذا قرأت هذه الكتب المزورة على خاصتك بما أردت ودبرت من مصلحتك أمرت بالجواب عليها بما يناسبها وينضاف إليها منها أن تضمن لهم ما طلبوا في كتبهم وتعين لهم ما عينوه من مطلبهم، ويضبطها كاتبك بأمارات كأنها حق عند السامع، وصدق تفرح السامع، وتبعث هذه الكتب صحبة من يبلغها إلى العدو.

وكيفية ذلك أن يكون يابني قريب من دخلتك تستخله لنفسك برسم أسرارك وخدمتك تجعله يكتب للعدو ويريه الخدمة والنصيحة له ليلغى ذلك العدو أمله، ويأخذ معه على ذلك الموائق والعهود ويبقى على حالهما المعهودان¹ لا يطلع أحد على سره، ويحكم عليه سريرة أمره، فإذا فعل ذلك فلا بد للعدو في أوقات معلومة وحركة محزومة، حتى يأنس للعدو لذلك ويرى أنه سلك في خدمته أحسن المسالك، ويكون هذا القريب منك يكتب للعدو بأمور لا تضربك، فإذا استمر الأمر بينهما على هذا الحال واتصلت بينهما الأرسال فتكون أنت تطلع من هذا على أسرار العدو، ومن قبل الكتب الواصلة إلى القريب بما يحدث عند العدو من أمر غريب، ويكون أيضا حامل الكتاب وهو السفير يطلعك على أحوال العدو القليل منها والكثير، حتى إنك تشاهد حاله عيانا، ويخبرك مشافهة وامتحانا؛ فحينئذ تعطي الكتب التي زورتها جوابات لمن يوصلها إلى خاصة العدو وبما سطرت فيه من الأمارات، ثم تأمر ذلك القريب أن يكتب كتابا للعدو يعرفه بأنك قد كتبت لخاصته كما استمر معك على عادته، ويصف له صفة رجالك المصروفين بكتبك المعدودين لأربك، وتقدم بهذا الكتاب إلى العدو رجلا وتأمره أن يصل قبل حامل الكتب المزورة، فلا يمكن للعدو حينئذ إلا البحث عنهم ليتمكن منهم فيجلس لهم في الأبواب فيأخذهم في كل، فتكون الكتب المزورة سببا في وقع

1 - هكذا في الأصل، والصواب: المعهودين.

الشتات بين العدو وخاصته الثقات، فإنه لا بد أن يتخيل العدو بسببها ويجد في نفسه شيئاً يحمله على طلبها، فيأخذ العدو على خاصته الخنو ويزيد في الأكتاب والرمي فيعلمهم بما صدر من أحوالهم وما اترده من قبيح أفعالهم فتدعوهم الضرورة إلى الإيمان الشحنة بين الخاصة والسلطان فيكون العدو حذراً من خداعهم فتدعوهم بل والخاصة غير ءامين لسوء اصطناعهم إن لم يعجل بعقوبتهم في الحال، وإن عجل بعقوبتهم بلغت فيهم الآمال.

وهذه مكيدة مردتها¹ للعدو بالفساد وقاضية عليه بالشتات والنكاد.

وبذلك يابني احتلنا على موسى بن إبراهيم اليرنياني حين أراد أبو سالم أن يستوزره وقربه كما كان عند أبيه ويكبره، وقد كان من وزراء أبيه المعبرين، وممن يسوس هو وأبوه دولة بني مرين، وكان من أهل الدهاء مشتهر بالحيل والآراء، ولم يبق من وزراء أبي الحسن دهي منه في أمر ولا اكتفى منه في مكر، فاتفق أن يرسل أبو سالم إرسالاً يرسم المكيدة إلينا والخديعة علينا فرددنا مكيدتهم عليهم، وقلبنا خديعتهم إليهم، وكيفية ذلك: ان استعملنا عليهم كتباً مزورة على لسان الأمير عبد الحليم بن أخي الحسن وسلطنا فيها كل مسلك حسن مضمونها: أن موسى بن إبراهيم المذكور ممن دان بطاعته وانخرط في سلك جماعته، وأنه تحدث في علي أبي سالم والاحتياال عليه، وأنه تحالف مع عبد الحق بل الحليم وركن إليه، واستعملنا إرسالاً أشعنا أنهم تومروا عند عبد الحليم، وهي التي زورناها واستعملناها أعني الخبر بها، ودبرناها فعرفنا بذلك إرسال أبي سالم الذين كانوا عندنا وأحضرناهم في خفية حتى سمعوا نص الكتب المزورة فعادت قلوبهم بهذا السبب متغيرة، وأشعنا الخبر بذلك وسلطنا في ذلك أحسن المسالك، فلما انفصلوا ووصلوا إلى مرسلهم أبي سالم أعلموه بما سمعوه وما من نص الكتاب علموه، فلما سمع أبو سالم ما ذكر له إرساله فسد معه لهذا الخبر حامله، وتسبب في أخذ موسى بن إبراهيم المذكور،

1 - في الأصل: مردته.

وانقبض عليه فأخذه بعد أن تسبب إليه فنكل به وحبسه ووبخه ونكسه، ففر ولده محمد السبع بن موسى إلى عبد الحليم لما قبض على والده، وتشتت شمل جمعهم بما تحب النفس وتشتهيه، ومازال السبع يكتب إلينا رغبة في خدمتنا ويتعرف أنه متمسك بجبل ذمتنا، وأنه راغب في الدخول في طاعتنا والانخراط في سلك جماعتنا، وقد قدم لنا قصيدة قبل أن يقدم علينا فتملق فيها لدينا فأحبيناه بهذه القصيدة، وهي هذه:

تذكرت أطال الربوع الطواسم وما قد مضى في عهدهما المتقادم
وقفت بما من بعد انسيها بصبر مناف أو بشوق مـ لازم
فهم بمعناهم وتندب ربحهم وأي فؤاد بعدهم غير هائم
نحن إلى سلمى ومن سكن الحمى وحب سلمان للفتى بمسالـم
فلا تندب الأطال واسئل¹ بما الهوى ولا تغل في تذكارات تلك المعالم
فإن الهوى لا يستقر ذوي النهى ولا يستتي إلا الضعيف العزائم
وكل فتى أعطى الغرام قياده وبات على ضيم فليس بمـ لازم
فما فاز بالعليا سوى كل ماجد مشمر ساق الجد ماضي العزائم
صبور على البلوى ظهور من الهوى قريب من التقوى بعيد المآثم
ومن يبيع درك العلوات ونيلها يساوي بحلو الشهد من العلاقم
ولائمة لما ركبنا إلى العلى بحور الرد الحها المتلاطم
تقول بإشفاق انتسى هوى الرما وننشى درا من دموع سواجـم
إليك لا يرد اعتزامنا مقالة باك أو ملامة لائـم

1 - هكذا في الأصل، والصواب: واسأل.

ألم ترى أن اللوم نوم وأنا لنجتنب اللوم اجتناب المحارم
فما بسوى العلياء همنا جلالة إذا هام قوم بالحسان النواعم
يروق السيوف المشرفيات والقنا أحب إلينا من بروق المباسم
وأما صهيل السابحات إذا الوغى فأشجى لدينا من غناء الحمائم
وأحسن من قد الفتات وخدها قرود الغوالي أو حدود الصوارم
إذا نخرج مالصوارم لم تعد لأغمادها الأبحر القلاصم
نوصل بين الهند وأنا والطللى بتفريق ما بين الطلى والجماجم
فيرغب منا السلم كل محارب ويرهب منا الحرب كل مسالم
نقود إلى الهيحاء كل مضمهر ونقدم إقدام الأسود الصوارم
وما كل من قاد الجيوش إلى العدا يعود إلى أوطانه بالغنائم
وننصر مظلوما ونمنع ظالما إذا شيك مظلوما بشوكة ظالم
ويأوي إلينا المستجير ويلتجى فنحميه منا كل ليث ضارم
الم تر إذ جاء البيع قاصدا إلى بابنا يبغى التماس المكرم
وذلك لما إن جفاه صحابه وكل خليل وده غير دائم
وازمع إرسالا إلينا رسالة بإخلاص ود واجب غير واحد
وكان رءى أن المهمة بيننا بخلي لذات الحب ذات المباسم
وقال لأهل من عليم مجرب أثبت له ما تحت طي الحبم
فيلبغ عني الآن خير رسالة تؤدى إلى خير الملوك الأعظم
على ناقة وجناء كالحرف ضامر تخيرتما بين الغلاص الرواسم

من الاد يظلمن الظليم إذا غدا ويشبهه في وجود والموائم
إذا تعلت فوق السحاب جوائها تخلى بعض السحاب الرواكيم
وان هملجت بالسير في وسط مهمة تراءت كمثل البرق لاح لشاءم
وكم يأمن الخلان يعد اختلاهم فأمسى وفي أكباده أي جاحم
وقالوا بحملها الحمام قال لا لبعد المدى أو خوف صيد الحمامم
وما القصد إلا الوصول بسرعة فقالوا يحملها أكف النواسم
قال لنعم المرسلات وإنما لها المسر مشهورة بالتمائم
كتابي زهر في كمائم طرسه وبالريح يفشى سر زهر الكمائم
فلم يلف فيها للأمانة موضعا وكل أمري لسر ليس بكاتمم
فحينئذ وافى إلينا بنفسه فكان لدينا خير واف وقادم
يحوب إلينا البید قصدا وبشرنا يضيء له الظلماء في كل عاتم
طلاب العلى يسر مع الوحش في الفلا ويصحب منها كل بـاغ
على سلهب ذي صفرتين مطهم من المغربات الصفناء الصـلادم
إذا شاء أي الوحش أدركه به فتحسبه في البيداء بعض النعائم
ويقدمه طوعا إلينا رجاءه حمايتنا إياه من كل ظالم
ألا أيها الأتي لظل جنبابنا نزلت برحب في عواض المكـارم
وقوبلت منا بالذات أهله وفاض عليك الجود فيض الغمائم
كراد ابنا للقاصدين محلنا حما وندی ينسى به جود حاتم
وهذا جواب عن نظامك أننا بعثناه به كاللؤلؤ المتناضمم

ونحن ذور التيجان من ءال هاشم لعمر ك ما التيجان غير العمائم
بهمتنا العليا سمونا إلى العلى وكم دون إدراك العلى من ملاحم
شددنا بما أزرنا وشدنا بناءها وكم مكنت دهرنا بغير دعائم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نخبا شمله دون ناظم
وررضا جياذ الملك بعد جماعها فدلّت وقد كانت صعاب الشكائم
مناقب زيانية موسوية يذل لها عز الملوك القماقم
يقصر عن إدراكها كل مبتغ ويعجز عن إحصائها كل ناظم
فله منا الحمد والشكر دائما وصل على المختار من ءال هاشم
ويخصكم منا السلام الأثير ما تضاحك روض عن بكاء الغمام
فتأمل يابني هذه المكيدة واعتبر هذه الحركة.

يابني وإذا رأيت عدوك الذي هو أقوى منك أراد التحرك عليك والمبادرة إليك، وكان قليل السياسة ضعيف الرياسة مع كثر جيشه وماله وإمداده وأبطاله، فيرجى لك الظفر به والنصر عليه، وذلك لعدم سياسته وضعف حيلته وسوء تدبيره، فلعله كما اتفق لنا في إبداء أمرنا مع الحسن ابن عمر الفيدودي حين استقلاله بمملكة المغرب وتقديمه محجورا لنيل المطلب؛ وكيفية ذلك: أنا لما دخلنا تلمسان على بني مرين تحدث مع الأشياخ المعبرين وقال: يابني مرين ما ترون في عبد الواد؟ وكيف اخرجوا إخوانكم من البلاد؟ فاضطربت آراؤهم وأحوالهم، وتبين خذلانهم وأنفسهم فأجمعوا آرائهم أن يبعثوا ستة آلاف فارس من حماهم الفوارس دون من انضاف إليهم من الحشود، وما أعدوه من الجنود، واقبلوا بعدد وافر وجيش متكاثر.

فلما قربوا من البلاد وتهيئوا بما جاءوا به من الأمراد، وفي هذه الفترة التي كانت بئس أمر تلمسان ومجئ بني مرين إلى هذه الأوطان أرسلنا الجواسيس المغرب لتتعرف الأخبار وتقف على الصحيح من الحد والاقتصار، فأتتنا الجواسيس مع ملجأ لهم معروفين بإقامتهم وبرحالمهم، وأنهم في أوائل البلاد في غاية العزم والاشتداد، فلما تحقق ذلك ، أعني إتيانهم لهذه الأوطان عاملون على تلمسان، استخرنا الله الخروج إلى ملاقاتهم والعمل على الضرب في صدورهم وساقاتهم، فخرجنا بالأهل والولد والأثاث والعدد وحماتنا الأنجاد وقبيلتنا بني عبد الواد، وقصدنا إليهم عاملين عليهم إلى أن قربوا واد الزيتون بما جاءوا به من الحشد والريون، فعندما رأونا إلى قتالهم مبادرون وعلى ملاقاتهم ماثرون، وطلبوا لنا تزاخر عليهم وخيلنا تمحجح إليهم وشارفت خيولهم خيولنا وعانين قبيلهم قبيلنا، تأخروا عن واد الزيتون خائفين من ملاقات¹ المنون مقهقرين على الأعقاب ناكفين بإصر بنا عن رأي الملاقات لأسباب وعاقات ، ذلك أنه كان بقية جيشنا في البلاد مفترقين في المال والوهاد وان وقفنا في الوقت في صدورهم تخويفا لهم في وردهم وصدرهم بخلال ما بعثنا أثقالنا وصرفنا أولادنا وأموالنا، وبقينا منفردين في الحماة والأنجاد وأجود قبيلنا بني عبد الواد، وقدمنا الخيرة في الدخول إلى الصحراء، ورأينا من أحسن الآراء، وقصدنا متوجهين إلى أعرابنا بني عامر فما معنا من الأول والولد والذخائر، وتركنا لهم تلمسان خالية لنمكر بهم مرة ثانية، فلما سمع بنو مرين دخولنا إلى الصحراء دخلوا تلمسان واستبشروا بالاستيلاء، ولم يعلموا أن ذلك منا خدعة لنستأصل أصل العدو وفرعه، فدخلوا البلد في يومهم، ورأوا ذلك من جدتهم وعزمهم ولم يعلموا أنهم تورطوا في المهالك وسلخوا في مبادرتهم أشر المسالك، فاقتضى نظرنا أن نبعث إليهم من عربنا المعقل من يتجسس عليهم بالجهات الوجدية ويعرفنا بما هم عليه بالكلية، فلما سمع بنو مرين أن الطريق قطعت عنهم المعقل علموا أنهم رموا بالداء المعقل، فيئسوا من النجاة وأيقنوا بالممات

1 - هكذا في الأصل، والصواب الملاقاة.

عمدوا إلى إلفي فارس أو يزيدون من حماقتهم الذين بهم يعتدون، وساروا برسم المعقل بظاهر وجدة واطهروا في أنفسهم غاية النجدة، فعندما التقى الفريقان في القتال وقتل قائدهم بن موسى وأن ما صنعوه ليس الرأي، فانكزموا هزيمة شنيعة، وقتلوا قتلة ذريعة، فتدخل بنو مرين الرعب والطيش لما لم يعد إليهم إلا القليل من الجيش، وبات كل واحد يقلب كفيه، ويحسب كل صيحة عليه، وإتيانهم من حيث لم يحتسبوا وضاق بهم سوء ما اكتسبوا، وخيب الله أمنيائهم ببيغيتهم، وفساد نياتهم، وطبقوا يزيدون الحيلة في سبب النجاة، وكيف يتخلصون إلى غيرهم وتلك غنيمتهم الموتى، فعقدوا لأحداهم البيعة وخرج الجميع معه بعد أن عقدوا عقد صلح على أنفسهم بالمهادنة والمولات بيننا وبينهم بالحاسبة، وعاهدونا بعهد وثيق وعقد متين لا مفتنة إلى يوم الدين، وإن يسرحوا من بأيديهم من بني عبد الواد ويستقر كل منا في بلاد الآباء والأجداد، وخرجوا في ليلهم مبادرين لغربهم برجلهم وخيلهم ولم يكن عندنا علم بسر إلا متى هربوا إلى أوطانهم إلى أن قربوا من نواحي ملوية وخلصوا بأول بلادهم المنجية، وذلك خوفا من سيوفنا، وهربا من رحوبنا.

ولما استقروا ببلادهم نقضوا ما عهدوا وأخلفوا ما وعدوا فأوقع الله بينهم الشتات والشحناء والعداوة والبغضاء حتى صار بعضهم يقتل بعضا.

ثم عدنا إلى تلمسان وكان من أمرنا ما كان، ثم تبين لنا أنهم عهدوا ثم نكثوا وجاهموا ثم عثوا وكذبوا بما حدثوا، وكم بدعة أحدثوا، فلما حاملناهم ولم يحاملوا عاملناهم بمثل ما عملوا، فانعطفنا على من كان منهم في بلادنا الشرقية مثل مليانة والمدية فاستولى عليها والدنا المرحوم، وعمل فيهم سيفنا الحطوم فوجه إلينا منهم أربع مائة فارس مصفودين في الأغلال ليدوقوا العذاب والنكال، وسيقوا في أسوأ حال وأردأ، وطبولنا تزار عليهم أسرا، وقد كان الأولى قبل هؤلاء الأعداء؛ فمنهم طالم¹ الظلم والغدار، وعدو، ولكن القينا عليهم ليكونوا عوضا عن من في يدهم،

1 - أصل الظلم الضرب بيسط الكف، وقيل الظلمة صفيحة من حجارة كالطابق يخبر عليها، وقد ظلمها يظلمها وظلمها، وظلم العرق عن جبينه مسحه. ابن منظور، مادة ظلم.

ورأينا أن نعاقبهم بهذا الأمر المشبه لقوله تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا
عُوقِبْتُمْ بِهِ)¹.

يا بني وإن كان لك معقل تلجأ إليه لكنك ترجح التعويل عليه وترى أن قالت
الحكماء ضربت لازم أن كل محصور مقهور وحاله سائر لتبور، فينبغي لك حينئذ
تحصن معقلك الذي أعددت له حصرك وتلجأ إليه في مهم أمرك وأموالك وأثاث
جيشك وأولادك وحماتك ورجالك، ثم تتسع لعدوك عن البلاد بما عندك من
الأجناد خارجا عن طريقه ذلك، راكبا المعطشات والمهالك، قاصدا لبلاد العدو
لتسكنه من الغلو، وتصده عن العتو، وذلك إذا قصد بلادك وأراد قهرك و نكادك
فإنه يأتيك بجميع احشاده وأنصاره وإمداده وقواده، ويترك بلاده خالية من الحماة،
ومعرضة لآفات، فتقصدها أنت لفرصة تنتهر بها، أو وقعة تنتجزها فتفعل ذلك في
بلاده لتقابل ما فسد من بلادك بمضادة من فساد بلاده، وفي ذلك مشقة على العدو
القاصد لما يلحق بلاده من المفساد، فإنه إذا سمع العدو إنك قد أوقعت في بلاده
الشتات وسبلت عليه الغارات مرضت نفسه لذلك، وأيقن أنه واقع في المهالك
وساءت ظنون اتباعه من القبائل والعساكر، وانقلب سرورهم إلى تعبير الخاطر لما
أهمهم من تشتيت بلادهم والخوف على أهلهم وأولادهم، فيصيرون عليه لا إليه،
ومتأخرين عنه وإن كانوا بين يديه فيرجع العدو ناكصا أعقابهم، خاسرا في مجيئه
وذهابه.

وهذا كان حالنا مع عدونا أبي سالم حين رأينا أنه إلى بلادنا قادم؛ وكيفية
ذلك يا بني: إن أبا سالم كان له قواد بالجزائر² يكتبوا له في الباطن والظاهر يطلبون
منه الانتصار لما ضيق عليهم والدنا الحصار، ويعرفونه بالزور، ويسهلون عليه الأمور

1 - سورة النحل، الآية 126.

2 - إن أبا حمو قد استعمل هنا كلمة الجزائر، مع أن حكمه كان في تلمسان وضواحيها وأشار إليها في قوله:
إن أبا سالم حين رأينا أنه إلى بلادنا قادم، وهذا يدل على أن إطلاق تسمية الجزائر قديمة، وأن تلمسان
كانت تنتمي إليها في ذلك العصر.

بضعف بني عبد الواد، وقلة دهم في البلاد، ويقبحون له المحاسن ويحسنون له القبائح في المواطن.

ولم تزل كتبهم تتواتر علينا وتصل في كل يوم إليه إلى أن أخذته العزة والنخوة ودعته التروة وهاجته الحمية، وحط النفس على الحركة إلى البلاد الشرقية فجمع الأجناد الوافرة والأعداد المتكاثرة، ولم يترك بالمغرب خيلا ولا رجالا ولا شابا ولا كهلا، والرمات¹ المترجلة من المغرب، ليزحف بها ويرهب، ولينال بذلك غاية المطلب.

ولم يزل يعمل المحال بالمسير إلى أن وصل أطراف البلاد في الزمن اليسير.

وعندما تحققنا إتيانه، وأنه قد نقض عهوده و إيمانه، وأنه قاصد للبلاد يرى أنه لا يصده عنها من صاد أخذنا في الترحيل بل الترجيح بين الخروج إلى الصحراء أو ملاقاته في هذه الأنحاء، ثم نظرنا إلى البلاد التي خلف وراءه قد خلت من جناد، ولم يبق بها أحد إلا القواد، فاقتضى نظرنا أن نخرج من تلمسان ونقصد إلى بلاده بمن معنا من الحمات والفرسان، فوجهنا إلى والدنا بالبلاد الشرقية بالتحاق بنا بمن معه من الجيوش العبد الوالديه، وخرجنا إلى الصحراء تمويها على بني مرين ونحن في الحقيقة إلى بلادهم قاصدين.

ولما توغل أبو سالم في البلاد وظن أنه بلغ غاية المراد واستقر بدار تلمسان وأنه تأثل² له فيها الملك السلطان قصدنا بلاده فألفيناها خالية من الحماة وطعمة للغارات، فأتينا على حصونها نخرب ونهدم ونحرق ونهدم ونسلب ونسلم، إلى أن ملأنا الأحقاب بالأسلاب، والسعادة بالأمعة والأسلاب، وهدمنا القلاع والحصون، وأدقنا من تعرض إلينا كأس المنون، وأبو سالم يظن أنه قد ظفر بتلمسان

1 - هكذا في الأصل والصواب الرماة.

2 - قال ابن منظور في بيان معنى تأثل: أثله كل شيء أصله، وأثل بأثل أثولا وتأثل تأصل، وأثل ماله أصله، وتأثل مالا اكتسبه. لساد العرب، مادة أثل.

وملك هذه الأوطان؛ فبينما هو بالفتح سار منتظرا لما يرد عليه من الأخبار إذ كتب إليه أهل بلاده بالإعسار يطلبون منه الانتصار، ويعرفونه بما لقوا من البوار، وأنه إذا لم ييادهم استولت بني عبد الواد على البلاد.

فعندما سمع أبو سالم بأخبارنا وما دهم بلادهم من حماتنا وأنصارنا طاش لله فرقا وصارت دعته قلقا، وعلم أنه مخذول وعقده محلول، وجده مفلول، ولم تنفعه احشاده ولا حماية أجناده.

وكاد جيشه يكون عليه ألما لما ملئت قلوبهم رعبا؛ فلم يقتض نظره إلا تقاسم حفيد أبي تاشفين ليأمن بتقديمه قلوب بني مرين ويثير الفتنة بهذا الوطن لمن يترك معه من المفسدين فلم يقم أبو سالم في البلاد ثلاثة أيام بعدما أراد أن يصيرها دار مقام، فأنزعج عن البلد طريدا، ومن مخافة سيوفنا شريدا.

ولم يرجع إليه عقله حتى اتصل بفاس هو وأهله، وعدنا إلى أوطاننا وبلادنا سالمين، وبما نلناه من الأعداء غانمين.

ولما سمع بنا حفيد أبي تاشفين أخذ في الحرب فجردنا في أثره في الطلب فنجا بنفسه ولم يفلت إلا برأسه، ثم بعث إلينا أبو سالم بالمصالحة والمحاسنة والموالاة والمهادنة، ولم يزل يعرف لنا هذه الفعال ويدركه من حركتنا الأذهال، وقد كانت مصالحته لنا على رغم أنفه، ولم يزل يحاملنا إلى أن لحق بجثته.

وهذا باب من السياسة، ونكتة من الرياسة، ونبذة من الحزم أهدت إلى علم. يابني وإن كان العدو صاحبك خرج ووحيد العزم، وترى أنك لا تقدر على ملاقاته، ولا قبل لك بجيوشه ولا ساقاته، وهو موازن لك في الدهاء والسياسة والأراء، ولم يقدم على بلادك بأجناده حتى حصن معاقل بلاده، وشمس¹ الرعية إلى

1 - شمس الرعية أي منعها، قال الجوهري: شمس الفرس أيضا شموسا وشماسا، أي منع ظهره، فهو فرس شموس وبه شماس. ورجل شموس: صعب الخلق. وشمس لي فلان، إذا أبدى لك عداوته.
الصحاح في اللغة، م س، مادة شمس.

جسالتها وموانعها ومحاصرها ومواضعها حتى لا تجد فيه فرصة و لانكاية توجب له غصة؛ فينبغي أن تخرج عن صوبه وطريقه إلى أن يترل معقلك ويهم بتضييقك، فإذا نزل معقلك فتحرك عليه وءات بجيوشك قاصدا إليه بما يمكن عدوك المذكور الا ترحزه عن معقلك المشهور وقصده إلى بلادك وملاقاتك بمن معك من الجمهور.

فإذا رحل العدو عن ذلك المعقل اشتد أهله وانتعشوا وأنسوا بالفترة بعدما استوحشوا، ووقعت الرجفة في جيش العدو وسكن من ذلك العلو؛ فإذا صمم العدو للقائك قاصدا، ورحل إليك موجهها جاهدا فترحل مرحلة من أمامه تحمل بما عقدة اعتزامه، فلا يزال كذلك ترصده في وجوه المسالك كل ما دنا منك العدو وتعرفت مكانه واينه، فجعلت مسافة بينك وبينه لا يقدر فيها على التوصل إليك، ولا أن يقاتلك ويهجم عليك، فيضطرب العدو في أحواله ويضعف في ترحاله، فلا يقدر على العودة إلى الحصار فيتوقف بين الإقدام والفرار، وتضعف حينئذ حركته وتنكسر شوكته، وتقل حدته، وتقل نجدته، وينكره جيشه، وينخفض عرشه؛ فما يرى أرجح من الرجوع إلى بلاده ليريح نفسه وجملته أجناده.

يابني إن لم يرحل العدو عن معقلك الذي نزل، ولم يرد إلا نكايتك حين قدمت له فينبغي لك أن تتحر من حيلك وحمايك وأهل نصرتك وكفاتك وتغير على أطراف محلته، ولا تترك من اتباعه من يتحرك في حيلته، فيكره مقامه ويجنح إلى رحلته؛ فلا يزال ذلك دأبك مساء وصباحا تضيق عليه المسالك قتلا وكفاحا، فتمنع عنه القوافل، وترصد فرسانه في المخادع والمخاتل¹، حتى يصير محصورا بعد أن كان حاصرا، ومقهورا بعد أن كان قاهرا، فتضيق حاله حينئذ بأجنادك، وتقل قوتهم فيضعف عن استبداده، ولا يتحصل بمراده، فتشتت عليه الأجناد وتختلف عليه

1 - المخاتل: جمع مختل وهو مكان الاختباء؛ قال صاحب بن عباد: المختل: تخادع عن غفلة، وجحر الأرب يسمى: المختل، وكل موضع تختل فيه.
المحيط في اللغة، مادة ختل.

أراء القواد، وتضعف نجدة الأحشاد، فيرحل عن المعقل بغير اختياره ودا أنه لم يخرج عن داره؛ فإن وجدت فيه فرصة فانتهازها، وإن تيسرت لك عدة فانتجزها.

يابني وإن كان العدو حين أتى مصمما لا إلى معقلك قاصدا أو إلى مجلسك ومثلك متابعا لك ليلا ولا نهارا عاملا عليك سرا وجهرا، وكان العدو مثلك في الدهاء ونظيرك في الحزم والآراء؛ فيرجى لك أن تظفر به وإن كنت مطلوبا، وتغلبه وإن ظنك مغلوبا؛ فإن المطلوب يغلب الطالب حتما ويستولى عليه رغما، لأن الفرض أن التابع أكثر جيشا وأثقالا وأثقل حركة وانتقالا.

وفي الجيش الكبير القوي والضعيف والثقل والخفيف والطالب أبداً على اختياره، والمطلوب لا يهتم إلا بفراره، والا تتنا لأخذ ثأره، فهو أقوى جلدة وصبرا فلا يأمن الطالب منه مكرًا، لاسيما في المواضع المعطشات، والمهامه المدهشات؛ فإنه لا يأمن الطالب أن يثني عليه المطلوب عنانه فيهلكه فيلقى امتحانه؛ وكذلك اتفق لأبي الحسن المريني.

وكيفية ذلك: إن أبا الحسن لما أخذ تلمسان واستطار صيته في جميع البلاد والأوطان اشتاقت¹ بأخذ البلاد الإفريقية، وأن يقطع ذكر خلافة، وأن يعم أمره القريب والبعيد، فاستعمل حركته التي كانت آخر حركاته وأعظم معركاته، وأعد لها الأعداد، وحشد لها الأحشاد، وأمد لها الأمداد، وقاد أهل المغرب بأسره، واستظهر بأمواله وقوته ووفره، عاملا على أن لا يتحرك بالبلاد الشرقية إلا من يدين بطاعته، ويدخل تحت إيالته وفي سمط جماعته، وهو في اعتزاه يظن أن لا راية تعلو رتبة، ولا خلافة إلا خلافته؛ وذلك لما استولى عليه من البلاد، وما تحت إيالته من الحماة والأجناد؛ فخرج من حضرة فاس إلى مدينة تلمسان وقد طبق الأرض بما حشد من الفرسان.

1 - هكذا في الأصل، ويبدو أن حرف التاء زائد.

ثم استخلف ولده أبا عنان وجعل له النظر على جميع البلاد، واستوثق قوله في البلاد، ورأى أن ذلك من الحزم والاشتداد، ولم يدر أن القدر سابقه لحينه ومزعجه من مكن أمنه إلى أماكن حصره وسجنه.

فلم يزل يستعمل الركاب ويرحل المضارب والقباب، ويقطع الأرض طولاً وعرضاً، ويخوضها رفعا وخفضاً، إلى أن بلغ بجاية فاستولى عليها وبلغ منها الغاية، فاستفتحها من غير طعان ولا طراب فادعته الصيت والإرهاب، ثم أخرج صاحبها إلى محلته وأدخل عامله في البلد في ليلته، ثم ارتحل إلى قسنطينة يريد حصارها لما ظهر له من تحصينها وشدة أنصارها، فلم يلبث عليها إلا ثلاثة أيام، وخدمه أهلها على الأمان التام فأخرج من كان بها من أهل التوحيد وأدخل عامله إليها على حسب ما يريد بعد احتوائه على الطارف منها والتلبد، ثم تمد إلى بلد العناب فخدمه أهلها من غير مراب، ثم دخل عقله العجب المؤذن بالهلاك، المنقضي بصاحبه إلى الانتشاط، ثم قصد تونس لا يصده عنها صاد، ولا يرده لقوته راد، وقد أعجب من أعداده المتكاثرة المديدة الوافرة، فعزم على ملاقاته الأمير أبو حفص عمر بن أبي يحيى¹، وأراد صده عن تونس لو ساعده القدر أو كان من أهل الدنيا فقتله أحد قواد أبي الحسن، وخمدت بموته شحنة المحن.

وعندما أوتي أبو الحسن برأسه عظم في أعين أناسه وأيقنوا بالهمدة في البلاد وأنهم أزالوا أثر التوحيد، وبلغوا غاية المراد.

ثم استقبل تونس والبلاد ترتج لسلطانته وتبتهج بإتيانه، وقد جمع على طاعته أهل تلك البلاد ورغب في امتثال أمره جميع العباد، فدخل تونس بجيش يضيق عنه المتسع ويذل له الممتنع، ولا يخالفه المتبع، فأظهر بها صيتاً عظيماً وملكاً عنيداً صميماً أزال بذلك رأي أهل التوحيد، ويأبى الله إلا ما يريد، بخدمة البلاد الإفريقية وتلتها البلاد الجريدية، ففر وعماله في البلاد وبعث إليها بالحصص والقواد وأتته

1 - هو سلطان الدولة الحفصية في حينه.

القبائل والأعراب، وانقادت بخدمته الصعاب الصلاب، ثم أنه حمله حال الإعجاب على أن يأخذ المراهن من أولئك الأعراب؛ فعندما علم العرب بذلك انسلوا من حضرته انسلال العدو، وصاروا له أعداء أسرع من فيئ الظل، فأخذته الأنفة وسولت له نفسه في أخذهم وانتهازهم، ولم يعلم أنه كالباعث على حتفهم بطلبه، والجاذع ما رأى أنفه بكفه.

ولما استحقق العرب واستقلهم وأراد أن يأخذهم ويذلهم، فاستعمل حركته من تونس عاملا عليهم ومنتهدا إليهم ليقطع آثارهم من البلاد الإفريقية، ولا يترك بها من بني كعب بقية، فخرج في طلبهم مبادرا، وعلى غزوهم مثابرا، ولم يزل في أثرهم طالبا وفي استيطانهم راغبا، وهم مع ذلك يظهرون الفرار له جملة النضراء.

وعندما أجهد في أثرهم أجناده، واتعب جيشه وقواده حتى نسمة جيوشه من السفر، وأيقن¹ أعداءه فيها بالظفر بعدما عاينوا فرصتهم فيه اثنا اعنتهم عليه، حيث لا ينفعه تلافيه، فكانت ساعة حينه وأول شينه، فانهمزت جيوشه الوافرة، وانجدلت أمراده المتكاثرة، فتلاقى القيروان منفردا مع ابلال من الفرسان، واستولت العرب على أمواله وأثاثه وجملة أثقاله، ولم ينفعه عزمه لما انتقض حزمه، وذلك من سوء التدبير واحتقار العدو الحقير، فلو كان يقظانا ما احتقر عدوه حتى سكن علوه، فكانت هزيمته تضرب بها الأمثال، وبسيئها آل ملكه للزوال؛ فلا تخشى يا بني من عدوك وإن كان قويا.

القسم الثاني: أن يكون العدو أضعف منك²

إن كان³ العدو أضعف منك، وكان ذا رأى وحزم وانتهاض وعزم، وله معاقل حصينة، و أماكن آمنة يتحصن فيها ويمتنع و يتأمن فيها، وينقطع فلا يقدر

1 - في الأصل أيقنوا.

2 - العنوان من وضعنا.

3 - في الأصل: أن يكون.

قائد من قوادك عليه ولا أنت، فإذا قصدت بنفسك إليه إما لتحصنها قلة الحصينة وإما لركوبك المعطشات التي يبلغ بما تأمينه، فينبغي حينئذ أن تغزوه مرتين في السنة، ولا تغفل في يقظه ولا سنه؛ وذلك من زمن الصيف والخريف وحين يستوي الخيرات من بلاده من كل تليد وطريف، فتستعد له الاستعداد التام، وتنهض له الجدد والاعتزام، فترحل إلى بلاده فتأكل زرعهم في أول حصاده، وثماره في إبان جناحها، وتزلزلها في جميع أنحاءها حتى يضيق عليه كل التضيق، وتخرج الرعية عن طاعته بالتشتيت والتفريق لعدم دفاعه عنهم، وإمكان جيشك منهم.

ولخراب بلاده، وقلة جيشه وإعدادده، فيضعف بعجزه عن الخروج إلى المعطشات، ولقلة صبره على المدهشات فيسامه جيشك، ويزداد كربه ووحشته، وينكره خاصته الأقربون ويعودون عليه بالديون، ولا يمثل أحد من اتباعه أمره، ولا يوافقها فيما جهر به وسره، فحينئذ تقصد إلى حصونه وبلاده لقلة أعداده وضعف أجناده، فتأخذ منهما الأقرب فالأقرب وهذا مما يتم به المطلب، فكلما أخذت من حصون عدوك زاد في قوتك وعلوك، واستعنت عليه بما أخذته من حصونه، وذلك زائد على ضعفه وهونه، فتستولى على مجامع وأموالها وحماة البلاد ورجالها، فتضيق عليهم بأنواع التضيق، وتحاصره محاصرة القوي المضيق؛ لأنك استعنت ببلاده على بلاده على أمراده، ثم تأخذ في البناء والتضيق عليه بكل وجه ترى أنك تصل به إليه، فتبني على كل برج من بروج معقله برجين، ثم لم يفتر عنه طرفه عين، ثم تشحن الأبراج بالرماء والرجال والآلات التي تحتاج للقتال، ثم تدور بمعقله الحفائر والمخادع التي تليق بالمحاصر، وتستعمل الدرقا¹ والأنفاظ والمنجنقات، وتستأصل الرمي على ذلك في كل الأوقات، فبالضرورة تأخذه عنوة وتغلب عليه سطوة، ويسلم لك المعقل بالاضطرار لشدة ما يلقي أهله من الحصار.

1 - الدرقا: جمع الدرة وهي ترس يتخذ من جلود ليس فيها حشب ولا عقب. ابن منظور، لسان العرب، مادة درق.

القسم الثالث: أن يكون العدو مساويا لك

اعلم يا بني أنه إذا كان العدو مساويا لك في جيشك وبلادك وحزمك وجلادك وكفايتك وسياستك ونجابتك ورياستك فينبغي لك إذا رأيته موازنا لك في الدهاء، وأحواله جارية معك على السواء أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة والمواتات والمحاسنة، فتكون مصالحتك له من جملة المكائد، ومن ألدّها التي تبلغ المقاصد، لأن مصلحة العدو حتى تظفر به مكيدة، وتلك سياسة وكيد وإن كانت عند الناس مذمومة وصفتها بالعدو موسومة، فهي عند الملوك محمودة وأثارها مشهورة.

ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادنة ولا في مواتات ولا محاسنة؛ وقد اتفق لنا ذلك مع السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن حين وجهنا إلى الأندلس لعهده بكل فعل حسن، وكيفية ذلك: أن أهل المغرب لما أعظناهم بالخروج من بلادنا، وانتزعنا من أيديهم إرث آبائنا وأجدادنا، وعاهدناهم على قطع المفاتنة، وصالحناهم على المواتات والمحاسنة لم تزدهم إلا سحنا¹ ولا حركاتهم لا أدنى، ثم تبادوا على نقض العهود وتبادوا على حقّ الأباء والجدود، لا نعقد معهم صلحا إلا نقضوه، ولا نولوهم صلحا إلا رفضوه، ولا نوافقوهم عن الكف عن شيئا إلا تعرضوه، إلى أن تبين لنا أن غاية مطلوبهم الفتن، وأن التردد إليهم من الحن، وإن أظهرت ظواهرهم المواتات فإنما حشوها الحقد والنكايات.

وعندما تواتر شرهم وتبين غدرهم وقل خيرهم، وأخذناهم بالمحاولات فلم تنفع فيهم في كل الحالات، ومتى أردنا تسكيننا ومهادنا ابدلوه هرجا ونكادا، فاقتضى رأينا السيد السالم أن نبعث للأندلس لأبي سالم ليثير عليهم الفتنة ويذيقهم بخروجه إليهم المحنة لتشغل بعضهم ببعض، لموجب ما أسلفوه من نقض وبغض.

1 - السحن والمساحنة: الملاقاة. ن م، مادة سحن.

فعندما وصلت أرسالنا لأبي سالم نخضه على الجوار ونعلمه أن أوان الفرصة في بلاده قد ءان للأنتهاز، وأن يكون جواره إلى بلادنا لنمده بحماتنا وأنجادنا، على عهد لازم وأمر بالمهادنة قائم، وأن يبادر في حينه ذلك وأن يسلك في ذلك أحسن المسالك، فلما وصلت أرسالهم بالكتب إليه وحلوا بغرناطة قادمين عليه أعمل الحيلة في خروجه في الحال، واحتال غاية الاحتيال، وخوف¹ يشعر به فيصد عن مطلبه. وكان هناك بعض قبيلنا الخلصاء وحماتنا النصحاء، فوجهنا إليهم في محاولته ليجوزوه إلينا ويقدموه علينا، فلم يجدوا لخروجه سبيلا، وتعدر عليهم بسبب البحر لما رأوا في ذلك تطويلا، فاقترضى نظرهم السديد ورأيهم المصيب الرشيد أن يتوجهوا به إلى الفنش الطاغية²، ورأوا ذلك أقرب إلى الغرب من الجوار به إلى هذه الناحية، فإنا شوقناه إلى مغربه وأريناه بما ندبناه غاية مطلبه، وخصصناه على الامتنان بدار ملك أسلافه، ومبادرة المغرب قبل تلافه بجوره الطاغية حين وصل إليه في غراب في البحر، فأنزله بظاهره أصيلا، ومنها تعين له بارق النصر والظفر فاستقل من علمه بالخلافة ورقى مرقى الإنافة، وحل بحضرته وداره على حكم اختياره، ومن هنالك اجتاز إلى المغرب وبلغ غاية الأمان والمطلب، فتحصل على أيدينا بدار ملكه وسلطانه، واستولى على جميع بلاده وأوطانه، فراسلنا بالموالات والمصالحة والمهادنة والمناصحة، وكل ذلك منه خداعا ومكرا ودهاء وغدر.

ومع ما أظهر من موالاته ومناصحته ومصافاته لم نزل نحد من مكايده ونتقي من سوء مناكده، وقد كتب لنا بخط يده على ختمة من القراءان العظيم بعهد وثيق وعقد سليم مستقيم، وجعل كتاب الله حكما بيننا وبينه أن تكون بيننا المجاملة وجميل المعاملات و الموالات والمهادنة والمصافات والمحاسنة، وأن لا يتبدل عن الحال التي وقع عليها العقد، وكتب على ظهر المصحف العهد، فلما استقل بسلطانه أول

1 - في الأصل: وحاف.

2 - هو أحد ملوك النصارى كان ملكا لقرطبة وإشبيلية، عاصره أبو حمو، واستمر ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة.

انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، م س، ح 1، ص 179.

شيء أبداه بخذلانه أن نقض العهود وحشد الأحشاد، وأمر الأمراد، وقصد إلى بلادنا، عاملا على قتالنا، ولم يراع العهود والإيمان ولا ما خطه من عهده على مصحفه القراء، فكان من إتيانه ما كان، وما اتفق له في دخوله إلى تلمسان كما قدمناه آنفا في غير هذ المكان.

فعلى هذا يابني لا تأمن عدوك في حال، لا في المصالحة ولا في القتال. واعلم يابني أن المصالحة بين الملوك مكيدة، وهي عين المحاولة الوكيدة والحركة الشديدة، فلتكن لعهدك يقظانا وفي محاولته دهقانا.

يابني أكثر لعدوك الهدايا ونصر على إرساله جزيل العطايا، وأنسه وواليه، واکرمه وصافيه، واطهر له الوداد، وابن له الاعتقاد، ووال خاصته بالإكرام، وواليهم بجزيل الإنعام، واطهر للعدو الشفوف عليك في الحال حتى يظهر أنك تخافه، وأنه صبر منك بالأمال، وأنتك تماديه لأجل المخاف، وتواليه على وجه الاستعطاف. وكذلك تكاتب خاصة عدوك الذين يوصلون الهدايا إليه ليعلموك إذا رجعوا ما هو عليه، وما فعل في بلاده، وما حدث من زيادة في أجناده، ومادرك من الجيش في عامة وما حدث من الحوادث في مدة مقامه؛ فتفعل أنت ما يقابل ذلك وتريد اضعافا على ما هنالك من حيث لا يكون للعدو بك شعور ولا يعرف ذلك عند الخاصة و لا الجمهور. والعمل في ذلك يابني أن لا تظهر زيادة بحضرتك ولا تفش ذلك في أمرتك، بل تفعل ذلك في البلاد التي لا تلي العدو، وهي عنه بعيدة؛ وذلك إذا فعلت من وجود المكيدة فلا تزال في زمن المهادنة تدرك الفرسان والأجناد، وتستعد لعدوك أتم الاستعداد.

وليكن اشتغالك بتوفير العدة وءالات الحرب التي تكون بما النجدة والشدة، وكل ذلك بحيث لا يشعر العدو ولا يعمل وجه تسبيه، لأن العدو يكون ءامنا من عائلتك لأجل مهادنتك ومصالحتك، وعاملا على أحوالك التي تفعلها في أقصا بلادك عن تدرييكك، وجملة أجنادك لا نظير لك، ءاخذا في مناصحته، مستمسكا بمهادنته ومصالحته، موافقا لجميع أغراضه واختياره، مؤثرا له على خاصته واختياره؛

وتلك مكيدة أدركتها، وخديعة حسنة دبرتها، وفي أثناء هذا على عقد الأمر وحله تكون عادتك، ضم جيشك للأعياد تجمعهم من سائر البلاد، وتخص قودك والأجناد، يعيدون لعيدك ويمثلون أمرك في وعدك ووعيدك.

يا بني وفي الأعياد تكون هداياك لعدوك، وفيها تظهر إقامتك وسموك، لتتعرف أحواله في أعياده، وما يزداد في أجناده وقواده، يعلمونك إذا رجعوا إليك حتى لا يخفى عليك شيء من حاله، وحتى يأنس العدو من العدو، ومن عوائلك لحسن محاولتك وتراسلك؛ فإذا تحققت أن جيشك أكثر من جيش عدوك، وأنجادك أكثر من أنجاده وتلك وتراسلك فإذا تحققت بل ومرادك أوفر من مراده، ورأيت فرصة فانتهازها واقتحم عليها، وانتجزها، فإذا فعلت ذلك على حين غفلة فيرجى لك الظفر به من أول وهلة، لأجل افتراق جيش عدوك في البلاد، وطمأنينته بترك الاعتداء، فإنك إذا أقبلت إليه لا يسعه إلا ملاقاتك إذا أظهرت له راياتك وساقاتك؛ لأنه يرى أنه موازن لك في العدد والعدة والدهاء والكفاية والنجدة، فإن خرج إلى لقائك فالغالب أنك تغلبه وتظفر به، وتنكبه، لأنك أكثر أهبة واستعدادا، وأقوى جيشا وأوسع إمدادا، وإن لزم العدو موضعه ولم يخرج إلى لقائك لعدم وجدان جيشه هنالك، فينبغي لك أن تدخل إلى بلاده وتسعى في شتاته وفساده، وتضعف بلاده غاية الضعف، وترهن أهلها بالغارات والزحف، وإن قدرت على أخذ ذلك العدو وحصاره والتزول على بلاده وانتهازه فلا تقصر على إنزاله، والتضييق عليه في محاله، وإن لم تقدر عليه وترى أن أحواله تشتت، ونكاية عدوك تعددت فتأخذ منك بقدر الاجتهاد وتعود قابلا إلى بلادك بما معك من الأحشاد. ثم لم تنزل تزيد في جيشك ومددك وإعدادك، ولا تنفس عدوك ساعة، ولا تفتريه حتى تأخذه وتظفر به وتقهره، فإن العدو لا يقدر على ملاقاتك ويدافع عن نفسه خوفا من جيشك وساقاتك، بل يدخله الخوف والإرهاب والفشل في أحواله، والاضطراب لما يراه من فساد بلاده وقل جيشه وقلة احشاده، فإن كان حين سمع بحركتك إليه أرسل إلى جيشه قبل أن تمحى عليه، وكان جيشه قريبا منه بحيث لا

ينفك عنه فيصلون إليه قبل هجومك عليه، وقد استعد بجيشه للقائك وقابلك بوجه
اعدائك، فإن كان اللقاء بين حد بلادكما وأظهرتما معا شرّة استعدادكما فيرجى
لك الظفر به، والغلبة عليه، وجيبة عدوك فيما قصد إليه؛ وذلك لأجل ملاقاتك
لعدوك من تدريك الجيش، وقلت الانتهاض والعيش، واستعدادك بما ردت عليه،
وانتهت محاولتك إليه؛ فإن الزيادة في الجيش لها تأثير في الهزائم، وقوة عظيمة في
العظام؛ وذلك كما يحكى في قصة الطاغية ذي الرديمير مع المستعين بن هود أمير
المسلمين وكيفية ذلك أنه لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن رديمير النصراني
على مدينة وشقة من بلاد الأندلس وكان العسكر كافيين، كل واحد منهما يرافق
عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجال.

فلما دنا اللقاء قال الطاغية لمن يثق بهم بعقله ومما زمنته للحروب من رجاله:
استعلم من في عسكر المسلمين الشجعان الذين تعرفهم يعرفوننا، ومن غاب منهم
ومن حضر؛ فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال، ثم قال:
انظر الآن من في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم ومن
حضر، فعدهم فوجدوهم ثمانية لا يزيدون، فقال الطاغية ضاحكا مسرورا وهو
يقول: يا بياضك من يوم ثم ماشت الحروب بينهم.

فلم تزل المصابرة بين الفريقين ولم يول أحد دبره ولا ترحزح عن مقامه حتى
فنى أكثر العسكر، ولم يفر أحد منهم.

ولما كان وقت العصر نظر ابن رديمير ثم حمل إلينا حملة ودخلوا دخلة ففرقوا
بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا.

ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في حسارة منهم، فأشار مقدم العسكر على
السلطان أن ينجو بنفسه، وكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم، وملك العدو
مدينة وشقة؛ فليعتبر ذو العزم والبصيرة من جمع يحتوي أربعين ألف مقاتل، ولم

يخطر من الشجعان المعدومين إلا خمسة؛ تعين وثوق العلي بالظفر والغنيمة لما أراد في إبطاله رجل واحد.

وحكي أيضا أن المنصور بن أبي عامر رحمه الله كان في بعض غزواته إذ وقف على نشر من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره قد ملئوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل عرف بابن المصحفي، فقال: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال ابن المصحفي: أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا؛ فقال له المنصور: لا يعجزنا أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة، فسكت ابن المصحفي، فقال له المنصور: ما سكوتك أليس في هذا الجيش ألف مقاتل بطل؟ فقال: فعجب المنصور ثم عطف عليه فقال: فيهم خمسة مائة¹ من الأبطال المعدودين، قال: فشبه المنصور واستخف به وأمر به فأخرج على أقبح صفة؛ فلما توسط بلاد المشركين اجتمعت النصارى وتضاف الجمعان فبرز عليج منهم مساك في السلاح، يكر ويفر وينادي: هل من مبارز؟ فبرز له رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العليج وفرح المشركون وطمعوا، واضطرب بما المشركون المسلمين، ثم جعل العليج يمرح بين الصفين ويقول: هل من مبارز اثنين بواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العليج وجعل يكبر ويحمل وينادي: هل من مبارز ثلاثة بواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العليج وذل المسلمون.

وكادت أن تكون كسرة؛ فقليل للمنصور: مالها غير ابن المصحفي، فبعث إليه فحضر، فقال له المنصور: ألا ترى ما فعل هذا العليج الكلب منذ اليوم! قال يابني: جميع ماترى، قال: فما الحيلة فيه؟

قال: وماتريد؟ قال: أن يكفى المسلمين شره، قال: نعم الآن.

ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقبله رجل يعرفه من أهل الثغور على فرس قد نشدت أوراكها هزالا، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل في نفسه وحليته، غير متصنع، فقال له ابن المصحفي: ألا ترى ما يفعل هذا العالج منذ اليوم؟ قال: قد رأيته فما تريد منه؟ قال: أريد رأسه الآن، قال نعم إن شاء الله، فحمل القربة إلى رحله، ولبس لامة حربيه، وبرز إليه فتجولوا ساعة، فلم يرع الناس إلا المسلم جاء إليهم يركض ويدرون ما هنالك وإذا الرجل يحمل رأس العالج، فلقى الرأس بين يدي المنصور وقال له: عن هذا وشبهه أخبرتك ليس في عسكرك منه ألف ولا خمس مائة، ولا مائة، ولا خمسون، ولا عشرون، ولا عشرة؛ فرد ابن المصحفي إلى منزله وأكرمه ووصله.

فينبغي لكي يابني أن تصنع للشجعان ما لهم من المزية والدرجة العليا.

الفصل الثالث:

القاعدة الثالثة، وهي قاعدة العدل

اعلم يا بني أن الملك بناء والعدل أساسه، وإذا قوى الأساس دام البناء، وإن ضعف الأساس أُنهار البناء؛ فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جبايا إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل؛ فالعدل أساس.

ومن استعمل العدل حض ملكه، ومن استعمل الظلم عجل هلكه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)¹.

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه سبحانه وتعالى أنه قال: (ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني اهدكم، ياعبادي كلكم جائع إلا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم، ياعبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني اكسكم، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل وأنا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني اغفر لكم، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد يسئلون فاعطيت كل واحد مسئلته ما نقص المخيط إذا دخل في البحر، ياعبادي إنما هي أعمالكم احصيها ثم أوفيكم أياها فمن وجد خير فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلمن إلا نفسه)².

يرويه أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر مسندا إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وكان أبو إدريس إذا حدث به جثى على ركبتيه.

1 - رواه البخاري في صحيحه، باب المرأة راعية في بيت زوجها.

2 - رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظلم.

وقال علي رضي الله عنه: (إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم)¹.

يابني من عدل زاد في قدره، ومن ظلم نقص من عمره.

وفي إشاعة العدل قوة القلب ورضى الرب، وتطيب النفس، ولزوم اليقين وأمان من العدو.

ولما دخل الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه مستلقيا بالمسجد موسد الحصا ودرته بين يديه فقال له: عدلت فأمنت فنمت.

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله بجمص أن مدينة حمص قد تخدمت واحتاجت إلى الإصلاح؛ فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام.

فإذا تقرر يابني أن العدل أس الدولة وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرياسة؛ فالملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الملك عدلا في نفسه، عدلا في رعيته وأهله وخاصته

اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تكون عدلا في نفسك، عدلا في رعيته، جاريا معهم على الطريقة السوية، موافقا للأحكام الشرعية، مستقيما في أحوالك، مرضيا في أقوالك وأفعالك.

يروى أن معاوية رحمه الله تعالى قال لصعصعة بن جرجان²: صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له: كان عالما برعيته، عادلا في أقضيته، عاريا من

1 - هو قول لعمر بن العاص. انظر ابن عساكر. تاريخ دمشق، نسخة إلكترونية منشورة على موقع المحدث: <http://www.ahlalhddeeth.com>، ج 46، ص 184.

2 - في النسخة الحجرية: بن صفوان.

الكبر، قائلا للحق، قابلا للعدو، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريرا للصواب، رفيقا بالضعيف غير محاب للقوى ولا جاف للغريب.

وكعمر بن عبد العزيز الذي ملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا.

وقد تقدم ذكره فينبغي لكي يابني أن تسير هذه السيرة وتقتفي هذا الأثر.

القسم الثاني: أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه¹

وينبغي أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه دون رعيته، صارفا همه إلى الآخرة، غافلا عن أمور الدنيا، لا يبحث عن عماله المقدمين لأعماله، ولا ينظر في ظلمهم لرعيته، ويرى أن عماله على منهاجه وطويته، ويحسن فيهم ظنه، وينظر أنهم لا يخرجون عما حده وسنه، ويرى أن ذلك من عدله، ومما يعد من فضله وجميل فعله.

يروى أن ملكا من الملوك كان عادلا في نفسه وخاصته يتشاغل بالعبادة ويأخذ في الانقطاع والزهادة حمل الناس على العدل فظن أنهم مجبولون على الفضل فلا يصل إليه إلا علم بلده دون البلاد البعيدة التي تحت يده فضاعت الرعية لعبادته، وتضرر كل من تحت إياله حتى خرجت بلاده واحتقره عماله وقواده، فكان سبب خراب ملكه وذهابه.

القسم الثالث: أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة والأحوال المعروفة من غير خسران ولا أحداث زيادة، مقبلا على أموره الدنيوية وإن كان مفرطا في بعض الأمور الأخروية.

فهذا يابني عدله متوسط وهذا كثير في ملوك زماننا.

1 - العنوان من إضافتنا.

القسم الرابع: أن يكون جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة¹

هذا وإن كان ضد الأول وهو أن يكون جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة، وهذه خلافة فرعون، فرعونية، يجور على رعيته ويعاملهم بخبث نيته، فيأخذ بالجناية غير الجاني، وينجز في المظالم من غير توار، ويغلب شهوته على عقله، وجوره على عدله، وينهمك في لذاته، ويبالغ في شهواته.

فهذا يابني ملك لا يعدل في نفسه ولا في رعيته ولا أحسن في ظاهره ولا في باطنه؛ ومثل هذا يكون ملكه سريع الخراب، وهلكه وشيك الاقتراب.

وهذا يابني مثل الوليد بن عبد الملك قال: كان عمر بن عبد العزيز يذكر الظلمة فيقول: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وقرّة بن شيك² بمصر، وعثمان بن حيان بالحجاز، ومحمد بن يوسف باليمن، امتلأت الأرض جورا؛ فأما الوليد فقال عبد الرحمن بن محمد الأنصاري: رأيت أبيات النبي صلى الله عليه وسلم وعليها المسوح السود؛ فلما قدم الوليد بن عبد الملك المدينة نظر إلى أبيات النبي عليه السلام فقال: ما بال أبيات النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها الجنب والحائض اهدموها؛ فقال حبيب ابن عبد الله بن الزبير: عمد إلى آية من آيات الله تعالى فمحاها، فبلغت كلمته إليه فكتب إلى خليفته على المدينة: أقم حبيبا على باب المسجد واضربه مائة سوط، وأقمه على البئر الذي على باب المسجد يترع بالبكرة ويصب في الحوض، فأخرجه وضربه مائة سوط وأقامه على البئر، وكان يوما شديدا البرد فمات.

وكان الوليد المتار مخلوع العداد لا يرعوي لعدل عادل، ولا يسمع النصيح لقول قائل حتى انتزع ملكه، وتبرد سلكه.

فهذا يابني لم يصلح دنياه ولا أخره ولا ظفر بطائل مما تمناه.

1 - العنوان من إضافتنا.

2 في النسخة الحجرية: قرّة بن شريك.

الفصل الرابع:

القاعدة الرابعة، وهي قاعدة جمع المال والجيش

وإنما جعلنا الجيش والمال معا قسما واحدا لأن كل واحد منهما متوقف على صاحبه، ومطلوب بمطلبه، فلا مال إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، وأصلهما العدل، لأن العدل يجمع المال، والمال يكفل الجيش، والجيش يحوط الرعية.

فإذا ثبت هذا فاعلم يا بني: إن الملك بالنسبة إلى ذلك على أربعة أقسام:

القسم الأول: (أن يجمع)¹ الملك والجيش والمال بقدر ما تحب إيالته من البلاد، وماله من الأقاليم والأعداد لا أقل من ذلك ولا أكبر ولا أصغر.

اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك، ولا يحملك الحرص على أن تكثر أعدادك، فليكن جيشك قدر ما يكفيك من المال، ولا تكون مفرطا لئلا يتعذر عليك الحال، لأنك إذا ضعف مالك كثر جيشك بل همك وتنكد عيشك، وصار عليك جيشك اعوانك، وأصبحت لقلة ذات يدك مهانا فيدعوك طلب الجيش إلى طلب الرعية، وإذا طلب الرعية فسد ملكك بالكلية، وإن كنت قليل الجيش كثير المال كان ملكك صائرا لاختلال، فإنه ربما تدعوك الضرورة وحوادث من أعدائك كثيرة منها: أن يريد عدوك الاستيلاء على بلادك ويحتقرك لقلة أجنادك، فيأخذ الأمر على حين غفلة، ويعتريك العدو دفعة، ولا تجد مهلة فتلتمس ضم الجيش بما عندك من المال فلم تجده في نفس الحال، ولا من يأخذه منك ولا يصدر بنفسه عنك.

واعلم يا بني أنه ينبغي لك أن لا تنفق مالك إلا في حقه، ولا تخرجه إلا في مستحقه، ولا تعطيه إلا فيما يصلح عنك ويجلب المنفعة إليك، ولا تسرف فيه في لذات دنياك، ولا في محارب لا تصلك إلى هواك؛ كالخروج عن الحد في الزينة

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

واللباس والبناء المفرط، الخارج عن القياس؛ فإن خير الأمور أوسطها، وأحسنها أوفقها وأضبطها.

يابني ينبغي لك ألا تعطي لغير فائدة فإن تلك سجية فاسدة، ولا تعطي ألفا لمن يستحق مائة، ولا مائة لمن يستحق ألفا، فإن فعلت ذلك كان ظلما وسرفا. يابني إياك أن تحملك شهوة الشكر على بذل المال فيفضي بك ذلك إلى الإقلال، فإنه إذا نفذ المال نفذ الشكر.

يابني إياك أن تحتقر ما تجمع من المال، لا من كثير ولا من اقلال، ولا تتسأهل بإخراجه وإن سهل عليك جمعه من خراج، فرب بحر تجمع من نقطة، ورب مستبحر يرف¹ بالترح²؛ فإن التبذير يؤدي إلى التدمير، والإمساك يؤدي إلى الهلاك.

فليكن يابني مالك موازيا لجيشك، ومقاوما بجندك، فقد يحدث في الزمان اعتلال من غير عدو ولا قتال، مثل أن يكون قحط في البلاد أو ثوران فتنة تؤذن بالفساد فتجد ما ترجع إليه من المال يقوي جيشك ويعتمد عليه؛ فإن كانت الفتنة فيضعف عليك العدو، وتسكنه إذا ظهر العدو، وإن كان القحط استعنت به على الرعية وانفقت في حقوق الرعية، فلا تؤثر في مملكتك فتنة ولا قحط ومحنة، ولا يبلغ الرعية حيف ولا ضغط، استغناء بمالك وتديريك وسياستك، وضبط أمورك.

وقد ذكرنا لك ترتيب خدمك وجيشك في قاعدة السياسة فلنذكر الآن جمع الجيش وكيفيته وحصره وكميته.

يابني ينبغي لك أن تتشاغل بجمع أجنادك، وتوفير احشادك واعدادك، وترتيب خدمك وقوادك؛ فتعدهم في زمن الرخاء لتجدهم عند الشدة والإواء.

1 - ورف يرف ورفا ووريفا، أي: اهتز واشتدت حضرة.

الحليل بن أحمد، م س، ج 1، ص 283.

2 - الترح بالتحريك: الشر التي نزع أكثر مائها.

ابن منظور، لسان العرب، م س، مادة نزع.

يابني عليك باستسلاف قلوب الأنجاد من قبيلتك، ومشاركتهم في كثير
وقليلك، واصطنعهم بالإحسان، ولا تغلظ عليهم فيضمروا لك الشتات، واخفض
لهم عند الاحتياج الجناح، وعامل من أظهر لك العداوة منهم بإظهار المودة،
وسايسهم حتى يرجعوا إلى حزبك، فإنك تبلغ منهم بحسن المحاولة ما لا تبلغ منه
بقبح المعاملة، وتنال بالسياسة واللفظ ما لا تدركه بالغلظة والعنف، فإن اصطناع
الأعداء مكيدة واستجلاهم بالخير ضرورة وكيدة.

يابني ينبغي لك أن تدخل الدواخل بين بعض اعدائك لتهد بذلك جانب
اعدائك، ولتوقع الشتات في قلوبهم، وتصدعهم عن مطلوبهم؛ فإنك إذا ادخلت
بينهم الدواخل، وجعلت أسافلهم عوالي وعواليهم أسافل فتطمئن من جوانبهم،
وتنحسر عواقبك بسوء عواقبهم، وتأمين من غوائلهم وشواغلهم، فيكون كل واحد
يتحرز من صاحبه ويطلب سقطة يوقعها في جانبه، فيعلمك بما انطوت عليه
أسراره، وما تحدث به صاحبه اضماره؛ فإذا تشاغل بعضهم ببعض وتشاجروا في
رفع وخفض رجعوا إلى صداقتك واصطفائك، ودخلوا في حزب أوليائك، ومالوا
إلى جانبك وإن لم يكونوا من أصحابك؛ لأن كل واحد منهم يحدو من صاحبه،
ويخشى من سوء عواقبه.

فهذا يابني مما يوجب ضم الجيش بعضه إلى بعض وسلامه من الاختلاف
والنقص.

يابني ينبغي لك أن تكون في (كل)¹ سنة تدرك جيشك وتدبر أمرك وترتبه
شيئا بعد شيء، وذلك بقدر تنمية المال وتكثيره، وضعفه وتوفيره، وعلى قدر
الاستطاعة والسياسة، والحركات والرياسة، لأن زيادة المال والجيش للملك تنويه
بملكه وزيادة في نظم سلكه، فيعظم قدره في أعين أوليائك، وتقطع رهبة في قلوب
اعدائك وقل أعوانك، ونقص ملكك وتلاشي سلطانك.

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ويكون ترتيب الجيش في العطاء على قدر بيتاقتهم وشجاعتهم وسباقتهم للخدمة، واصطناعاتهم وصحبتهم وانقيادهم، وألفتهم واجتهادهم.

وهؤلاء أهل الطاعة والمحابي والبلاد وهم القبيل والجماعة بل الحماة والأنجاد والأنصار، ما عدا ممالكك والمنقطعين إليك، المتصرفين في الخدمة بين يديك، فإن جريانهم في المرتب مشاهرة، وأرزاقهم من بيت المال مياسرة، جريا على توالي الشهور، وهم عندك في جريانهم على قدر طبقاتهم؛ فأصحاب البلاد يجوبونها في أوقات معلومة على حسب ماهي عليهم مقسومة، وذلك بقدر ما يقيم أولادهم ويصلح أهلهم وأودهم وخيلهم وعددهم، ثم تتفقد أموالهم جهد استطاعتك ليستمروا على خدمتك وطاعتك، لأن من فرط في جيشه أعان عدوه عليه، ومن تحفظ به فلا يجد العدو سببا إليه.

وبالإضاعة والتفريط فسد كثير من الملوك فأخرجوا على الملك و المملكة، كما اتفق لبني أمية وبني العباس، وكلمتونة والموحدين والشيعة والعبددين، لما أهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير، وركنوا إلى اللذات والتبذير.

القسم الثاني: أن يكون الملك يشغل بجمع المال ويفرط في الجيش¹

فهذا حاله غير محمود، وفعله عليه مردود؛ فإنه ربما دهمه عدو أقوى منه فيوشك أن يطلبه ولا ينفك عنه، وإن كان أضعف منه في المال فهو أشد عليه في القتال، فإن العدو يستهين عليك بقوته وكثرة جيشه وشدته، فتأخذ بلاده وتنال اطرافه وبلاده فتكون ذلك سبب خرابه وذلته واكتتابه، لأنه يطلب لمن يعطي المال فلا يجده في نفس الحال، فتدخل عليه الآفة من هنالك فلا يصل بالمنى، وإن أعطى المال فإنه لا يقبل منه ولا ينفعه، ولا يرد عنه بأسه ولا يدفعه، فإن الناس تعودوا منه قلة العطاء في الشدة والرخاء، وأن همته مصروفة بجمع الأموال، مجبولة على قلة

1 - في النسخة المحجرية: ويفرط في الجيش والرجال.

الإبذال، فمثل هذا الملك كمثل التاجر المجهول الميول على جمع (المال)¹، الكادح
لغير ولده، الجامع لغير ما ادخره من عدوه.

يروى يابني في اخبار بعض الملوك أنه كان له وزيران أحدهما يشير عليه بجمع
الأموال والآخر يشير عليه باصطناع الأبطال؛ فقال أحدهما: أرى أن الرجال إن
تفرقوا عليك اليوم فإنك بمالك تجمع كل القوم، فإنه متى احتجت إلى الرجال
وعرضت عليهم الأموال جاؤوك من كل مكان، وقضيت الغرض بهم في أي مهم
كان، فقال له الملك: ألهذا من شاهد؟ قال: نعم هل بحضرتنا الساعة ذبابة؟ قال:
لا، قل فأمرنا بإحضار جفنة غسل فحضرت، فتساقط عليها الذباب لوقتها،
فاستشار السلطان بعض اصحابه فنهاه عن ذلك وقال: الرأي الذي يبلغك غاية
آمالك أن تصطنع الرجال وتعد الأبطال، فليس في كل وقت أردتهم يحضرون، ولا
إذا أهملتهم ثم تطلبهم فينظرون، قال: هل لهذا من دليل؟ قال: نعم؛ إذا امسينا
أخبرك وأبرهن لك ما يذكر، فلما أظلم الليل قال الملك: هات الجفنة من الغسل
فأحضرت فلم تحضر ذبابة واحدة ولا ظهرت؛ فالفتنة ليل فأعد لها الرجال والخيول.
فينبغي لك أن لا تفرط في الجيش والمال كما ذكرناه، فإن الجيش والمال أمران
متلازمان إن ضاع أحدهما ضاع الآخر.

وقد سمعنا عن بعض ملوك مصر اسمه بلدفور كان يجمع الأموال ولا يحفل
بالرجال؛ فقال له اصحابه إن أمير الجيوش بالشام يتواعدك وكأنه قد قدم عليك،
فاستعد الرجال وأنفق الأموال، فأوماً إلى صناديق موضوعة عنده وقال: الرجال في
الصناديق؛ فغزا أمير الجيوش ذلك الملك في مصر فقتله، ولم تسلم الصناديق ولا
الملك، وكان رأيه رأياً فاسداً، لأن الرجال لا يقيمهم ويجمعهم عند حاجته إنما
يكون أحياناً، وشرذمة ملفقين ليس فيهم عنا² ولا عندهم دفاع ولا ممارسة

1 - ما بين هلالين من النسخة المحررة.

2 - في النسخة المحررة: ليس فيهم مناع.

الحرب، وكذلك اتفق للسلطان ابن تاشفين حين فرط في جيشه عندما حصره بني مرين مسك يده من العطاء في الحصار، واستعد بالحصار والقليل من الأنصار حتى كاد العدو أن يدخل عليه طلب لمن يعطي المال فلم يلتفت إليه أحد، فلم يجد من يأخذ المال وآل حاله إلى ذلك المآل دخلت عليه البلد عنوة فذل بعد العزة والنخوة، فايك يابني أن تفرط في الجيش اعتمادا على المال فإن ذلك مفسدة على كل حال.

القسم الثالث: أن يكون الملك يشتغل بجمع الجيش ويفرط في المال

وهذا ايضا غير محمود الفعال، اعلم يابني أنه لا يقبل لك عذر في قلة العطاء، ولا حجة لك في ذلك عند الأولياء؛ لأنك ربما دهمك أمر عدوك، مواز لك، يكون في الجيش مثلك وأقوى في المال يريد أن يدخل عليك بعض إخلال فيعطي المال لجيشه، ويخدع جيشك بماله وغشه، ومثل هذا مثل من قوى عدوه عليه وجلب هلاك إليه، وهذا مثل مصعب ابن الزبير مع عبد الملك بن مروان، وكيفية ذلك: أن مصعب لما التقى مع عبد الملك بن مروان كان عبد الملك كاتب أصحاب مصعب وبعث إليهم أموالا ووعدهم الأمان إن غدروا بمصعب، وكان في جملةهم ابن الأشتر وهو يعده بولاية العراق إن غدر بمصعب، وقال له ابراهيم: ما كتب لي عبد الملك حتى كتب لجميع أصحابك، وما هو في أحد أقل طمعا مني فهل اطلعك أحد منهم على ذلك؟ فقال: لا، قال: فارسل إليهم واضرب اعناقهم فإنهم كتموا عنك خبرا كتبه إلا وقد عزموا على غدرك، فقال له مصعب: لا افعل هذا من غير أن يصح عندي. قال: فارسل فيهم وثقفهم، قال: إذا لا يناصرنا أحد منهم من عشائريهم، يا أبا النعمان يرحم الله أبا بجر، يعني الأحنف ابن قيس، أنه كان يحذرنى غدر أهل العراق.

ثم إن عبد الملك زحف إلى مصعب فالتقيا بالجاثليق¹ فقتل إبراهيم، فقال مصعب لقطن بن عبد الله الحارثي: احمل عليكم أبا عبد الله في خيلك، قال: لا ترى ذلك؟ قال: ولم؟ قال: لأني أكره أن يقتل من صح في غير شيء، ثم قال للحجر بن بحرا يا أسيد قدم رأيتك، قال التقدم إلى هؤلاء أو قال ما يتأخر إليه والله أكثر لوما، ثم قال لمحمد بن عبد الرحمن: تقدم، قال: ما أرى أحدا يفعل ذلك فافعله؛ فقال مصعب يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم، يعني إبراهيم بن الأشتر لما كان أشار إليه بما أشار ولم يسمع منه، وعلم أنه كان ناصحا له من بينهم، ثم قال لابنه عيسى بن مصعب: الحق بعمك بمكة فاخبره بما صنع بي أهل العراق، ودعني يابني مقتولا؛ فقال والله لا تتحدث في قريش إني اسلمتك للقتل أبدا، قال: تقدم يابني بين يدي احتسبك فإني كنت اعرف منك الكرم وأنت في مهديك، فتقدم حتى قتل، فحول أهل العراق وجوههم وصاروا مع عبد الملك وبقي مصعب في شردمة قليلة، وجاء عبيد الله بن زياد بن طبيان وكان من أصحابه فقال له: اين الناس يا أمير المؤمنين غدروا بل ما اغدركم يا أهل العراق؟ فرفع يده عبيد الله ليضربه فبارزه مصعب وضربه على البيضة² فشب السيف في البيضة، فجاء غلام لعبيد الله فضرب مصعب فقتله، ثم جاء عبيد الله برأسه لعبد الملك بن مروان.

فلما نظر عبد الملك لرأس مصعب خر ساجدا، فقال عبيد الله بن طبيان: ما ندمت على شيء ندمي على عبد الملك حين خر ساجدا، إذ لم أكن أضرب عنقه فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد.

فلا تفرط يابني في ملك فيؤدي ذلك إلى اختلال حالك وتخونك اعوانك، ولو أنهم إخوانك، كما فعل أهل العراق بمصعب المذكور حين اسلموه وفروا عنه.

1 - الجاثليق: من أرض السواد بالعراق.

محمد بن عبد المنعم الجُميري، الروض المَطَّار في حبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط 2، 1980 م، ص 155.

2 - البيضة: الخصية. انظر الرازي، مختار الصحاح، م س، ص 86.

القسم الرابع: ضد الأول، وهو أن يكون الملك يفرط في الجيش والمال، ولا تصرف همته في ملكه إلى إصلاح حال

وهذا يابني في الملوك مرفوض معكوس الآراء منقوص، لأنه اشتغل بالانحماك والذات والمباني والزخاريف والترهات واللهو واللعب والفتك والطرب والحنين للقيينات¹ والآلات، والاستغراق في كل الحالات؛ فهذا يابني ملك افسد ملكه بيده، وأعان عدوه على أخذه ونكده.

يابني اعلم أن من يكون على هذا الحال لا يرجى له عاقبة مثال، ولا يدوم له سلطان ولا يعمر له أوطان لسوء فعله وتفريطه في جيشه وماله، واستغراقه في لذاته واشتغاله، وهذا سبب خراب بني أمية واستيلاء بني العباس عليهم بالكلية.

واعلم يابني أنه مازال أمر بني أمية مستقيماً حتى افضى إلى أبنائهم المتوفين، فكانت همتهم من عظم شأن الملوك وجلالة اقدارهم من قصد الشهوات وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله سبحانه وسخطه، جهلاً منهم باستدراج الأمن وأماناً من مكره، فسلبهم الله العز وأزال عنهم النعمة.

قال عبد الملك بن مروان، هذا هو المعروف بمروان الحمار، وهو آخر ملوك بني أمية: لما زال ملكنا وهربنا إلى أرض النوبة فيمن ابتغى من أصحابي فسمع ملك النوبة بخبري فجاءني وقعد على الأرض، ولم يقعد على فراش افترشته له، فقلت له: ألا تقعد على ثيابنا؟ فقال: لا، قلت: ولم؟ قال: لأني ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لله سبحانه إذا رفعه الله، ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟ ولم تطئون الزرع باقدامكم والفساد محرم؟ ولم تلبسون الحرير والديباج وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرم عليكم؟ فقلت له: لما قل أنصارنا يقوم من الأعلاج دخلوا في ديننا ولنا عبيد واتباع، فعلموا ذلك على كره منا، فأطرق ملياً

1 - القينات أي الإماء المغنيات، وتجمع على قيان.
ابن منظور، لسان العرب، مادة قين.

وجمال
و
يضعها

يقلب كفيه وينكث في الأرض، ثم قال: ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما
حرم الله عليكم، وطلبتهم فيما ملككم فسلبكم الله العز بذنوبكم، والله فيكم نعمة لم
تبلغ غايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم بيلدي فيصيبني معكم، وإنما
الضيافة ثلاثة فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي.

يا بني لازم التقوى وتجنب اللهو والهوى، ولا تغتر بالدنيا، وكن حازما في
جيشك ومالك تبلغ جميع آمالك إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث: في الأوصاف المحمودّة التي هي نظام الملك
وجماله وبهجته وكماله .

وهي قواعد أربعة: الشجاعة، والكرم، والعفو، والحلم؛ وهذه غرائز وطبائع
يضعها الله سبحانه في من يشاء من عباده.

الفصل الأول: القاعدة الأولى، وهي الشجاعة

اعلم يابني أن الشجاعة وصف محمود وبها يتفاخر الوجود، وخصوصا في الملوك فإنما لما أثرهم كالوسائل في السلوك.

وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عند المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التقى.

يابني إذا وضعت قتالك في موضعه وحذرت ما يتقى من مصرعه كنت شجاعا كاملا، وفي الحروب شهما باسلا، وإن تركت الحذر في حين القتال وتوكلت على شجاعتك في ملاقات الأبطال، والمباشرة بنفسك للأهوال كانت شجاعتك هرجا، وقوام حربك عوجا.

واعلم يابني إذا كان الملك شجاعا كان منصورا مطاعا ترهبه الأعداء، وتطمئن به الأولياء، يعتد به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب؛ فالشجاعة يابني مملكة للمحاسن محبوبة في كل المواطن، فرب الشجاعة بالرعب منصور، وفي زمانه معظم مذكور.

وينبغي لك يابني وإن كنت شجاعا أن تتحذر الوقائع التي تخاف فيها المصارم، واعلم بأن الشجاعة والكرم أخوان، ودليلهما أن الشجاع يجود بنفسه فأحرى أن يجود بماله، والبخيل ييخل بماله، فكيف يجود بنفسه في حاله.

والشجاعة تنقسم على أربعة أقسام.

القسم الأول: الشجاعة التي يصحبها الرأي

اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تكون حاضر الذهن عند الملاقات رابط الجأش عند تلاقي الساعات لا ترحزك الرياح العواصف ولا ترهبك القواصف ولا الحروب على اختلاف أنواعها ومعظمت إيقاعها.

وقد قدمنا أنه لا ينبغي لك أن تخاطر بنفسك ولو كنت أشجع أبناء جنسك، فإن المخاطرة غير محمودة إلا في طلب الملك والسلطان فإنها محمودة كل أوان. يا بني إذا اقتحمت القتال واختلط الأبطال بالإبطال فغايتك أن تكون حاكما على نفسك، صابرا ثابتا في جيشك، ناظرا على ساقاتك التي هي قلب جيشك، فيلتزم بما الثبات، ولا ترحز إلى جهة من الجهات، ولتشد بثيابك الأنجاد والحماة والمقاتلين والكمأة¹؛ وإن انكسر أحد الجانبين من جيشك فلا تهم به ولا تنتقل بسببه؛ فإن انكسار الجانبين مع ثبات القلب لا يضر، والصبر في مثل هذا عائد عليك (بما)² يسر؛ لأنه إذا كانت رايتك القلب تحقق، وطبوله تزهو كان ذلك حصنا للجانبين، وأمانا للعسكر من الجبن، وأرجى للظفر بالعدو، وعند خروج الجانبين.

يا بني إذا لاقيت عدوك في الحرب فاجعل رأيتك أمامك، ونظرك أمامك، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا؛ فإن الالتفات يورث خبالا، لأنك ربما رأيت في أحد الجانبين انكسارا فيتشوش خاطرك، ويدعوك الشره ابتدارا فتميل إليهم بمن معك من العساكر، فيكون ذلك سبب فسادك في الباطن والظاهر، لأن ميلانك سبب الفساد، وخروجا عن الاقتصاد، لأنه إذا رءاك جيشك ملت لأحد الجهتين حسبوا أنك منهزم دون ميز، مع أنك لا تقدر على جبر الجانب الذي انهزم، والركن

1 - الكمأة: الحفاة، تقول: كمي الرجل، إذا حفى ولم يكن عليه نعل.

انظر: الجوهرى، الصحاح في اللغة، م س، ج 2، ص 123.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

(الذي)¹ تلثم لما دخل الرعب قلوبهم، وفسد الترحزح أسلوبهم؛ فالذي يجب عليك أن تجمع خاطرك، وتثبت في عدوك ناظرك، مصمما إليه، عاملا في اللقاء عليه.

يابني لا تخل شجاعتك عن الرأي تنجح مطالبك في كل سعي يرجى لك الظفر والنصر والاستيلاء على العدو والظفر.

يابني رتب جيشك يوم الحرب واللقاء؛ فإن في ترتيبه إرهابا للأعداء، وهيئة هيئيا حسن الانتظام، مضبوط الأنقسام على أربعة أقسام: ميمنة من حماة أنجادك، وميسرة من كفاة اجوادك، وتقدمة من أبطال فرسانك، (وساقة)² من أسود شجعانك، وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا مقدما مرغاما، فأما المقدمة فتقدم منهم فرسانا بين يدك يكونون في نحر العدو إذا قصد إليك، من أنجاد قبائلك الشجعان وأهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان، وتقدم عليهم قائدا من الأبطال الخائضين بحور الأموال، واجعلهم على قسمين: قسم يلي الميمنة بين يديها وقسم يلي الميسرة بين يديها، ويكون قتال كل قسم من هذا القسمين الذين في الجهتين مستنديين لمن خلفه من الميمنة والميسرة، فتكون الأجنحة بأولئك الحماة منتصرة، وأما الساقة وهي قلب جيشك فاعلم يابني أن الساقة توازي الميمنة والميسرة فإن القلب يوقف الجيش ويشده، ويصد العدو ويرده، فلا يكون فيه إلا أهل الشجاعة والنجدة والكفاية والشدة من كل بطل مقاتل وشهم في الحروب باسل، تخافهم الأبطال وتقيهم أسود التزال، فترتب هذه الساقة وتجعل عليها من زعماء خاصتك الأنجاد وحمايك الأسود الأفراد قائدا عن يمينها وقائدا عن يسارها، ويضبطانها ويحفظانها في إقبالها وإدبارها وإيرادها وإصدارها، لتبقى الساقة موفورة وحمائها مضبوطة محصورة، بحيث لا يقبل أحد من الساقة ولا يختل ولا يترحزح ولا

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

يتحول، ولو أنكستها الميمنة والميسرة فإن الساقية تبقى معه على حالها، منعقدة بحماها وأبطالها.

وليكن تشوفك على عدوك غير ملتفت كما قلناه ولا ناظرا لشيء سواه، وتوكل في جميع أمورك على الله تعالى.

يابني وينبغي لك أن تتخذ فرسانا بين يديك تقتد بهم إذا اقبل العدو إليك يكونون¹ يواجهون عدوك وساقته إذا عزمت على ملاقاته، لأنك عند التقاء الجمعان² وتزاحم الصفين تلبس عليك جهة العدو ولا تدري العدو من الصديق، لأنهما إذا اختلط الأبطال بالإبطال وارتفع القتام³ ارتفاع الأول، والتفت الصفوف ورجفت الرجوف فهناك يابني تحتاج إلى فرسان الاقتداء وأرسال الاهتداء يعلمونك بجهة عدوك فتقصده متوجها إليه، عاملا بأنصارك عليه، فإن التبس على الأبطال الذين بين يديك جهة العدو ولا يدرون البعد من الدنو، ولا أين تقصد إليه ولا من أي جهة تحمل عليه من اجل اختلاط الناس واقتحامهم وإقدامهم، ثم انكشف غيب⁴ العجاج، وظهرت من الجانبين أسود الصياح، فتبين لك العدو إما عن يمينك وإما عن شمالك غير مواجه لك في إقبالك، فينبغي لك أن تسير سيرا رفيقا تلقاه، وتحاول في انفتالك مواجهة إلى أن تقصد لقاءه، وليكن ذلك بين توقف وإمهال بحيث لا يشعر جيشك في الانتقال، لأن في ذلك فائدة عقباها بالنجاح لك عائدها، وهي إتراك عدوك مع ثبوت ساقتك ووفورها وعدم ترحزحها ونفورها، فرما ينتقل عدوك بسرعة إليك يريد الهجوم عليك، فيكون ذلك لسبب فسادة وانخزامة وقهره وإرغامه، لأن الانتقال في الحروب مؤذن

1 - في الأصل يكون، وفي النسخة الحجرية يكونون، وهي الصواب.

2 - في الأصل الجمعان والصواب الجمعين.

3 - القتام: الغبار. والقتمة: لون فيه غيرة وحمرة.

الجوهري، الصحاح في اللغة، ج 2، ص 62.

4 - الغيب: الظلمة، والجمع الغيايب.

الجوهري، الصحاح في اللغة، ج 2، ص 27.

بالأنهزام وفوت المطلوب، لأن الميمنة والميسرة ناظرة للقلب، وعليها المعول في الحرب، فإذا رأى أهل ميمنة الجيش وميسرته أن العلامات انتقلت والساقة تحولت انتقلت الميمنة والميسرة انتقال القلب الذي هو مركز مدار الحرب، فإذا رأى المقاتلون أعلامهم انتقلت وساقاتهم انفضلوا وانخذلوا، وطلبوا الفرار لثلا يقتلوا، وظنوا أن ملكهم قد انهزم وأن جمعهم قد أنخرم فيفرون من وجه المعترك، وتقل النجدة ومعظم الحركة، فتختل الساقة باختلالهم، ويفشل الجيش لانفضالهم؛ وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى على من عرف مواقف الطراد.

وهكذا اتفق لأبي الحسن المربني عند لقائه للفنش الطاغية فكانت عليه الفسدة الناكية؛ وكيفية ذلك: أن السلطان أبا الحسن لما أخذ تلمسان واستولى على هذه الأوطان وملك المغربين الأوسط والأقصى، وبلغ منها الغاية واستقصى، أخذ في الجواز إلى الأندلس غازيا، يريد أن يكون للإسلام حاميا بعد أن فسد ملك الطاغية النصراني، وأخذ ما كان له في البحر من الطرائد والسواقي، وشرع في الجواز من غير تواني، فجوز ما أعد من الأعداد، وما ولف من الأحشاد والإمداد، ونزل بظاهر الجزيرة الخضراء وأرهب مجموعة الطاغية وجميع الأعداء، وذلك ينيف على ستين ألفا من الأبطال والصناديد والحماة والرماة والرجال.

ثم زحف لبلد طريف لما جاء معه من التليد و الطريف فترل بما محاصرا لها ولو شاء من يومها لدخلها لكنه امسك عن دخولها للحين المتاح، ورأى أن الإبقاء عليها من السداد والصلاح، وأقام عليها مدة إلى أن اقبل الفنش الطاغية بمن معه من الكفرة الباغية، ولما أتى النصراني للقائه بمن معه من حزب الشرك وأوليائه قصد أبو الحسن إليه لما رأى أنه عول عليه؛ فلما تصافت الصفوف وأقبلت نشأة الحرب للرجوف، والتحم القتال، وتقدمت الأبطال، واشتد الحرب، وتولى الطعن والضرب، نظر أبو الحسن إلى الطاغية متحد عن مواجهته، منكبا على جهته يطلب جانبا من جوانبه ليجد فرصة في مناكبه، فانتقل أبو الحسن إليه لما قدر من المحن

عليه (وكان انتقاله إليه بسرعة يريد الهجوم عليه في مرة واحدة)¹ دفعة، فراه المقاتلون قد انتقل بعلاماته وسياقته يريد الفئش وملاقاته، فظنوا أنه انخزم، وأن قلب عسكره قد انخرم، فانكسرت الميمنة والميسرة، وكانت عليه تلك الهزيمة المنكرة، انكسر لها الإسلام، وفرحت لها عبدة الأصنام، وذلك بسبب انتقاله وقلة ثباته في قلبه وأبطاله.

فياك يابني والانتقال عند الملاقات في القتال فإن ذلك سبب الانفصال، وقد أخبرتك بهذا المثال.

يابني وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالجملة ولتأخذ في أمرك بالتأني والمهلة فإنه لا بد لكل دفعة من رجعة، ولكل كره من رفعة، ليكن انتهاضك إلى عدوك زحفاً، فإنك ترهبه خوفاً ورجفاً، فإن أبطالك تقاتل بين يديك معتمدة في قتالها عليك، فإن انخزم العدو وفر أمامك ونلت من هزيمته مرامك فلتبادر من فورك إليه، ولا تمهل في مسيرك عليه، ولتكن حملتك خلفك وأثقالك وأسبابك وأموالك، ولتصل في أثره مسيرك في ليلك ونهارك، حتى تنال من عدوك غاية اختيارك، فإنك إن بادرت به أخذت إقلاقه، وحويت أثقاله، وقتلت حماته وأبطاله، وربما قعد بالعدو جواده وخانته أجواده، أو كبا حصانه، أو عثر أو دهش وتعذر، فتظفر بعدوك من غير تحرير طلب، ولا تكرير تعب، وإن نجا العدو برأسه وفر بنفسه، ثم وصل إلى أمنه وحصنه الذي عول عليه، لأنه لا يصل إلا في جهد وضعف وتزلزل، وزحف منقطعاً عن حماته، منفرداً من أنصاره وولاته، فيسهل لك أخذه من غير تطويل، ويتسنى لك الامتلاء عليه من غير تعجيل.

يابني وإن كان الأمر إليه لا إليك، وتفرق جيشك من بين يديك، ولا ترتجى له خيراً ولا عوده ولا عطفه ولا نجده، ولم يقف عليك أحد من حماتك ولا من قوادك ولا من أنصارك ولا أجنادك، فحينئذ تحتاج إلى جوادك الذي أعددت، وإلى

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

وزيرك الذي تخيرته واستحسنه، فتنفرد بوزيرك المخصوص بتدبيرك، المشاور في قليلك وكثيرك، فتقصد معه إلى معقلك الذي أعدته لحصارك، واستخلصته لحالك ولأنصارك، فإذا استقررت في حصنك الذي هو موضع أمنك ومنشأ سلطانك وقاعدة بنيانك، فتتحيل على عدوك بأنواع الحيل وضروب المكائد التي تبلغ بها الأمل، وتأخذ في مدافعتك عن حصارك، ولا تغفل عنه في ليلك ولا نهارك، ولا تكل أمر معقلك إلى أحد من خدامك، و لتباشره في كل أيامك.

فإذا كنت يابني بهذه المثابة في الاجتهاد فلا يتصل منك العدو بمــــراد.

القسم الثاني: من الشجاعة ما يصحبه العقل دون الرأي

وهو أن يكون الملك عاقلاً في نفسه يقظاناً في أحواله، دهقاناً غير طالب فتنه، ولا خالف محنة، يشتغل بآخرفته، ويغفل عن رعيته، ولا ينظر في أمر جنده، وفي شأن من دخل في عهده، ويرى أنه من زهده، ولا يضر أحداً من الأعداء، ولا تصله يد الاعتداء، حتى إذا نزل به أمر، وساء من عدوه مكر، أظهر حينئذ شجاعته وبدأ براعيته، وذلك حين لا ينفعه إظهارها، ولا يستحر له نارها، ولا يغنيه استحقارها.

فهذا يابني شجاعته غير محموده، ومنقلة النجابة معدودة؛ لأنها شجاعة عن الرأي قاصرة، فهي مذمومة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة.

القسم الثالث: أن تكون شجاعته غير مفرطة بل بين ذلك متوسطه

فهذه يابني شجاعة محموده الأثر، جميلة السير وإن كان الذي في قبله أشجع منه فهما يقصران عنه فإن الشجاعة المتوسطة إذا صاحبها الرأي لا يكون صاحبها إلا ناجح السعي لأنه يحاول برأيه ما لا يحاول بشجاعته وينتفع بنفسه إن نجا إلى براعته فبرأيه يقص عن الحروب ويبلغ غاية المرغوب لأنه يحاول في دفع المكاره ويلقي ملاقاته الأسد الشاره، فهذا يابني إذا حل به كرب أو دهم من عدوه خطب لا يرجف له قلب، ولا يداخله رعب، هذا وإن لم يبلغ في شجاعته الغاية فهو

تدبيره في غاية النجاة الكافية، كصاحب القسم الأول قدمناه، وبالشجاعة والعقل ذكرناه.

فمثل هذا يابني إذا كان الأمر عليه واحد من رايته ما يرجع إليه، فهذا أحسن حال من الذي قبله وإن لم يكن في الشجاعة مثله.

القسم الرابع: الشجاعة التي لا يصحبها عقل ولا رأي

فهذا يابني شجاعة مذمومة وبالجهالة موسومة، وهي في الحقيقة هدر، والعمل بها خطر، لأنه إذا كان جره¹ لا يتمالك أن ينغمس في القتال، ويلمح بمروره² في معمهة الأبطال من غير رأي ولا نظر في الأمور ولا تقدير.

فمثل هذا يابني أوله للمك وآخره لزوال الملك.

1 - في النسخة الحجرية حرب بدل جره.

2 - هراء، هرو أهرأ الرجل في منطقته إذا لم يكن لكلامه نظام، ومنطق هراء كثير.

الصاحب بن عباد، م س، ج 1، ص 319.

الفصل الثاني: القاعدة الثانية، وهي قاعدة الكرم.

الملك إليها بالنسبة إليها على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الملك كريما متوسطا¹

اعلم يابني أنه ينبغي للملك أن يكون كريما متوسطا لا مقترا ولا مفرطا.

يابني ليكون كرمك على نفسك ورعيتك من غير تبذير ولا إسراف في التقدير، فإن ذلك هو الكرم المحمود، والذي يستعمله أهل الديانة والجلود، لأنك يابني إذا كنت كريما تحبك النفوس، وتميل إليك القلوب، وتخضع لك الرؤوس، وفي الحديث: (جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)².

والإحسان أملك شيء للإنسان، والكرم من الشجاعة، والشجاعة من الكرم. وبصفتيهما يتصف كل فرد علم، كما أن البخل من الجبانة، والجبانة من البخل وبصفتيهما يتصف كل لئيم، وكل واحد من هذين³ الصفتين يرجع إلى أصل يحكم به عليهما: حكم الفضل؛ وذلك أن الشجاع يابني يجود بنفسه فأحرى أن يجود بماله، والبخيل ييخل بماله فأحرى أن ييخل بنفسه؛ فتأمل هذا المثال يظهر لك المقال.

يابني فمن كان كريما شجاعا كان محبوبا مطاعا، يجد من يعضه في المهمات والحروب، ويفرج عنه نوازل الكروب، ويفديه بنفسه، ويود دونه حلول رسمه⁴.

يابني وإذا كان الملك شجاعا بخيلا كان في شجاعته دليلا يسلمه قومه في المواقف، ولا يساعده من الشجعان، بل يعد من أهل الحسد والهذيان، فإذا اشتهر

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - رواد البيهقي في شعب الإيمان، نسخة إلكترونية منشورة على شبكة الأنترنت، موقع:

<http://www.alsunnah.com>، باب قصة إبراهيم في المعانقة، ج 18، ص 491.

3 - هكذا في الأصل، والصواب: كل واحدة من هاتين الصفتين.

4 - الرمس: القبر المستوي مع وجه الأرض؛ قال ابن منظور: إذا كان القبر مدرما مع الأرض فهو رمس أي مستويا مع وجه الأرض. لسان العرب، مادة رمس.

الملك بمكارم الأخلاق هرع له الناس من جميع الآفاق، وكثرت له المادة من أنصاره، وتحلى بالمحامد في أمصاره، وتحدث به في غير إقلاله، بل أقلله وأنصاره، و(توفر)¹ خبره، وعظم مجده، وقل معانده، وكثر مساعدته، وانقهر حاسده، ورحبت أوطانه، وتفاخر سلطانه؛ لأنه يتحلى بصفة من صفات الباري فلا يجاريه في سلطانه مجاري.

فهذا يابني غاية الكرم المحمود الذي يتصف به المتحلي بالجلود.

القسم الثاني: أن يكون الملك كريما على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته²

أن يكون الملك كريما على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته، فهذا كرم غير محمود، ولا هو من الجود، لأنه يقتصر على نفسه وأهله، ويرى أنه من جميل فعله؛ اللهم إلا أن يكون ذلك إثارا على أهل الحاجة، فإقتارده على نفسه ليس بسماحة، فهذه صفة أهل الجود، الذين مثلم قليل في الوجود، قال الله تعالى في مثل هؤلاء: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)³.

فهذا يابني إذا كان بهذه المثابة ففيه أعظم أجر وإصابة.

القسم الثالث: أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله دون رعيته⁴

أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله دون رعيته، فهذا الكرم يابني غير محمود، والمتصف به متصف بصفة الحسود، فإن هذا الكرم يحمله على أخذ أموال الناس، بل الرعية، وجريانه على غير السبيل السوية، ينفق في لذات نفسه الأموال،

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - العنوان من إضافتنا.

3 - سورة الحشر، الآية 9.

4 - العنوان من إضافتنا.

ولا يؤثر رعيته بأفضال، ولا يواسي من تعلق به من الإبطال؛ فهذا مسرف في السلاطين، والله لا يحب المسرفين.

فهذا يابني يأخذ من الضعيف والقوي، ولا يبالي بفقر ولا غني، فهذا يابني إذا احتاج إلى المال فلا يجد من أين، كان إسرافه قد أفضى به الجبن.

فإياك يابني والجري على هذا المثال فإنه سبب الهلاك والزوال.

القسم الرابع: أن يكون الملك كريما على نفسه دون خاصته ولا رعيته¹

أن يكون الملك ضد الأول، لا يتكرم إلا على نفسه، ولا يتكرم على خاصته ولا رعيته، بل يحتكر المال بكليته.

فهذا يابني لا يعد من الكرام، ولا ينتظم في هذا النظام، ومثل هذا لا يترك شيئا للرعية، ولا يجري على السوية، بل يأخذ من مستحق وغير مستحق، وينفق ذلك في المغاني والملاهي والمباني، فلا يجد ما يصادر به دنياه ولا ما يلقي به أخراه، ويرى أنه مع ذلك كريم، وهو في الحقيقة مسرف لئيم، ولا كرم له على نفسه، ولا على خاصته ولا على رعيته، وهذا من سوء فعله وهويته.

فإياك يابني والتحلي بهذه الصفات فإنها مجلبة للآفات.

1 - العنوان من إضافتنا.

الفصل الثالث: القاعدة الثالثة، وهي قاعدة الحلم

وفي الحلم من الأوصاف المحمودة والأحاديث المسنودة ما يحصى كثرة ولا يستقصى حصره وهو بالنسبة إلى الملك على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون الملك حليما على خاصته ورعيته¹

أن يكون الملك حليما على خاصته ورعيته، يعاملهم بحسن نية، يحلم عنهم في صغار الجرائم، ويقتص منهم في العظائم، فهذا ملك غالب عقله على هواه، فإنما فضله على سواه.

فهذا يابني هو المحبوب عند الناس، الكثير الحلم والإيناس، يحبه الضعيف على حلمه، وصفحه عن صغير جرمه، فرعيته مأمونة، الغالبة لحسن سيرته، سالمين لمجاوزته عن زلاتهم وصفحه عن هواهم، بل هفواتهم، فهذا حلم محمود ينتفع به في الوجود، والحلم وصف من أوصاف الباري تعالى، والمتصف به محمود في الآخرة والأولى.

القسم الثاني: أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة²

أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة، لا يؤاخذ إلا خاصته خاصة، فمن عمل من الخاصة ذنبا فتستوجب عليه العقوبة عاقبه، ومن عمل من الرعية عملا يستوجب به العقوبة ترك مطالبته، ولا يأخذ من زلاتهم، بل ويصفح عن هفواتهم، وليعاقبهم لضعفهم، وقلة قدرتهم وخوفهم، وضعف عقولهم وحقارتهم وخمولهم، ولاختلاف طبائعهم، ولقلة وقائعهم؛ إلا أن الخاصة ينتقم منهم، ولا يعفو عنهم؛ يرى أن ذلك زجرا لهم وردعا، وكفا عن العامة وقمعا، لئلا يتأذى الضعيف، ويقع من أهل الجناة لهم التخويف.

1 - العنوان من وضعنا.

2 - العنوان من وضعنا.

فهذا علم غير محمود، منكور في الوجود، لأن من العدل المساواة في الأحكام بين الخاص والعام، بل الخاص أولى بالحلم في صغائر الجرائم من العامة. فإياك أن تعفو إلا عن مستحق العفو.

القسم الثالث: أن يكون حلمه على الخاصة دون العامة¹

أن يحلم الملك عن الخاصة دون العامة، فهذا عين الآفة الطامة.

اعلم يابني أن الخاصة إذا حلم عليها تأذت الرعية منها، وتلاشت أحوالها بالكلية؛ لأنه يابني من العدل في الحلم المساواة بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، وفي العقوبة كذلك أحسن ما يسلك السالك، فإن كان بخلاف هذا فهو الظلم الصراح، الذي ليس يباح فاعله.

القسم الرابع: أن يكون حلمه مضطرباً²

أن يكون حلمه مضطرباً أحياناً، فأحياناً، تارة وتارة، لا يقف عند حد في أقواله وأفعاله، ولا يأمن أحد من اغتياله؛ فهو طبع المجانين بغير تأمين.

فهذا يابني حلمه مذموم ولو نسب له الحلم، لأنه لا يأمن أحد حلمه، ولا من غائلته وسمه، فالعامة تخاف نكاله، والخاصة لا تأمن اغتياله.

1 - العنوان من وضعنا.

2 - العنوان من وضعنا.

الفصل الرابع: القاعدة الرابعة، وهي قاعدة العفو

اعلم يابني أن العفو وصف محمود، وفضل يتصف به أهل الجود، وتألفه الوجود؛ لا سيما في الملوك عند القدرة، فإنه من أحمد الخصال في الشهوة.

والملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة¹.

أن يعفو الملك عمن يستحق العفو، ويعاقب من يستحق العقوبة، ويجري في ذلك على حسب الأوقات والأشخاص والطبقات، فرب شخص يستحق العقوبة فيعفو عنه، وآخر لا يترك ويقتص منه، وذلك بمصلحة دنيوية لا لأمر أخروية.

يابني ورب شخص لو عوقب لأدت عقوبته إلى الفساد، وآخر لو ترك لخرق المعتاد، واقتضت الحال إلى المشاجرة والعناد.

واعلم يابني أنه لا يسع العفو عن هتك الحرم، وإفشاء السر المكتتم، والقدرح في الملوك فيما يحل نظم السلك، فمن اشتهر من هذه الثلاثة أصناف بالأخذ بهذه الأوصاف فجزاؤه القتل بلا خلاف.

يابني لا تبق على هذا الحال إلا أن يكون في الإبقاء عليه مصلحة عامة تعود عليك وعلى رعيتك بالمنفعة التامة، فإبقاءه أولى وعفوك عنه حذر وأحرى، فإن الملك إذا عفا لمصلحة العامة فقد أخذ الفتنة الطامة، وشكر على عفته، وحسن ذلك من سنته، وهذا العفو محمود وصفته من الكرم والجود.

يابني والعفو عند القدرة في الخلافة أصل، وفيه مروءة وفضل، كمال وعقد، تصلح من أحوالك ما لا تصلح بمالك، وتدبر بالعفو ما لا تدبر بالسياسة وتصلح بالسياسة، فإنه قد رأينا أصحاب الجرائم العظام التي لا يجب فيها إلا الحمام يجلبهم العفو إلى الإذعان، ويقودهم ما تعودوا من الأمان، فلو بذلت لهم الأموال وأعددت

1 - العنوان من وضعنا.

لهم الحماة والأبطال لما قدرت عليهم، ولا توصلت إليهم، فالففو من تجاوزات الملوك النافعة وخير ما يجعل الإنسان صنائعه.

يا بني لا يترك ملك لولده اسنى من العفو والصدق والصفوة والإحسان، ولا أحسن منه ولا أجمل ولا اسنى ولا أكمل.

يابني من إفشى سره فعاقيه سرا، ومن إفشى سره فعاقيه جهرا. يابني لا تقتل وزراءك إلا بسبب ظاهر للوجود، فإن قتل الوزراء ليس بمحمود، لأن الملك إذا قتل وزراءه أذن ملكه بالخراب.

يابني إذا قتلت وزيرك على أدنى الأسباب كان فعلك غير صواب، ويخشى عليك ما يتطرق لك من هذا الباب، فلا تأمن غائلتك الوزراء، ولا أنت تأمن شرهم على الولاء، فإن في ذلك فساد النظام، ومذمة عند الخاص والعام.

القسم الثاني: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ومن لا يستحق العفو¹

أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ومن لا يستحق العفو، فهذا عفو غير محمود، لأن من الجرائم جريمة لا يحسن العفو فيها، والعقاب أجمل لتلافيتها. يابني ومثال ذلك في إفشاء الأسرار التي لا يقال فيها لأحد عثار، وكذلك هتك الأستار، لأن ذلك في جنابك هضم (وقلة قدرة)² وعجز ووصم، وذلك مما يؤدي الوزراء، ومد اليد من الحجاب والكبراء، وفساد ظاهر للبادي والحاضر.

فاعلم ذلك يابني والهمة وتدبره وخذ به وتعلمه

القسم الثالث: أن يكون العفو من الملك متوسطا³

أن يكون العفو من الملك متوسطا لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا، لا تنتهي عقوبة الجناية إلى مقدار الجناية، ولا يتوصل فيها إلى الغاية، بل يعاقب من وجب

1 - العنوان من وضعنا.

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

3 - العنوان من وضعنا.

عليه القتل بالقرب، ولا يبالغ في الانتهاك والنكب، ويرى أن ذلك عفو، والعمل به
مورد (صفو)¹، فيرى أن ضربه اتقاء على نفسه، وهو عفو منه إذ لم يلحقه
برمسه.

فهذا يابني عفو غير محمود، لا من صفاة الجود، لأنه يابني من استحق القتل
فجزاؤه القتل، ومن استحق الضرب فجزاؤه الضرب، وهو الأصل.

فاعلم ما شرحت لك واسلك فيه أحسن مسلك.

القسم الرابع: أن يعفو الملك عمن لا يستحق²

أن يعفو الملك عمن لا يستحق، وذلك كمن يهين البار ويكرم العاق، أو من
أفشى سرا وهتك الحرمة، ونقض العهد والذمة ثم عفا عنه.

فهذا يابني عفو غير محمود، والإبقاء على هذا ليس من الجود، أو كمن يعاقب
حاجبه وكتابه في الكلمة تصدر عنه غلطا، أو تبدو منه هفوة وسقطا فيعاقبه فيه
بالقتل؛ فهذا يابني خلاف الأصل، فإن عفو هذا مذموم وعقوبته مذمومة، وخلافته
بالحماقة موسومة، إلا من كان في العفو مصلحة عامة كما قلناه، فيحمل عفو
كما قرناه.

فاعلم يابني والله يرشدك إلى ذلك ويجزيك أحسن المسالك، بمنه لا رب سواه
ولا معبود غيره.

واعلم يا بني أن السياسة بما قوام الملك، وهي سبب النجاة من مواقع الهلك.
فاحفظ يابني ما شرحنا لك فيها لتصلح به الدولة، وتحسم به كل علة، واحتفظ
بذلك ترشد.

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - العنوان من وضعنا.

الباب الرابع:

في الفراسة وهي خاتمة السياسة

اعلم يا بني أن الفراسة قوة نفسانية، وأسرار ربانية، يؤيد الله بها النفوس حتى ينقلب لها المعلوم كالمحسوس، وينطبع في مرءاتها كل خفي حتى كان الأمر جلياً. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه ولده منكسر الطرف بسبب امرأة لقيته، فجاءه وكان غض بصره من حين رآته إلى أن دخل على أبيه عمر رضي الله عنه، فقال له عمر رضي الله عنه: أيدخل علي عبد الله بن عمر وأثر الزنا على وجهه، بل في عينيه؟ فقال عبد الله لأبيه: أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ (قال لا)¹ وإنما هي فراسة المؤمن، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)².

وينبغي أن تكون فراستك في وزيرك، وكتابك، وجلسائك، وقاضيك، ومفتيك، وصاحب شرطتك، وعمالك، وصاحب أشغالك، وقوادك، وسائر أجنادك، وعدوك، والأرسال المتوجهات من قبلك إلى الملوك أمثالك، والكتب الواردة عليك من العدو وغيره.

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

2 - أخرجه الترمذي في سننه، باب: ومن سورة الحجر، نسخة إلكترونية منشورة على شبكة الأنترنت، موقع: <http://www.al-islam.com>، ج 10، ص 399.

وقد بحث عن ما جاء في بداية هذا الحديث بكل رواياته بخصوص مقدمته التي ذكرت ابن عمر، ولم أجد فيها تلك المقدمة.

الفصل الأول: فراسة الملك مع وزيره¹

فأما فراستك في وزيرك اعلم يابني أنه ينبغي لك أن تتفرس في وزيرك الذي اتخذته لرأيك، وشاركته في قليلك وكثيرك، وتنظر إلى أقواله وأفعاله، وكافة أحواله؛ فإذا تكلم في المسائل المرة بعد المرة، فيما لا ينفع الخلافة ولا يعود عليها بمسرة، مثل تعيين لك عند أحد مال، تعرض لك في تركه في نفس الحال، أو ألح عليك في الكلام، أو أظهر لك وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوبات وإقلاله، وقلة وجدانه ورقة حاله، فتعلم أنه أراد منفعة نفسه فأزجره يابني عن مقاله، ومره أن لا يعود إلى مثله، فإن تمادى عليك بالإلحاح وجدّ في ذلك، فتعلم أنه قد رشي على مالك، وإن كف بعد أن زجرته ولم يعد إلى الكلام الذي عنه زجرته، فتعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض، ولا داعية تدعوه إلى أخذ غرض.

يابني وأن كان لك خلدن ناصح في خدمتك، موف لجميع حقوقك وحرمتك ويريد وزيرك أن يوقع به عندك ويغير خاطرك عليه، ويفسد نيتك وقصدك فخذ معه في ذم ذلك الخلدن وقل له ما ليس فيه من حادث وقدم، فإن رأيتك وافقك على ذلك وسلك في ذمه كل المسالك ثم أتى بما هو أشنع علمت أن وزيرك عدو له طالبا نكبته بكل فعل ذميم، وأن كلامه باطلا وحاله معه حائل؛ وإذا كرر عليك المرة بعد المرة، وتمادى عليك بالذم والمضرة فإن قال قولا وتغافلت عنه، ولم تنتهره وتغافل هو أيضا ولم يذكره ولا أعاد كلاما ولا أكثر له اهتماما فتعلم أن الحق ما قال وزيرك، وإنما هو نصيحتك فيه ومشيرك، فابحث على ذلك واختبره، وتأمله واعتبره، تجده إن شاء الله.

يابني لا تسمع كلام أحد في أحد من أول وهلة حتى تأخذه بحكم الفراسة على التفصيل والجملة.

1 - العنوان من وضعنا.

يابني إذا أردت أن تتفرس في وزيرك هل هو كامل العقل أو ناقص العقل، فإذا رأيت أدنى الأمور يغضبه ويكرهه، وأدنى الأمور يرضيه وأقلها يسليه، فتعلم أنه ناقص العقل مضطرب الفعل، فإن كان لا يغضب إلا من أشد الأمور، ولا يكترب إلا بأمر مشهور، ويكون راضيا بما يأتيه منه ويتحملة عنك، لكنه يرى بوافر عقله أنك أنزلته تلك المترلة الكريمة، وأحللته محلا، وأردت به تعظيما فيقابل جميع ما يصدر منك بالقبول، ويتلقاه بالسرور والمأمول إلا فيما يغريك، فلا يوافق عليه ويجنح بعقله إليه، فتعلم أنه كامل العقل، وحيد الفضل، شديد المحبة في جانبك، متودد لك، وآخذ في جميع آرائك.

يابني إذا كان وزيرك كامل العقل آخذا بشمائل الفضل فتفرس في حال انبساطه وانقباضه، وعلوه وانخفاضه، فإن رأيته في حال إقباله إليك مسرورا مبسوطا، طلق الوجه محبوبا، فتعلم أنه أتى إليك بمسرة سمعها في جانبك، أو صدرت له على بابك، فإن أبدى لكذلك فالمسرة في جانبك، وإن أخفاها فتعلم أنها في جانبه منك، وإن أقبل إليك على حالته المعتادة فتعلم أنها في جانبه منك، وإن أقبل إليك (فتعلم)¹ أنه لم يتزايد عنده زيادة، وإن أقبل إليك مطرق الرأس منقبضا غير طيب النفس، فإنه سمع مقالة تسوءه في جانبك من أمر عدوك، أو ما يسوء جانبه من قبلك، فإن أخبرك بذلك وأظهره فتعلم أن ما سمع في جانبك غيره، وإن كتم ذلك عنك فتعلم أن ذلك صدر منك.

يابني إذا سمعت عن وزيرك سقطة في جانبك وأردت اختبار حقها من باطلها، وهل صدرت منه كما سمعت من قائلها، ويظن وزيرك أنك سمعتها منه فتفرس في وزيرك، فإن رأيت منه زيادة في البشاشة، والخضوع والتذلل والهشاشة، وتلك خلاف عادته، فإن ذلك دليل على الريبة، وتحقيق لتلك السقطة المغطاة (المعينة)²،

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

2 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية

فحقق ذلك من غير ارتياب، فإنه لا تخفى حالة المرتاب، وإن لم ينتقل عن حالته المعتادة، ولم يظهر في كلامه نقصان ولا زيادة فتعلم أنه بريء مما قيل لك؛ لأن ظاهره دل على ما يخفيه.

يابني وإذا أردت استخراج ما في ضمير وزيرك الغافل فخذ بالرفق والتلطيف والإناس والتأليف، وآته من الباب الذي يوافقه ويحبه، حتى يستخرج ما في ضميره بحسن السياسة وحكم الرياسة.

يابني وأما من كان من وزرائك ناقص العقل فلا تمهله بالقول، وأكثر عليه من الكلام فإنه من ضعف عقله لا يقدر على الإكتمام، فيخرج لك ما في ضميره من قليل الأمور وكثيره.

الفصل الثاني: فراسة الملك مع جلسائه¹

يابني وأما جلساؤك فينبغي لك أن تتفرس في جلسائك وتختبرهم، وتنظر في طبائعهم لتختبرهم من هو المحب في جنابك، اللائد ببابك، المسرع لقضاء إربك، ومن هو على غير ذلك، واختبر المفشي منهم لأسرارك والمحافظ على أخبارك، فمن رأيت كثير الكلام، شرها للإقدام لا يتوقى المقام ولا يخفي شيئا من أسرارهِ ولا من أسرار غيره، ولا له في إفشاء ذلك منفعة فتعلم أنه غير محافظ على سرِّك فاحذره، فإنه كما لم يحافظ على سره فكذلك لا يحافظ على سرِّك، وكذلك من هو متهم فأمره أعظم وأهم، فإن المتهم يختبر بالناس أو بتأليفه وكثرة الجلوس، وإن كان أقل كلاما في مجلسك فلا تأمنه في سر على نفسك، لأن معرفته بالناس تدعوه إلى إفشاء الأسرار وإذاعتها على وجه الأسرار.

يابني ومن رأيت من جلسائك قليل الكلام، غير مخالط للأنام، لا يجالس أحدا ولا يرى أن فيها مقصدا، ولا يتكلم إلا في محل الكلام، ولا يأخذ إلا فيما يجمع عليه الخاص والعام، وتعلم أن صمته أكثر، وإمساكه معرب عن جوابه، وعقل غالب عليه، وعارفا بكلامه مايؤول إليه، فذلك ممن يكتُم الأسرار، ويأخذ بفعل الأخيار، فأودعه جميع سرِّك، وما يقتضيه من خيرك وشرك.

يابني وإن أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك، عامل على خدمتك وتصافيك، أو من هو بخلاف ذلك، فتفرس في طبائعهم، وانظر إلى تملقهم واصطناعهم، واختبرهم إذا ورد² عليك سرور على غفلة، وأتاك بشير وارد بعجلة؛ وكيفية اختبارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين تبين منهم أحوال المحبين وغير المحبين، فمن رأيت وجهه متهللا دخله السرور، فتعلم أنه محب بسرورك مجبور، ومن رأيته منقبض الوجه حين تنظر إليه، فتعلم من بغضه ما انطوى عليه، لأن

1 - العنوان من وضعنا.

2 - في الأصل: وردوا، وفي المحررة: ورد، وهي الكلمة المناسبة للسياق.

الأنبساط والأنقباض يفضيان من القلب على الوجه، فيبدوا ما في الباطن على الظاهر، وتطلع من ذلك على السرائر، وإن أبدى لك غير المحب بشاشة حين تظهر هشاشة، لأن السرور يكسو الوجه طلاقة وحمرة، والحقد يكسوه غيرة أو كدرة أو صفرة؛ وذلك بسماعه ما لا يريد، ولشدة حقه تغيره يزيد.

يابني وإذا ورد عليك خبر غير سار فإن وجه المحب يعود منقبضا بظاهر الإنكار، وربما ظهرت على وجه غير محبك أماراة الاستبشار فاعتبر المحب من غير المحب، بمذنب الاعتبارين يتبين لك ذلك في الحال، بل في كل الاختبارين.

يابني ومن رأيتك يدخل عليك في كل يوم بمسرة، ويكثر ذلك منه المرة بعد المرة، فتعرف أنه شديد المحبة في جانبك، منقطع بخدمتك إلى بابك.

يابني وإذا أردت اختبار جلسائك وخاصتك وأولياك هل متوافقون بقلوبهم جميعا أو مختلفون، فتفرس فيهم إذا عرضت لأحدهم عندك حاجة، وتكلموا فيها، وبادروا بجمعهم إلى استخلاصها وتلافيتها، علمت أن قلوبهم متوافقة وأحوالهم بينهم صالحة صادقة، وكذلك إذا أشار أحد منهم برأي وقفوا عنده، لا يتعدون عند ذلك حده، وذلك فيما يسر أو يضر، أو ينصح أو يغر، فتعلم أن خواطرهم مجتمعة، وعلى الموافقة منطبعة، وإن اختلفت آرائهم وتفرقت أهواؤهم فتعلم أن العداوة بينهم قائمة، وأحوالهم بينهم غير متلائمة.

يابني إذا رأيت وزيرك محبا في الشكر والثناء عليه أكثر مما عليك، وميلان الناس إليه أكثر مما إليك، فتعلم أنه مفرط في أموالك وأمور مملكته، غير ناصح لك في خدمتك، فإننا رأينا أنه من يكون محبا في الشكر والثناء، ويرى أن ذلك يفضي به الأمر إلى قضاء حوائج الناس، بل يضر بخلافته ويحط من أنافته، لأن محبته في الثناء عليه لا يريد حاجة من قصد إليه، فيغيب عنه وجه الصواب، ويتسع خوفه من هذا الباب، وإن رأيت محبا فيما يصلح عليك لا عليه، فهذا في الحقيقة يعود بالمنفعة إليك لا إليه، فتعلم أنه لك محب ناصح، ووزير غير مفرط صالح.

يا بني إذا رأيت وزيرك تكرهه الخاصة والجلساء والقواد والأنجاد والكبراء
والأمراء أخذ في جناهم بدميمة، فتفرس فيه، فتعلم أنهم إنما كرهوه على نصيحتك
وتشديده عليهم في خدمتك.

يا بني وإذا رأيت وزيرك محبوبا مع قلة فوائده في حين صدروه ومورده، مع أنه
لا يستخرج منك حقوقهم الواجبة، الخاصة منها والعامة، فتعلم أنه مفرط في
أمورك كلها، مما وجب عليه في الخدمة، قلها وجلها؛ فإذا كان على هذه الحالة
فاختبر محبته لك، تجدها مفضية لتضييع خدمتك.

الفصل الثالث: فراسة الملك مع كاتبه¹

وأما كاتب شرك اعلم يابني أنه ينبغي لك أنك تنفرس في كاتب شرك المباشر لهم أمر، إذا كان فيه أربع خصال فهو كامل على كل حال، وهو: أن يكون صحيح المذهب، قاءلا بالحق، قليل الإخوة والأصحاب، ومن ذوي البيئات والأحساب؛ فإنه يابني إذا كان صحيح المذهب، رفيع المنصب، فتفرس فيه؛ فإذا رأيته تكلم بكلمة ولم ينطق إلا بصدق، لا تأخذه في كلمة الحق لومة لائم، فتعلم قوة نفسه في الصدق، وأنه كلما يصدر منه فعن حق، وأما كونه قاءلا بالحق فلا يميل في شيء من أقواله إلى الكذب، ولا يقضي به صحيح مذهبه إلى شيء من الريب، فإن صحة مذهبه توديه إلى كلام الحق، وقول الحق تؤديه إلى كتمان السر، فإنه يخشى إن افشي السر أن يظهر عليه، فلا يدري ما يصير إليه فيسئل عنه فصدقه، وصحة مذهبه تدعوه إلى أن يقول الحق ليعاقب عليه، فيخاف من العقوبة فيكتم السر الذي أسر إليه، وأما كونه قليل القرابة والأصحاب؛ إذا كثرت قرابته لابد أن يستخلص أحدهم للكلام والاختبار، ويودعه من أسرار ما يأمره باستتاره، فلا بد أن يفشي صديقه ذلك الذي أودعته، فلا بد لغيره أن يسمعه، وأما كونه من ذوي البيئات فلا أنه يحافظ على بيته في كل الحالات، مع ما قدمناه من صدق المقال وصحة المذهب المانع من الاختلال، فيمنعه ذلك من إفشاء الأسرار، والأخذ بالاستتار.

يابني وإذا رأيت كاتب شرك كثير الألفة للناس، طويل اللسان، لا يرجع إلى قياس ولا يتحفظ في كلامه، ولا يكف لسانه في جلوسه وقيامه، ويزخرق لك أمور الرأي أنه ينفعلك بها، وهي مما تضر الغير بسببها؛ فهذا غير محافظ على دينه، ومن لا يحافظ على دينه لا يحافظ على شرك، فكيف تشاركه في أمر.

1 - العنوان من وضعنا.

واسطة السلوك في سياسة الملوك

يابني وإذا رأيت وزيرك أو جليستك، يمدح كاتب سرك في الغيبة والحضور، ويظهر محبته للجلساء والجمهور، فتعلم أن كاتبك يرفع له الأسرار، ويفاوضه فيما يلقي إليه من الأخبار.

يابني وإذا أردت أن تطلع على ما هو عليه كاتب سرك من كتمان خبرك وسرك، فتحدث معه بسر أهل بلدك الشرفاء والفقهاء والقضاة والأشياخ والوجوه والثقة، في كل واحد منهم هؤلاء المذكورين ما يخصه ويسر به من إحسان، أو ولاية، أو ما يسر السامع بسببه، فإن إذاعته للأسرار تدعوه إلى الشراعية بالانتشار، فيبادر أهل البلد بالتبشير، يعرفهم بذلك كل تقدير، ثم تبعث من يسئل في بلادك عن ما أودعته من ذلك، وتجده قد ظهر هنالك، فتعلم أنه غير محافظ لسرك وسره لإذاعته سرك وسره أيضا.

يابني انظر إن كان لكاتب سرك أعداء وبلغه منهم أداء وأراد أن يقع بهم فلا تشاركه فيما يضرهم، وعده بعقوبتهم وتأديتهم، فإن شراعية البغضاء تدعوه إلى الإفشاء لذلك، لما يريد بهم من المهالك، ثم تجعل من يبحث أيضا عليه هل أذاع سره المودوع إليه، فإن أذاع سرك لأحد (لابد)¹ أن ينتشر ويتمادى ويشتهر، فإن الأسرار إذا انتقلت فشت وبانت وخرجت من حيث كانت، فإن كتم ذلك فتعلم أنه كاتم لسرك، وإن افشاه فتعلم أنه مظهر لأمرك، وإن كتم مثل هذا فهو محافظ لأسرارك غير مذيع لأخبارك.

الفصل الرابع: فراسة الملك مع قضاته وقادته وجيشه¹

أولاً: فراسة الملك مع قضاته²

وأما قضاتك اعلم يابني أنه إذا أردت أن تختبر قضاتك³ فتفرس فيه تفرسا سياسيا، واحكم على اختباره حكما رياسيا، وانظر إلى أحواله؛ فإن كان يميل إلى خطة القضاء، ويعتني بها غاية الاعتناء فتعلم أنه رقيق الدين، وأنه في أحواله ليس بالمتمين، وعلامة ذلك يابني: إذا نذبه للقضاء المرة بعد المرة، وتظهر له بذلك وجوده المسرة، فإنه لا بد أن يمتنع بالقول وإن كان مريدا للفعل، لأنه إذا أظهر المحبة لها في أول وهلة عثر عليه أنه يريد لها، فلا تقدم مثله، فتكرر عليه القول، وتزداد عليه ليناله، وتظهر له لديك مكانة، فإنه لا يمتنع لك بالكلية، ويظهر لك ما فيه من طوية، ويبدو على وجهه التهلل والسرور، ويميل إلى الإذعان بعد النفور، وأن يمتنع القول في الحال، ويتنمس عن نيل الأموال، فإذا وجدته على حالته الأولى ولا أثرت فيه تلك فاعفيه من القضاء، فإذا رأيته أسفر وجهه حين اعفيته من القضاء فتزداد يقينا أنه على القضاء حريص، نادم على الامتناع منه.

يابني وإن كان (القاضي)⁴ يمتنع امتناعا كلياً ولا يريد عزلاً ولا تولياً، ولا يظهر فيه حرص على القضاء، ولا يتنمس بالربا فكلف عليه القضاء واجبه، وإذا تأتى لك فأنصره وأعنه، ثم بعد ذلك تفرس فيه تفرس الشيخ الشيم السنية، فإن رأيته محبا في النساء والأولاد، (وله)⁵ من الذرية اعداد، فتعلم أنه محب، لا بد أن يميل في الحكم إما لغرض أو جهة، فيئول ذلك إلى أخذ الرشا على الأحكام الشرعية، وإن لم يأخذ الرشا، ولم تكن له ذرية ولا له في النساء غرض بالكلية،

1 - العنوان من وضعنا.

2 - العنوان من وضعنا.

3 - في النسخة الحجرية قاضيك.

4 - ما بين هلالين من إضافتنا.

5 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

فتفرس فيه بأن تمازحه وتجالسه وتناصحه، حتى تراه قد مال إليك وانبسط لديه، ثم اعرض عليه مسألة تعينت تطلب له فيها رخصة، وتره كأنها من مهمات أمورك، وأن في قلبك منها غصة، فإنه ربما تدعوه مجالستك إلى الرخصة في ذلك، فيفتيك فيها على غير مذهب مالك، فإن سمح لك في مسئلتك وجرى على وفق أمنيته فتعلم أنه يسمح لغيرك مثل ما سمح لك في أمرك، فإن تصمم عليك، ولم يسمح بالكلية إليك، فتفرس أيضا في حديثه وصمته، وفي مشيته وجلوسه وسمته، فإن كان قبل القضاء يعرف بالصمت في لسانه، ثم بعدما قضيته ظهر لك منه انطلاق، ولم يكن من شأنه، وأظهر البشاشة والشكر والثناء والذكر، فتعلم أنه محب في القضاء، وأنه متصنع بالربا، وإن كان طليق اللسان ثم التزم الصمت بعد القضاء، وأظهر السكون في جملة الأشياء، فتعلم أنه متصنع، وأنه بالناموس متلفع، ثم تختبره في مشيه، فإن زاد على حالته المعتادة وحدث في شيء من نقص أو زيادة؛ فتعلم أنه متصنع في حاله، متنفس في أفعاله.

يابني إن نظرت إلى تلك الزيادة فإن رأيته خرجت عن العادة وهي بسرعة وبشاشة ومبادرة وهشاشة؛ فتعلم (أنه)¹ فرح بالقضاء واغتنب به، ونال منه غاية مطلوبة، وتلك منه خدمة لأجل ولايتك إياه وتصرفا بين يديك لترضاه، وإن نقص من ذلك فتعلم أنه يتقعد عليك، ويظهر الناموس إليك، لتستحسن حاله، وتظنه على شيء في أموره، فلا تعتبره في شيء، ولا تغرك بغروره.

يابني وإن رأيته غير محبب للأولاد ولا مهتم بهم، ولا بالنساء، ولكن قل لمن فيهن مراد، ولا تؤثر عنده مجالستك، ولا إكرامك له، ولا ممازحتك، ولا تصنع في مشيه ولا جلوسه، ولا أظهر شيئا أبدا على فعله من ناموسه، ولا تبدل عن أحواله، ولا تطور في أقواله وأفعاله، فذلك نعم القاضي وخير من يقع في حكمه التراضي.

يابني وهكذا يكون تفرسك في مفتيك في بلدك وغيره من تريد معرفة خبره.

ثانيا: فراسة الملك مع قاداته¹

وأما قوادك فتكون فراستك فيهم بالأختبار، وزرعك الرشا من غير استشعار، فإذا رأيتهم قبلوا الرشا، وعلقت أذيالهم منه بالرشا فتعلم أنهم أضاعوا حقك، وخرقوا رتقك فلا توليهم أبدا، وإن وليتهم فاعزلهم تكن راشدا؛ أما أخذهم الرشا من الرعية على حق الله عز وجل فذلك أعظم بلية، وما يضر بالرعية افضى إلى فساد الملك بالكلية؛ لأن فساد الرعية يخرب الأوطان، ويقل الجبايا، ويذهب بالعمران، وأما أخذهم الرشا على حقك فإنهم إذا أخذوا الرشا على حقك فسدت نياقتهم، وخافوا منك أن تطلع عليهم، فتبدو طوياتهم فيحملهم ذلك على ما يفسد عليك، فلا تأمن لهم غائلة غدر، ولا خائنة مكر، فإن حاملهم على أخذها من الرعية يحملهم على الغدر وخبث الطوية، فيضيع بمثل هؤلاء مالك، وإن سلموا م نأخذ الرشا في حق الله وحقك فتعلم أنهم على وفقك وصدقك فابق من وليت منهم على قيادتك، ومن لم توله فوله لأجل أمانته.

والقائد من هؤلاء محمود، وبه تنال خلافتك المقصود، كما أشرنا لذلك في باب السياسة.

ثالثا: فراسة الملك مع جيشه²

وأما جيشك يابني وأجنادك وأنصارك وقوادك فاخترهم بأن تنظر في أحوالهم وتوسم في أفعالهم؛ فإن رأيتهم مشغولين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء فتعلم يابني أن هؤلاء غير معول عليهم في الشدائد، ولا في المواقف والمشاهد، وإن رأيتهم عاخذين في التفاخر بالخيال والعدد والتدريع وءالة الحرب والنجدة، فتعلم يابني أن هؤلاء يعول عليهم في الشدائد، وبهم في المواقف نزول النكائد، وإذا كانت عادتهم في السلم اشتغالهم بالعدة وءالة الحرب ففرس فيهم أيضا عند اللقاء، فإن رأيتهم

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - العنوان من إضافتنا.

عند القرب من العدو يزدون نشاطا وشجاعة واجتهادا، أو براعة وحرصا على الملاقات، وكلمة خاصتهم وعامتهم كلمة واحدة متفقة فيرجى لك الظفر على عدوك والنصر، وإن رأيتهم عند القرب من اللقاء يقل نشاطهم، ويكثر اختلافهم، فمنهم من يحب اللقاء ومنهم من يكرهه، فحاولهم واجتهد على أن ترد كلمتهم متفقة بالإعطاء والإحسان والكلام الجميل، ولا تلاق هؤلاء إلا في موضع تملك فيه أمر نفسك، وتسكن به قلوب جيشك، وتقوي نفوسهم¹ بإسناد ظهورهم إليه، واعتمادهم في الكر والفر، وإن لم تجد موضعا في الحال تركز إليهم، ورأيت لعدوك الطائلة باتفاق كلمتهم واختلاف جيشك فاعمل على ما ذكرناه في باب السياسة، وذلك اتخاذ المعقل كما فعل الأركان الذي قدمناه في باب السياسة.

1 - في الأصل: نفوسهم، وفي النسخة الحجرية: نفوسهم.

الفصل الخامس: فراسة الملك مع صاحب أشغاله وحكامه¹

أولا: فراسة الملك مع صاحب أشغاله²

وأما صاحب اشغالك المقدم إلى اعمالك، الناظر على كافة عمالك، فإنك يابني تختبره وتتفرس فيه، حتى يظهر لك من حاله ما يخفيه.

اعلم يابني أنه إذا رأيت صاحب اشغالك محبوبا عند وزرائك وخاصتك وأهل رأيك مشكور الحالة عندهم، ينالون منه قصدهم، فتعلم أنه مضيع لأمورك بالجملة، ومفرط في أموالك، وتلك أقبح فعلة، وإذا رأيت مبغوضا عند الوزراء والقواد والعمال والأجناد فتعلم أن بغضهم له، إنما هو على استخراج حقوقك ومنافعك منهم، لأن صاحب الأشغال إذا كان مبغوضا عند الخاص والعام دل على نصاحتك في الخدام، وأنه يخاف من الرشا من الناس، ولا يأمن أن يزرع عليه الأعداء بمن يوقع به أعظم البأس، أو ينصب له شركا من المكيدة يجلب بها حينه وتنكيده، ثم إنك تجرب يابني في ملبسه ومركبه ومأكله ومشربه وحاله ومكسبه، فإن زاد زيادة مفرطة فتعلم أن ذلك من غير مالك احتواه والتقطه، وإن لم يظهر عليه إلا قدر منفعة، مع أن الناس يتقولون فيه ليصلوا إلى نكته، فتعلم أنه نقي الجانب، قليل المعائب، وإن كان مفرطا في أشغالك فهو لا يخونك في مالك، (وعلى الله توكلك وإليه مثالك)³، وأما ولاتك تخبرهم، وتتفرس فيهم وتعتبر، فإذا رأيت وإليك يأخذ أموال الناس، ويتقرب بها إليك، ويرى أن ذلك نصيحة إليك، ومسرة يدخلها عليك، ليعلم مكانه عندك، ويرى أن في ذلك بغيتك وقصدك؛ فهو أشر الولاية وأردأهم وأظلمهم وأعداهم، ولا تقربه لخدمتك، وتحليه بحليتك، بل خدمتك؛ فإنه ينقص مالك، ويضر برعيتك، ويفسد عليك دنياك، وحسن نيتك. وكما أنه يأخذ أموال الناس ويعطيها إليك، فكذلك يأخذ مالك ويحرم عليك، ويأخذ خيرك

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - العنوان من إضافتنا.

3 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

ويعطيه غيرك، هذا إن أخذ أموال الناس وأتى بها إليك، وإن لم يأتك بشيء وأظهر الناموس لديك، تصنعنا بالديانة والتحفظ بالأمانة، فاختبره يابني بأن تزرع عليه الرشا، فإن أخذها فتعلم أنه يأخذ مالك، وإن لم يأخذ شيئاً من ذلك فتفقد أحواله في داره، وابعث من يتجسس على أخباره، فإن زاد حاله وكثر ماله وظهرت عليه آثار النعمة الشاملة، والرفاهية الكاملة، ولم تكن تعرف له قبل فتعلم أنه من غير مالك مع أنه لم تقع به شكاية ولا تأذت منه رعية فإن تشكت منه الرعية فرفاهيته منهم وهو عين الأذية.

واعلم يابني أن حامل المال كحامل المسك لا يخفى على أحد، وإن اخفاه حامله، وإن اختبرت وعلمت فقره وأمواله، ولم يتزايد عليه حال بالكلية، ولا تظلم أحد من الرعية، فاختبره المرة بعد المرة، فإن لم تصدر عنه شكية ولا مضرة فذلك هو الوالي الآخذ بما يواقي ويولى.

ثانياً: فراسة الملك مع حكامه¹

وأما حكامك يابني فإنك تنفرس فيهم، وتقع على مخافيتهم؛ إذا رأيت حاكمك تبغضه الأخيار، وتجه الأشرار، فتعلم أنه على غير استقامة، وأنه يأخذ الرشى على الظلامة، وعلامة ذلك: أن بغض الأخيار له إنما هو لما أحدثه من المظالم، وفعله من إباحة المحارم، وما أتى به من الحوادث الفاسدة، والمناكر البادية بالمشاهدة؛ فهو يكرههم لعثورهم على منكروه، وهم يكرهونه على ما رأوا من مخبره.

وأما صحبة الأشرار له وصحبته لهم فإن فائدة منهم محملة على المواساة عليهم، فهم يحبونه على مواساته عليهم في المفاسد، ويحبهم لما ينال منهم من الفوائد، فإن الناس لا يألفون إلا لمن وافق طباعهم، وينافرون من نافرهم وطلب اقماعهم؛ فتكرهه الأخيار لمنافرتة لفعل الخير، وتجه الأشرار وإن كان بخلاف ذلك من قمع الأشرار وتوقير الأخيار، فتعلم أنه تابع للحق متحل للصدق.

1 - العنوان من إضافتنا.

يا بني ثم اختبر حاله بأن تزيد عليه شيئاً لم يعرف له قبل ولايته الحكومة، ولا كان له في أول بدايته من مال وأثاث وذخائر غير ذلك، فإنه يرشي في الباطن والظاهر، وإذا لم يتزايد عليه مال ولا ظهرت عليه آثار مال، فهو الحاكم المحمود الذي تفضله الوجوه.

وكذلك يا بني تكون فراستك في صاحب الحسبة يجري على هذه النسبة.

وأما فراستك في عدوك يا بني اعلم أنه تكون فراستك في عدوك فراسة واحدة، وإن أبدى لك مؤانسة ومواصلة مساعدة، فلتكن مقابلتك له بما ذكرناه في السياسة، فإن ذلك من وجوه الرياسة.

الفصل السادس: فراسة الملك مع عدوه ورساله¹

أولا: فراسة الملك مع عدوه²

يابني إذا أردت عدوك يهاديك ويعاهدك بالحسنى ويواليك، ويأخذ معك فيما يرضيك، ويقضى لك جميع مئاربك، ولا يقتصر بوجه في مطالبك، ورأيتك أيضا يواليك بأقبح الموالات، وينافرك في كل الحالات، فالفراسة فيه واحدة لا في المنافرة ولا في المساعدة.

يابني وإذا بعث إليك أرسالا برسم تهنية أو موالاة أو تعزية أو استجلاب مودة تكون، أو ما يدعو إلى المهادنة والسكون، فاعلم يابني إنما بعثهم لاختبارك ليتعرف الصحيح من أخبارك، وما يزيد عنهم وظهر عليك، وما غاب عنهم وحضر لديك، فعلى هذه الحالة جرت أحوالنا مع أعدائنا حين يصلون ويحلون بأندائنا³، أنهم متى أظهروا لنا المصافات، وكتبوا إلينا بالموالاة، فتفرس في أحوالهم فتجد ذلك من احتيالهم، فيخرج لك الأمر كما تفرسناه، وما تفرسناه وجدناه.

يابني وكذلك تتفرس في كتبهم قبل وصولها، فتحكم قبل رؤيتها على فروعها وأصولها، وكذلك تتفرس في أرسالهم قبل قدومهم علينا فتظهر أحوالهم إلينا.

ثانيا: فراسة الملك مع الرسل⁴

1- فراسته مع رسله إلى غيره من الملوك⁵

يابني وأما قرابتك في أرسالك المتوجهين من قبلك إلى الملوك امثالك، فينبغي لك ابني إذا وجهت رسولا إلى ملك من الملوك أن تختاره من وجوه قبيلتك، وخيار

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - العنوان من إضافتنا.

3 - الأنداء: جمع النادي وهم القوم المجتمعون.

الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، م س، ج 5، ص 90.

4 - العنوان من إضافتنا.

5 - العنوان من إضافتنا.

عشيرتك ممن يليق بالرسالة، ويتصف بالطهارة والجلالة، ولا يكون توجيهك إياه إلا بعد الاختبار، ليكون على وفق الاختيار.

يابني وليكن الرسول مشتملا على أربعة أوصاف ليس عنها محيد ولا خلاف؛ الأول: أن يكون قوي القلب، راجح العقل، الثاني: أن يكون صادق القول، الثالث: أن يكون محافظا على دينه، الرابع: أن يكون صادقا، حافظا على الأسرار، كما للأخبار.

ثم تتبع هذه الأوصاف الأربعة الضرورية أربعة أوصاف تكميلية؛ أحدها: أن يكون فصيح اللسان حسن العبارة والبيان، الثاني: أن يكون مليح الهيئة والصورة، فيه محاسن مشهورة، الثالث: أن يكون محبا في سلطانك، عاملا على ما يوافق جميع شأنك، الرابع: أن يكون قليل الطمع مترها عن ما في الأيدي تتره الورع.

يابني إذا اجتمعت هذه الأوصاف في الرسول يبلغ به في الرسالة غاية المسئول.

اعلم يابني إذا وجهت من اجتمعت فيه هذه الأوصاف على الكمال، ومن استقل بمحمود هذه الخصال، فتفرس فيه عند قدومه عليك، ووصوله بعد أداء الرسالة إليك بما نفسره لك، ونبينه ونوضحه ونحسنه؛ فلا تحطيك الفراسة في الرسول إذ تمتحنه.

اعلم يابني أن الملوك بالنسبة إلى القوة والضعف والصدقة والعداوة على ثلاثة أقسام، وعليها في الفراسة جرت الأحكام: يابني لا يخلو حالك من أن ترسل إلى أحد الثلاثة المذكورين على حسب (ما تختلف)¹ به الحوادث، وتدعوه ضرائر البواعث؛ إما أن ترسل لمن هو أقوى منك لأمر حدث عنه، أو صدر منك، فتفرس في رسولك إذا قدم عليك عايبا، وقد قضى لك في الرسالة مئاربا، ووفى الغرض في الحاجة التي أرسلته بسببها، وتيسرت عليه أحوالها في حين طلبها، ثم جاء الرسول شاكرا منه، مثنيا عليه، لما صدر عنه، فشكره له حسن، لأنه أقوى منك، وقضى

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

حاجتك، ووفى لك مطلبك وإرادتك؛ وبعدها فلا تخلي رسولك من الاختبار حتى تقف على الصحيح من الأخبار، ثم اسئله في خلوتك عن حال عدوك، وما يؤتى من قبله، وما ألقى إليه العدو من المحاولة، وما قابله به في تلك المراسلة، فإن أخبرك بسيره ومناقبه، ومصالحه ومثالبه، وحال انبساطه وانقباضه، وارتفاعه وانخفاضه وجلوسه، وأحوال جيوشه وتصرفاته، ولم يخف عنك شيئاً من حركاته وسكناته، فذلك نعم الرسول، وخير من يبلغ به الأمال والسؤال، وإن اقتصر على ذلك، ولم يجد عنده إلا مجرد الثناء والشكر، والإطناب بجميل الذكر، فتدبر به من يختبره في أحواله، حتى تعرف صدق مقاله، فإن لم يجد عنده إلا الثناء في جانبه، غير ذاكر لمثالبه، فتعلم أنه أحرص لسانه بالعطاء، فذلك أطيب عليه بالثناء، فاسئله حينئذ عما أعطاه، وما قدر من به حباه، فإن أخفى عنك بعض العطية فتفرس في كسوته وجهازها بالكلية، فإن كانت كسوته رفيعة، فتعلم أن الإحسان أكثر مما ذكر لك، وأنه مخادع حين أنكر الصنعة، لأن الإحسان يناسب اللباس، وتلك سيرة من ملك وساس؛ لأن الملوك إذا فضلت في الكسوة ضاعفت التفضيل في الإحسان، فإن اعلمهك بجميع ما ناله من الإحسان، وناسب الكسوة على ما قررناه الآن، وأنه أخبر أنه أكرمه غاية الإكرام، وأفاض عليه سوابغ الإنعام، ولم يعرفك بسيرة ولا أتك بشيء من خبره، فتعلم أنه غير عارف بالرسالة، (سالك)¹ في المحاولة سبيل الجهالة، ولم يحمله على الثناء إلا قضاء الحاجة، والاستبشار بما ناله من جزيل النائل، وسابغ الفضائل، وعدم ذكره لأحواله وسيرته، إنما حمله على ذلك الجهل، وعدم المعرفة بمثاله، فلا ترسل مثله ولا تعتبره، ولا تشرفه بالرسالة، ولا تكبره، فإن الأوصاف المضمونة فيه قد اختلت، وصحته التي حمل عليها قد اعتلت.

يابني وإن أرسلت رسولك لمن أنت أقوى منه من الملوك، وأردت أن تتفرس في رسولك إذا قدم عليك، ووصل بعد أداء الرسالة إليك، ويكون ذلك الملك ذا عقل راجح ودهاء واضح، وتكون الحاجة التي عرضت لك عنده متوسطة الحال،

1 - ما بين هلالين من النسخة الحجرية.

لا عالية المقدار ولا دون ذلك، بحيث يقع بها الاحتيال في الأرسال، فإن قضى لك تلك الحاجة، وبالغ في قضائها، وبادر إلى إتلافها وإمضائها، ثم قدم عليك رسولك غير شاكر منه ذاما لما لم يصدر به إنعاما منه، فتعلم أنه بعكس ما ظننت فيه من عدم الطمع، لكون الملك قضى حاجتك وذمه رسولك على ما لا يعطيه أنه طمع فيه، ولم يوف له طماعته، ولا نال منه بغيته، ولا إرادته، فتسئله حينئذ عن من أعطاه وعن القدر الذي حباه، فإن أعطاه عطاء أمثاله، ووفى له بما يليق من حاله، فتعلم أنه أراد خداعا، وأن يذيع بعض الأسرار إيذاعا، فلا تطمئن له في حال، ولا تعتبره في مقال، لأنه لم ينفصل عن العدو حتى أخذ معه العهد، أو أبرم فيما بينه وبينه العقد على ما يودعه من الأسرار، ويسعه من الأخبار، فإن كان العطاء أقل مما يليق بأمثاله، فتعلم أنه إنما ذمه لقلة نواله.

يابني وإذا أردت أن تختبر ما أعطي لرسولك في وجهته فانظر إلى ما يظهر عليه من كسوته، فإن كانت الكسوة رفيعة فالإحسان بحسب ذلك، وقد أجزل صنيعه، وإن كان العدو لم يقض لك تلك الحاجة التي أرسلت رسولك في طلبها، وشكره رسولك أو سكت عن شكره، ولم يذمه بسببها، فتعلم أنه ما شكره إلا لما أعطى، أو ما سكت عن ذمه إلا لما رجاه، وإن رجاءه أن يعود إليه بالرسالة الثانية، وينال منه الجائزة الوافرة، فإن ذلك العدو إذا لم يسمع في جانبه منه إلا خيرا فلا ينال إن عاد إليه إلا كرامة وبراً.

فتعلم يابني أن الخيانة في طبع الرسول، وأنه ممن لا يبلغ به في (المراسلة)¹ سول، وأنه على خلاف ما ظننته به من الأوصاف المذكورة، وأن أحواله مذمومة مدحورة، فتسئله حينئذ عما أعطاه، فإن أعطاه العطاء الجزيل وأرضاه، فتعلم أن ما أخرس لسانه عن ذمه، مع عدم قضاء الحاجة التي تعد من وصمه إلا ذلك العطاء، ولا أسكته إلا ذلك إلا الحباء.

يابني وإن أرسلت إلى صديقك من الملوك رسولا لحاجة عرضت لك، وكان الأمر جليلا أو قليلا، ثم قدم عليك رسولك الذي أرسلته، وأدى الرسالة على نحو ما أوصيته، فإن قضى تلك الحاجة فتلك سبيل الصداقة المذكورة، والموالة المحدودة، وإن ذمه رسولك، فتعلم أن ما ذمه إلا لعدم الفائدة، وأن شكره لحسن الصداقة والعطية الزائدة، وإن لم يقض لك ذلك الصديق حاجتك، وظهر منه في قضائها حاجة، فتفرس فيه كتابه، ومن نحو خطابه، فإن رأيت كتابه خارجا عن المعتاد، وفيه مالا يليق من عدم المراد، فتعلم أن ذلك من قبل الرسول الذي أرسلته، وأنه ألقى إليه أمرا غير باطنه، فلم يسعفه طلبته، فلذلك أغلظ القول في الكتاب، وخرج عن العادة في الجواب، فعلى هذا تكون فراستك في إرسال الملوك الواردة عليك القاصدين من بلادهم إليك إما من قبل الأعداء أو من قبل الأولياء، فلا إشكال أن ذلك موالة وأفضال.

2- فراسته مع رسل غيره من الملوك إليه¹

وإن كان (الرسل)² من قبل عدوك فينبغي لك أن تتفرس فيهم تفرس النبلاء الأذكياء النجباء، فإذا قبل رسول عدوك إليك، ورأيت طلق الوجه إليك، وأسرع في مشيه، مظهرا للمسرة، فتعلم أنه يبدي لك من كلام ما أسره، ثم يفصح بحسن سلامه، ويظهر الأدب بين يديك في كلامه، ويقدمك في الشكر والثناء على سلطانه، ويظهر لك البشاشة في تبيانه، فإذا كان على هذا الحال فتفرس فيه بأحد وجهين: فإن فراستك لا تخطيك من غير مين؛ إما أن سلطانه ضعيف الملك أو ضعيف العقل، فإن كان ضعيف الملك فتفرس فيه بأحد وجهين: إما أنه يطمع فيما يناله منك، وذلك من خذلانه، أو يطمع فيما يظهر به النصره عن سلطانه؛ فإذا رأيت كذلك فأذن له بالجلوس في مجلسك، فإنه يظهر ما في باطنه لتأنسك، فتزيد

1 - العنوان من إضافتنا.

2 - ما بين هلالين من إضافتنا.

فراستك فيه يقينا، وتظهر لك أحواله تبينا، ويسر أهل مجلسك بما عنده من المساويء، وتطلع أنت على ما أمكنه من الأسرار، ثم تأمره بالإزالة عند خلاصتك، لتبين فيه غاية فراستك، ويأتيك بما أضمره من سره، وبما جاء به من خير الأمر وشره، ثم تعده بالمطالب الكبار، وتمنيه بالفوائد الكثار، فإن كتم عن خلاصتك أمر سلطانه، ولم يطلعه على شيء من أحواله وشأنه، فتعلم أنه رسول ناصح لمولاه، ليس له من طمع فيما سواه، ولا هو غادر ملكه، وإنما أراد الثناء عليك أحسن مسلك سلكه.

يا بني وتعلم أن ثناءه عليك لضعف سلطانه، وقلة ذات يده وإمكانه، وعلامة ذلك: أنه لم يستمله طمع، ولا في غرضه إلا ما به ينتفع، لكن قدمك في الثناء على سلطانه لدفع مضرة يتقيها، أو أظهر لك البشاشة والتودد ليحافظ على المحاسنة ويتقيها، فاعرض عليه يا بني حينئذ بعض الأشرار، مما ترغب فيه وتحتاج غاية الاحتياط، وخذ معه في الأمور التي لا ينفر عنها، ولا تأخذه عزة الأنفة عنها، ومما لا يعود عليه بوصم، ولا من سلطانه بدم، فإن قبلها من أول وهلة فتحقق ضعف مملكته من إرساله، فلا تترك فيه فرصتك، فإنما قد امكنت، ومهابتك عند مرسله قد تمكنت، فإن شئت المصالحة على وفق اختيارك، وإن شئت القصد إليه بحماتك وأنصارك، فإن عدوك ضعيف وهو منك على تخويف.

وأما الرسول فنعم الرسول، ولا لأحد فيه ما يقول، فإن كان سلطانه قوي الجيش والمال والحماة، والأنصار والأبطال، مع ما صدر من الرسول من البشاشة والثناء والشكر والمشاشة، فتعلم أن سلطانه ضعيف العقل، لا يفرق بين الفرع والأصل، وعلامة ذلك: أن رسوله لم يوف له حقا، ولا أحسن إليه فعلا، ولا أجاد نظاما، بل أسقط حرمة، وأساء خدمته حين آخره في الذكر وقدمك عليه في الثناء والشكر.

واعلم يا بني أن الرسول الذي يتصف بهذه الصفة قد خرج عن طريق المعرفة، وأنه ما صدر عنه ما صدر إلا لما يرتجيه من المطامع، ولا قصده إلا في نيل المنافع،

وتلك المنافع عائدة على سلطانه بالمضار، وجالبة عليه مناكذ الحين والبوار، وأيضا إنما كانت هشاشته لمكيدة عرضت له في جانبك وكيدته، وقد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبد الله وزير ملك المغرب أبي سالم حين أرسله إلينا بالجد العازم، والعهد اللازم، ليتحيل بعض الحيل علينا، ويخادعنا بين يدينا، مع قوة سلطانه، ورفيع مكانه، فتفرسنا فيه المخادعة لما أظهر من التذلل والمصانعة، ولما أظهر من البشاشة والثناء علينا والهشاشة، فعلمنا من ثنائه علينا، وتذلل الله إلينا، مع قوة سلطانه ورفيع مكانه، أن تذلل الله إنما هو لمكيدة أو لمطعمة ينال منا مفيدة، فأنزله عند وزيرنا عبد الله بن مسلم لما بينهما من تأكيد متقدم، وكانت رغبة عمر المذكور في ذلك ليتوصل إلى غرضه من هنالك، ثم أمرنا وزيرنا باستخباره إذا اطلع على أسرارته، واستخراج ما عنده، لنعلم مراده وقصده، فوجدناه على ما تفرسنا فيه من المكيدة، والطمع والمحاولة والخدع، فلما علمنا منه ذلك حاولناه وأوعدناه بما أرادته وتمناه، إلى أن عادت مكيدته على سلطانه، فكانت سبب هلاكه وخراب أوطانه؛ وأما المكيدة التي أتى بها والمخادعة التي تسبب بأسباها فأمران؛ أحدهما: أتى بمال يمد به أهل وهران ويعينهم على التمادي على الطغيان، الثاني: أنه أتى إلى وزيرنا بالخديعة، ويرده إلى جانب سلطانه ويطعمه، وذلك لما تقدم بينهما من الوداد وصفاء الاعتقاد.

وقد تفرسنا يابني في وزيرنا أنه لا يخدعه عمر المذكور، ولا يغتر منه بزخرف الغرور من أجل محبته، وخلوص نيته، وصفاء طويته، وعلمنا من حزم وزيرنا أنه يخدعه، ويرد مكيدته عليه، ويحل عزيمته وعقيدته، ولذلك أنزلناه عنده، ورأينا بذلك بغيته وقصده، وكنا يابني ندخله إلى خلوة مجلسنا، ونسره بمحادثتنا، ونمنيه بمواعدتنا، حتى استقناه بكليته، واستخرجنا ما في طويته، وكان يتخيل بعقله أنه يستخلص أسرارنا، ويطلع على أخبارنا، ونحن نكيدته بوجه المكائد، ونشيع بما جاء به من المقاصد، إلى أن بلغ خبره لسلطانه، يريد بذلك انخفاض مكانه، وأبطأنا به في

الوداع ولم نودعه حتى علمنا أن سلطانه ساء به ظنا، وأنه إذا وصل إليه لا يلقى منه سلامة ولا أمنا، وأنه غرس عنده ثمار الحق ل سوء ما أتاه من القصد.

ولما علم أنه جنا كبيرة، ولم يحسن في سيره أطلعنا على أسرار مولاه، وأظهر لنا ما أسره وأخفاه، أخذنا معه فيما يضر بسلطانه، ليخلص مما جناه من خذلانه، فأجاب إلى ذلك ووافق عليه، وهجت نفسه ما ندب إليه، فكان من قيامه على سلطانه ما كان، إلى أن أزال عنه الملك والسلطان، وغلق في وجهه أبواب فاس الجديد، ولقي منه أليم التنكيد.

وكيفية ذلك أن عمر المذكور لما انفصل عنا، ولم يقض وطرا مما تمنى؛ لا من صرف المال الذي جاء به إلى وهران، ولا تأتي له وزيرنا في شيء مما أراده من الخذلان، عاهدنا على أن يغدر بسلطانه، وأن يجلس أخاه مكانه، وأن يطلق بني عبد الواد الذين في حكم الثقاف، وأن تكون بعد ذلك مصلحة ليس فيها من خلاف.

وعندما وصل إلى سلطانه أبي سالم وأدى له رسالته على الواجب اللازم اضممر ما عول عليه من غدره، وأخذ في المحاولة في مكروه، فكان من قدر الله تعالى أن خرج من فاس الجديد ليسكن فاس القلسم، لأنه في المصيف وخيم، فأقام به ما شاء الله أن يقيم.

وعندما انقضى زمان الخريف وأراد الرجوع إلى فاس الجديد وذلك بأثر المذكور من حضرتنا غلق عمر المذكور في وجهه الأبواب وأوقف أخاه أبا عمر بن أبي الحسن بذلك الباب، فخرج أبوسالم مبادرا لتلافيه وقد جف ريق الحياة من فيه، فأخذ في قتاله، فلم يقدر على حاله، فأسلمه بقومه، وفروا عنه وأنكروه، حتى أنهم لم يكونوا منه، وفر بنفسه عند فرار جيشه، ولحق برمسه فقتل منفردا وحيدا، ولم يجد نصيرا ولا عضدا.

فينبغي لك يا بني أن تتفرس في أرسال عدوك إذا قدموا عليك، ووصلوا بالرسالة إليك، فتسايسهم أحسن مسايسة، وتمارس حالهم أجمل ممارسة، وتخاذعهم بالطف مخادعة، وتصانعهم بوجوه المصانعات، حتى يظهر الحبيب والنصيح، والباطل والصحيح، فتعامل كلا منهم بما يليق به، وتجبر معه على ما أثرى من مذهبه.

يا بني فإن كان الرسول وزيرا أو ما يقارب منه فتكون فراستك فيه على نحو ما نبين لك مناقبه، وإن كان دون ذلك فيجر على ما تراه من أحوالك.

وليكن نزول كل رسول عند أمثاله من خدامك، ولتكرم كل واحد بما يليق به من إكرامك، وذلك سبب استخلاص الأخبار، والاختبار ما يَكُنْه من الأسرار.

يا بني وإن أقبل عليك رسول عدوك، حين دخوله عليك منقبض الوجه، بطيء المشي، مظهر الكراهة في الوجه والزي، فتفرس فيه بأحد وجهين: إما أن يكون ذلك من قبل الرسول المذكور، يريد بذلك غاية الظهور، وذلك من حيث طباعه وسوء اصطناعه، فلتأمر بالإنزال عند من يختبر حاله ممن يكون في الطبقة مثاله، بعد أن تأخذ الكتب الواصلة صحبته، وتتفرس فيها من عدوك رغبته، ومنها تستدل على حقيقة الحال، ولا تخفى عليك الحقيقة من الحال، فإن كان ما لا يليق بك ولا يرضيك من خطاب ولا من جواب، فتعلم أن الرسول من طبع المرسل والكتاب، فتحضره بعد ذلك بين يديك، وتحلي به مجلسك حتى لا يطلع أحد عليك، ثم تخفي حديثه كما تخفي كتابه، ثم تعطيه بعد ذلك جوابه.

وإن كان في الكتاب ما يسر ويرضي، بأنواع المسرة يقضي، فتعلم أن الخبث في طبع الرسول، إذ لم يكن في الكتاب إلا معاني العمل والرسول، فتتعم عليه بالإحسان، وتستمد قلبه بالامتنان، لأن فعله ذلك سبب للانتفاع، وخبائثه من جهة الأطماع، فإذا أخذ منك وأعطيته وأكرمته ومنيته دعت الخباثة إلى إفشاء سر سلطانه، لأن إحسانك إليه حملة على اختيانه.

وهكذا يابني كنا نتفرس في الأرسال فنجدهم على ما تفرسنا فيهم من الصحة والاعتلال، وأما الكتب الواردة عليك من قبل عدوك فتكون فراستك فيها على أحد وجهين؛ الأول: إذا كان عدوك أقوى منك وقدرت على أن تصده عنك، وأنتك من قبله كتب واردة، فلتكن فراستك في عداوته فراسة واحدة، فإذا وجدتها بما يرضيك ويسرك، ويوافق غرضك ولا يضررك، فتفرس فيها لتعلم ظواهرها مخافها.

واعلم يابني أنه إنما أراد مفاتنتك، واستعمل الحيلة في محاولتك، ونصب لك بكتبه شر المكيدة، وموالاتك ليست عليه وكيدة؛ وعلامة ذلك: أن من كان قويا في سلطانه، عزيزا في مكانه وإمكانه، أكثر منك جيشا وأموالا، وأعظم سكة وحالا، فإنما بعث لك بالموالاة، ودعا إلى حسن الحالات لئلا تتحرز منه، وتأخذ حذرک مما يصدر عنه، فيأتيك على حين غفلة، فيختلك على غير أهبة حيلة، فتحذر يابني من هذه المكيدة، فإنها من الخدع الشديدة، فتحيل عليه بأدهى من حيلة، ولا يغرك برحيلته.

يابني وإن وجدت في كتبه كلاما يدل على الخير والغير فاحترز أيضا منه، وليكن احترازك من الأول أشد، لأن هذا كتب إليك بما يهددك تارة ويهنيك أخرى. واعلم يابني إن الأول أدهى من الثاني، والثاني في عقله انزعاج وليس بمتمواني، وعلامته أن جمع في كلامه بين النقيضين الخير والغير.

يابني وإن كان عدوك مساويا لك في الجيش والمال والكفاية والدهاء والاحتياال فمن كتابه يستدل على عقله وما يريد من فعله، فإن كتب لك تارة بما ترضى ويسر، وتارة بما يغيض ويضر، فتعلم أنه ناقص العقل، لكونه مساويا لك فيما ذكرناه، معروفا بما قدرناه، وذلك دليل على انزعاجه، وسوء سير مزاجه، لأنه يقبل حيث لا إقبال، ويدبر حيث لا إدبار، فإذا رأيته بهذه المثابة فاحتل عليه ببعض المحاولات، فإنه لا يعدل بك كل المعادلات، فإنك إن أخذت في أموره وحاولت على فكره، فإنك تبلغ فيه اختيارك، وتدرک فيه تأرك.

واعلم يا بني أنه إذا كتب لك عدوك المساوي لك كتابا على أسلوب واحد لا ترى فيه من زائد ولا من ناقص، ولا كتب لك إلا بما لا بد منه فتعلم أنه وافر العقل، ءأخذ بشيم الفضل، لا يغضب إلا لأمر يهمه وحادث يكرهه ويعمه، فهذا يابني يجب عليك أن تحتال عليه بأنواع الحيل لتبلغ منه غاية الأمل، وتخادعه بضروب المخادعات، وتصانعه بوجوه المصانعات كما قدمناه لك في باب السياسة.

يابني فإن كان العدو أضعف منك فمن كتابه أيضا يستدل على عقله وجميل سيره وفضله، أو على حماقته وجهله، فإن كتب إليك بالخير المرة بعد المرة، وما لا يقتضي إلا بالهداية والمسرة، فتعلم أنه عاقل، وفي تدبيره فاضل كامل، لكونه يوليئك ويحاسنك ويصافيك ويهادنك، ويعترف لك بالشفوق عليه، ولتكن حالك معه كما قدمناه في باب السياسة، وإن وجدته مع ضعفه يكتب لك بما لا يرضيك، وكتبه تقرر سمعك بعتبه فتستدل من ذلك على انزعاجه، وضعف عقله وسوء مزاجه، فاعمل الحيلة في طلبه، ولا تمهله فإنك ستظفر به.

تكملة¹ الكتاب

وقد وضعنا لك هذا الكتاب وحررنا كلامه من لباب اللباب، وشرحنا فيه وصايا أخروية وسياسة دنيوية، وجمعنا لك ما يصلح بين الدنيا والآخرة، والسعادة الظاهرة والباطنة، فاجعله مهاجك الذي تقتدي، بهديه وسراجك الذي تستضي به.

وبعد حفظتك لكتابنا هذا واتباعك للأمر الشرعي والسياسة الدنيوية، فتكون عمدتك كلها التوكل على الله في جميع أمورك والتفويض له (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)².

يا بني اخلص نيتك في الدعاء ترحى لك الإجابة من رب السماء، واعلم أن الملك هبة الله يهبه من يشاء من عباده، وهو يا بني بأمره ومراده: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)³.

يا بني اخلص سريرتك مع الله، واعلم أنه يطلع على سريرتك، فحسن معه جميل سيرتك، وارجع في أحوالك مع ربك بصيرتك، فإن الله مطلع على السرائر وعالم بما في الضمائر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أسر سريرة ألبسه* الله رداءها)⁴.

يا بني واعلم أنه كما لا تحب أن يعصيك خديمك فيما تأمره به فكذلك لا ينبغي لك أن تعصي ربك فيما يأمر بك به.

يا بني إذا اختلف عليك أمران: أمر يصلح بينك وبين خاصتك وأمر يصلح بينك وبين الله عز وجل فاتبع ما يصلح بينك وبين الله عز وجل.

1 - في الأصل: تكملت.

2 - سورة الطلاق، الآية 3.

3 - سورة آل عمران، الآية 26.

* في الأصل كساه، ولم ترد هذه الكلمة في الحديث لذلك كتبت بدلها الكلمة الواردة فيه وهي كلمة: ألبسه.

4 - رواه أبو يوسف، الآثار لأبي يوسف، منشور على شبكة الأنترنت، موقع:

<http://www.alsunnah.com>، ج 2، ص 409.

واعلم يابني أن خير الزاد التقوى، والآخرة خير لك من الأولى، وشر معبود عبد في الدنيا الهوى.

يابني أجمل عدة تعتدها وزينة تتزين بها اتباع الحق واجتناب الباطل، وصلة الأرحام؛ فالخير في الواصل.

وتجنب مال الأيتام والتعفف عن الحرام، وارغب فيما عند الله، وازهد عما في أيدي الناس، فمن اتبع الحق هابه الخلق، ومن اجتنب الباطل أمن من الأفات العواطل، وصلة الأرحام زيادة في الأعمار وأمان من البوار.

واعلم يابني أن من أكبر الكبائر أكل مال الأيتام، وأعظم الأوزار ارتكاب تهوين الاجترام.

واعلم يابني أنه لا يبقى للإنسان إلا الشاء الحسن، والعمل الصالح الذي لا يخاف معه محن، وليكن اعتبارك بالأمم الماضية والقرون الخالية، فإنه قد ذهبت أموالهم وبقيت أعمالهم.

يابني إياك والغفلة، واستعمل الزاد للقلّة، فإن الموت أقرب إليك من نفسك إليك، ومن رد طرفك عليك.

يابني واعلم أن الناس (يخوضون ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون)¹؛ فمن غرس خير اجتني مسرة وكرامة، ومن غرس شر اجتني مضرة وندامة.

واعلم يابني أن جوارحك شهود عليك، وقدم الأعمال الصالحة بين يديك.

يابني عليك بالصدق فإن الصدق رفعة وديانة، والكذب مذلة وخيانة وإهانة.

يابني اجعل عقلك أميرك، وصمتك وزيرك، والعدل جليسك، والحق أنيسك.

1 - إشارة إلى قوله تعالى: (فَذَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ). سورة الزحرف، الآية 83.

يابني عليك بالجلود والإيثار وخصوصا لعباد الله الأخيار، واکرم العلماء والصالحين، والتحريرات للمرابطين، وشد معالم العلم، وعليك بالتقوى والحلم، واعتبر بقصة نظام الملك وزير البارسلان: ذكر الطرطوشي أنه كان بالعراق حين وزر نظام الملك خراجا لملك الترك الفتح بن البارسلان، وكان قد وزر قبله لأبيه، فقام بدولتها أحسن قيام، شد أركانها، وشيد بنيانها، واستمال الأعداء، وولى الأولياء، واستعمل الكفاة، وعم إحسانه العدو والصديق، والقريب والحبيب والبعيد، حتى ألف الملك بجيرانه، وذل الخلق لسلطانه، فكان مهد له ذلك باذن الله وتوفيقه إياه، لأنه اقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، وبني دور العلم للفقهاء، وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعباد وأهل الصلاح والزهاد والفقراء، ثم أجرى لهم الجريان والكسى والنفقات مشاهرة، وأجرى الخير على من كان من أهل الطلب والعلم، مضافا إلى ارزاقهم المرتبة، وعم ذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام، وهي بيت المقدس إلى آخر الشام الأعلى، وهي ديار بكر والعراقيين وخراسان وأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر حيحون مسيرة زهاء مائة يوم، حامل علم أو طالبه أو متعبدا أو زاهدا في زاوية بيته إلا وكرامته شاملة له، سابعة عليه.

وكان الذي يخرج من بيت أمواله في هذه الأسباب ستمائة ألف دينار في كل سنة، فوشى به الوشاة إلى أبي الفتح الملك، وأوغروا صدره عليه، وقالوا له: إن هذا المال الخارج من بيت الأموال تقيم به جيشا يركز رايته في سور القسطنطينية، فخامر ذلك قلب أبي الفتح، فلما دخل عليه قال: ياأبت بلغني أنك تخرج من بيت أموالنا في كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا، فبكى نظام الملك وقال: يابني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أبلغ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تبلغ ثلاثين دينارا، وأنت مشغل بلذاتك ومنهمك في شهواتك، وأكثر ما تصعد إلى الله معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا حشدوا كافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان وأقواس لا ينتهي مد

مرماها ثلاثة مائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزامر والطنبور، وإنما اقتصت لك جيشا يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفًا بين يدي رجم فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله اكفهم بالدعاء لك وجيشك، فأنت وجيوشك في غفارتهم تعيشون، وبدعائهم تثبتون، وبركتهم تمطرون وترزقون، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع؛ فبكى أبو الفتح بكاء شديدا ثم قال: شبابا قش¹ أكثر لي من هذا الجيش.

ومن مناقب هذا الرجل وفضله أن رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفي فقال له: يا خواجه أنا أبنى لك مدرسة بمدينة السلام لا يكون في معمر الأرض مثلها، يخلد بها ذكرك إلى يوم تقوم الساعة، فقال له: افعل، وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الأموال؛ فأتيا بقعة على شاطئ دجلة واختط بها المدرسة النظامية، وبنوها أحسن بنية، وكتب عليها اسم نظام الدولة، وبنى عليها أسواقا تكون محبسة عليها، وابتاع ضياعا وخانات وحمامات، وأوقف ذلك كله عليها، وكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسدد، وذكر جميل طبق الأرض خبره، وعم المشارق والمغارب أثره في عشر الخمسين والأربعمئة للهجرة، ثم رفع حساب ذلك إلى نظام الدولة، فبلغ ما يقارب ستين ألفا، فوشى إليه بأبي سعيد الصوفي بأن قيل له: لم تبلغ نفقة المدرسة ذلك القدر، وأن سائر الأموال احتجبتها أبو سعيد الصوفي لنفسه وخانك فيها، فدعاه نظام الملك إلى الحساب إلى اصبهان، فلما احس أبو سعيد بذلك أرسل إلى الخليفة العباسي يقول له: هل لك أن اطبق الأرض بذكرك، وأنشر لك فخرا لا تمحوه الأيام؟ قال امح اسم نظام الملك من هذه المدرسة واكتب عليها اسمك، وتزن المال ستين ألف دينار، فأرسل إليه الخليفة وقال له: أنفذ من يقبض المال، فلما استوثق منه مضى إلى اصبهان، فقال له نظام الملك: إني

1 - لم أتمكن من فهم هذه الكلمة، ولعلها غير عربية.

دفعت لك نحوا من ستين ألف دينار نفقة، وأحب إخراج الحساب، فقال له أبو سعيد: لا تطل الكلام إن رضيت وإلا محوت اسمك المكتوب على المدرسة واكتب عليها اسم من يقبض المال، فلما أحس نظام الملك قال له: يا شيخ قد سوغت لك جميع ذلك كله ولا يمح اسمنا.

ثم إن أبا سعيد بنى بتلك الرباطات الصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين وأوقف جميع ذلك على الصوفية، فالصوفية إلى وقتنا هذا في رباط أبي سعيد الصوفي وأوقافه، يتقلبون ببغداد.

واعلم يا بني أن أفعال الخير كثيرة، وأسبابها لمن يسر عليه التوفيق يسيرة، وأفضلها اتخاذاً، وأحسنها ملاذاً، وأزكاها قرابة، وأسمها عند الله يوم القيامة رتبة، الجهاد الذي هو ركن من أركان الدين، وفرض على من ولده من أمراء المسلمين في كل إقليم، والله من خلفه حماة لدينه وأنجاد.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لاتزال طائفة من أمتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)¹.

وفي التفسير أنهم إخواننا (في)² الأندلس، الذين هم بين بحر زاهر وعدو كافر، النائم منهم على فراشه كالمجاهد في سبيل الله.

فإذا كان أهلها بهذه المزية، ولهم عند الله هذه المرتبة السنية، فليكن اهتمامك يا بني بأهل الأندلس أكثر الاهتمام، وأخذك في موالاتهم ومعونتهم الأخذ التام، فتمدهم بما تستطيع عليه، من الزرع والمال والخيول والحماة والأبطال والقوة التي أمر الله نبيه عليه السلام أن يستعد بها لعدوه، ليسكن بها من علوه، وهي الرمي ورباط الخيل، تؤثرهم بذلك كل سنة، ولا تغفل عنهم في يقظة ولا سنة، ولتحمل أهلها

1 - رواه أبو عوانة في المستخرج، نسخة إلكترونية منشورة على شبكة الأنترنت، موقع:

<http://www.alsunnah.com>، ج 14، ص 491.

2 - ما بين هلالين من إضافتنا.

القاصدين إلى بلادك على البر والإكرام، والرعى والاحترام، وتيسر عليهم أسباب
إيساق الطعام، فإن مسعاهم لإقامة إخوانهم المجاهدين، ومنحاهم لما يقيم بأولاد
المسلمين المرابطين، ولا سيما تصرفهم في الميرة، واقتحامهم عليها كل مخافة عسيرة،
تخوضون إلى الإتيان بها في بحر زاهر، ويقاتلون عليها كل طاغية كافر، اذ الميرة
قوام الأجسام، وحياة الأنفس، وحفظ هذا الأنام، فإنها إذا قبلت أضعفت الأناسي،
وأقلت الأنعام.

واعلم يابني إن بلادك بحمد الله أكثر البلاد زرعاً، وأغزرها ضرعاً، وأخصب
الأوطان، وأحسنها إقليم في هذا الشأن، فلتؤثر الأندلس مما أفاء الله عليك مغنم
النعم، وتجعل نوافلك لهم قبل من تعلق بك من العرب والعجم، فإنك إن فعلت
ذلك كنت مجاهداً، ولحزب الله معاضداً، فتكثر البركات في بلادك وفي حماك
وأجنادك، وتتحفك منابر الإسلام دعاء، ثم تصلح لك بها الأمور، وتظهر لك من
بركاتك الظهور إن شاء الله تعالى.

يابني عليك بإقامة شعائر الله عز وجل، وابتهل إليه في مواسم الخير، وتوسل
واتبع آثارنا في القيام بليلة مولد الرسول عليه السلام، واستعد لها مما تستطيع من
الإنفاق العام، واجعله سنة مؤكدة في كل عام، تواسي في تلك الليلة الفقراء
وتعطي الشعراء، وإن ركبت فيك الغريزة الشعرية وتحليت بالحليلة الأدبية زدت
جمالاً إلى جمالك، وكمالاً إلى كمالك، فانظم المولدات، واجر مع جملة السابقين
في الأدبيات تحوز بذلك أفضل المزيات.

وهذا يابني دأبنا في كل عام وسنتنا على الاستمرار والدوام؛ فمن بعض ما
نضمناه في ذلك وسلكناه فيه أحسن المسالك قولنا:

ألفت الضنا¹ وألفت النحيا¹ ... وشب الأسي في فؤادي لهيـا

1 - الضنا: المزال والضعف وأثر المرض.

وَحَقْ لِنَفْسِي أَسَا أَنْ تَذُوبَا ... وَلِلدَّمْعِ مِنْ مَقْلَتِي أَنْ يَصُوبَا
فَقَدْ كُنْتُ بِالْوَصْلِ مِنْكُمْ قَرِيْبَا ... فَاصْبَحْتُ بِالْهَجْرِ أَخْشَى الرِّقِيَا
جَفَانِي الْحَيِّبِ فَسِرَ الْحَسُود ... وَأَدْنَى الْبَعِيدِ وَأَقْصَى الْقَرِيْبَا
فِيَالَيْتَ شَعْرِي هَلْ عَطْفَةٌ ... بَوَصْلِ وَعَيْشٍ يَكُونُ خَصِيْبَا
فَمَا لِي عَلَى الْهَجْرِ مِنْ قُدْرَةٍ ... يَرِيبُ النَّفُوسَ وَيَغْشَى الْقُلُوبَا
وَقَفْتُ رَجَائِي بِكُمْ فَارْحَمُونِي ... وَقَوِيْ عَلَى بَابِكُمْ مُسْتَرِيْبَا
فَرِيدَ غَرِيبٍ أَنَا بَيْنَكُمْ ... وَمَا شَأْنَكُمْ تَفْرُدُونَ الْغَرِيْبَا
وَمَا لِي ذَنْبٌ سِوَى حَبِكُمْ ... وَتَاللَّهِ عَنْ حَبِكُمْ لَنْ أَتُوبَا
فَإِنْ تَقْتُلُونِي حَلَالًا لَكُمْ ... أَنَا أَرْضَى مَا يَرْضَى الْحَيِيْبَا
وَإِنْ تَبْعِدُونِي عَلَى زَلَّتِي ... فَشِيمَتَكُمْ تَغْفِرُونَ الذَّنُوبَا
وَإِنْ تَرْحَمُوا تَرْحَمُوا صَبَكُمْ ... فَظَلَّ رِضَاكُمْ يَغْطِي الْعِيُوبَا
أَسِيرَ هَوَاكُمْ قَتِيلَ نَوَاكُمْ ... لَعَلَّ رِضَاكُمْ يَكُونُ قَرِيْبَا
فَوَادِي عَالِيٍّ وَجَسْمِي نَحِيل ... وَسَقَمِي طَوِيلٌ قَدْ أَعْيَ الطَّبِيْبَا
هَجَرْتُ الْمَجُوعَ نَثَرْتُ الدَّمُوعَ ... فَسَرِي أَذِيعُ وَالْقَلْبُ وَقَلْبِي أَدِيْبَا
بَكَيْتُ الرُّسُومَ رَعَيْتُ النُّجُومَ ... إِذَا رَى الْمَهْمُومُ مَعَ الْخَطُوبَا
أَعَاتَبَ نَفْسِي عَلَى زَلَّتِي ... فَيَزِدَادُ جَسْمِي ضَنَا وَشَحُوبَا

وزاد الهوى حين زال النوى ... وجئت اللوى¹ واعتمدت الكتيبا
لقبر التهامى لبدر التمامى ... لخير الأنام شفيعا حبيبا
فبلغ إليه سلامي عليه ... فإن لديه لسقمى طبيبا
وإن جئت نجدا وأعلامها ... فشق ثراها بدمع سكيبا
فقبر الرسول مناي ورسول ... عسى بالوصول ساحظى نصيبا
فياسعد قوم جدوا كل يوم ... وعن وضع نوم تحافوا جنوبا
حدوا النياق فزاد اشتياق ... وسالت سواقي دموعي صبيبا
تتنا لهم قصدهم عندما ... تسنم كل نجيب بنجيبا
ورموا الحمولا وأموا الرسولا ... وجابوا السهولا معا والسهوبا
ساروا عني ففاضت عيني ... وقد خلفوني مشوقا كثيبا
فقلبي بالشوق في مشرق ... وجسمي بالمغرب أضحي غريبا
سقوني كؤسا تذيب النفوسا ... ويرجوك مونسي تزيل الكروبا
بجرمة أحمد خير الورى ... رجائي وطنى به لن يخيبا
ني أتى رحمة للعباد ... فمحي ومحض عنا الذنوبا
وسن الشريعة للمؤمنين ... وشق على الكافرين الحروب
بمولده أشرق الأفق نورا ... وألبست الأرض حسنا قشيبا²

والقلب منفطر يذوب لهم أسا ... والدمع منحور كما الينبوعي
شأن المحب على زيادة حبه ... عزم المسير إلى زيارة حبه
لو كان ساعدني الزمان بقربه ... لحططت رحالي مقدس تربه
وهجرت خلالي له وربوعي
أخطأت مرمائي وغيري ما خطا ... واتبعت غيبي¹ في الذنوب وفي الخطا
والشيب وafa والشباب تفرطا ... يأسعد ساعدني على زمان سطا
هل الزمان مساعد برجوعي
سقي الثري من مدمعي لما هما ... ولقلب هام ونار أشواقي اضرما
شوق المحبوب منامي قد حما... ولقد شغفت بحب من سكن الحما
وحرمت لذاتي معا وهجوعي
قد زاد شوقي للعقيق² والصفاء ... ولروضة الهادي الشفيق المصطفا
يأهل ود أنتم أهل الوفا ... وأنا المحب لكم وقد برح الخفا
وإليكم دون الأنام رجوعي
صب صبا قلبي ودمعي قد جرا ... وهجرت سلواني ولذات الكرا
وبحالي من شوق نجد ترا ... وجدني لمن ركب البراق وقد سرا
لمقام علي في السما رفيع
يا ليلة الإثنين نورك قد سما ... وانجابت الظلمات عن أفق السما

1 - الغي: الضلال.

انظر الصاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 159.

2 - العقيق: وادي معروف بالمدينة المنورة.

وأهد إيوان كسرى عندما ... ولد النبي الهاشمي إلا كرما
في ليلة غرا في شهر ربيع
بهدي رسول الله أمته اهتدت ... بظهوره الأصنام خرت وارتدت
وبنوره نيران فارس أهدت ... وعجائب بانث وآيات بدت
وبشارة جاءت لكل مطيع
والبدر شق بغير شك يعتري ... لمحمد المختار من خير الوري
والجذع حن إليه من غير امترا ... والماء نبعا من أنامله جرى
من غير ممنون ولا ممنوع
سعد الأنام بخير من وطئ الثرى ... في ليلة الاثنين لاح وأقمر
ياحاد يا يحدوا إليه بالسر... رفقا علي فما أطيع تصبرا
عمن تحكم حبه في ضلوعي
يارب كم بالذنوب أنوسا ولكم ... أعطيت مع العصاة جلوسا
وسقيت من فقد الحبيب كؤسا ... يارب يرجو منك عبدك موسا
عفوا بمن يوصل منزل الترفيع
أدعوك دعوة مستهام واله ... أوليتني منك الإحسان فواله
واسمح لعبدك عن قبيح فعله ... فوسيلتي حب النبي وآله
خير الأنام وهو خير شفيع
وقلت أيضا:

قفا أخبراني عن رسوم نواهج ... وعن معلمات طيبات الأرائج¹
 وعن أرض نجد والعريب وبارق ... ولا تخبران عن ذوات الدماج²
 وشد خماسا كالجدوع جدائدا ... وجد السرى باليعلميات الدواج³
 وجوبا الفيافي والمهامه⁴ واستعن ... على قطع أسباب النوا بالنواعج⁵
 وعوجا بواد الطلح من أرض رامة ... وزما الهواد عند رملة عاج
 وإن جئت نجد فانتشق من تراجها ... كصرف عبير وكطيب النوافج⁶
 وإن أبصرت عيناك أرض تامة ... فبشراك قد وافيت أسنى المناهج
 فاسر بطرف فوق طرف مضمر ... وحط حمول البزل⁷ بين الغوانج¹

- 1 - الأرائج: جمع أريج وهو الرائحة الطيبة.
انظر صاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 134.
- 2 - الدماج جمع مفردة الدمج وهو، بضم الدال وسكون الميم وضم اللام، السوار الذي يلبس في العضد للزينة.
- 3 - الدواج جمع دوج وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير. وأصل الدوج وولج لأنه فوعل من ولج يلج إذا دخل فأبدلوا من الواو تاء فقالوا تولج ثم أبدلوا من التاء دالا فقالوا دوج . وكل ما ولجت فيه من كهف أو سرب ونحوهما فهو تولج ودولج .
- انظر ابن الأثير الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، م س، ج 2، ص 350.
- 4 - المهامه: جمع مفردة مهمه، وتعني الأرض المقفرة التي لا نبات فيها.
انظر ابن منظور، م س، مادة مهمه.
- 5 - النواعج من النعج: ضرب من سير الإبل نعجت الناقة تنعج نعجا ونعجا، وهي ناعجة والجمع نواعج.
ابن دريد، م س، ج 1، ص 240.
- 6 - النوافج: جمع مفردة النافجة، بكسر الفاء وفتح الجيم، وهي وعاء المسك.
- الدكتوران محمد روا قلعة جي و حامد صادق قنبي، م س، ج 1، ص 472.
- 7 - البازل هو الحمل الذي أتم السنة الثامنة وطعن في التاسعة وفطر نابه فهو حينئذ بازل وكذلك الأنثى بغير هاء حمل بازل وناقاة بازل وسمي بازلا من البزل وهو الشق وذلك أن نابه إذا طلع يقال له بازل لشقه اللحم عن منبته شقا.
- ابن منظور، م س، مادة بزل.

وقل لسلمى لست أسلو بجبها ... وأن طريقي لست فيها بناهج
وإن برقت من أرض نجد بوارق ... تذكرني عهد الهوى والهواج
فصرح بذكر العقيق وحاجر... لأن بها يشفى غليل اللواعج
وإن جئت أرضا بالحجاز عرفتھا ... فشق ثراها بالدموع الموارج²
أقول لأضعان وقد غالها السر... أوأنسها الحادي وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسرا فابشري ... بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا سر غريب وربما ... أتى النفع من حال أريد به الضر
وإن تحن الأيام لم تحن النهى ... وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
وإن حركت مني الخطوب مجربا ... لغابا تساوى عنده الحلو والمر
فقد اعجمت عودا طيبا على القوى ... وعزما كما تمضى المهندة البتر
إذا أنت بالبيضاء أقررت متلى ... فلا اللحم حل ما حييت و لا الظهر
زجرنا بإبراهيم براء همومنا فلما ... رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخب من آل يعقوب كلما دجا ... الخطب لم يكذب لعزمته فخر
تناقلت الركبان طيب حديثه... فلما رأته صدق الخبر الخبر
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه ... ولم يتعقب مده أبدا جزر
وبأس غدا يرتاع¹ من خوفه الردى ... وترفل² في أذياله الفتكة³ النكر

أطاعته حتى العصم⁴ في قنن⁵ البا⁶ ... وهشت⁷ إلى تأميلة الأنجم الزهر
قصدناك يا خير الملوك على النوا... لتنصفنا مما جنا عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن علوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعدنا بذاك المحمد فانصرم⁸ الردى ... ولدنا بذاك العز فانهرم الدهر
ولما اتينا البحر يرهب موجه ذكرنا ... نذاك العمر فاحتقر البحر
خلافتك العظما ومن لم يدر بما ... فإيمانه لغو ومعروفه نكر
ووصفك يهدى المدح قصد صوابه ... إذا ظل في اوصافه من دونك الشعر
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت ... وقد طاب منها السر لله والجهر
ومدت إلى الله الأكف ضراعة ... فقال لمن الله قد قضى الأمر
وألبسها النعمى ببغيتك التي لها ... الطائر الميمون والمحتد الحر
فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا ... وقد كان مما ناله ليس يعتر
وأمنت بالسلم البلاد وأهلها ... فلا ضنة¹ تعرى ولا روعة تعر

وقد كان مولانا أبوك مصرحا ... بأنك في أولاده الولد البر
وأوحشت من دار الخلافة هالة ... رضانا لا يلوح له البدر
فرد عليك إلا حقت اذ قصى ... بأن النعمى وينسدل السر
وقاد إليك الملك رفق لخلقه ... وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا
وزادك بالتمحيص عزا ورفعة وأحرا ... ولولا السبك ما عرف النصر
وأنت الذي تدعى إذا دهم الردا ... وأنت الذي ترجى إذا أخلف القطر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... ومن عليك يلتمس الجبر
غريب يرجى منك ما أنت أهله ... فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بآل مرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففي ضمن ما تأتي به العز والجبر
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم ... بحق فما زيد يرجى ولا عمر
فإن قيل مال مالك الدثر وافر .. وإن قيل جيش عبدك العسكر المجر
يكف بك الغادي ويحي بك الهدى ... ويبني بك الإسلام ما هدم الكفر
أعده إلى أوطانه عنك راضيا ... وطوقه نعماك التي مالها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه غبرها ... فقد صدهم عنه التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقه ... تحاولها منك ما بعدها حسر
مramك سهل لا تؤزرك كلفة سوى ... عرض ما إن له في العلى حصر

وما العمر إلا زينة مستعارة ... ترد ولكن الثناء هو العمر
ومن باع ما يفنى بباق مخلد ... فقد أنجم المسعى وقد ربح الأجر
ومن دون ما تبغيه يا ملك العلى ... جياذ المراكى¹ والمحجلة² الضمر
وراد وشقر واضحات شباتها ... فأجسامها تبر وأرجلها در
وشهب إذا ما صمرت³ يوم غارة ... مظهمة غارت بما الشهب الزهر
عليها من المبادي كل معاضة⁴ ... تدافع في أعطافها اللجج⁵ الخطر.
أنتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله
وكان الفراغ منه أوائل شعبان المعظم عام تسعة وعشرين ومائة وألف.

-
- 1 - المراكى: الدائم المقيم. صاحب بن عباد، م س، ج 2، ص 62.
 - 2 - المحجلة: جمع مفردة المحجل و هو الجواد الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين لأنهما مواضع الأحجال وهي الخلاخيل والقيود؛ ويقال: خير الخيل الأفرح المحجل. ابن الأثير الجزري أبو السعادات المبارك بن محمد، م س، ج 1، ص 899.
 - 3 - صمر: قال الليث في بيان معنى صمرت: صمر الماء صمورا جرى من حدور في مستوى فسكن. انظر صاحب بن عباد، م س، مادة صمر.
 - 4 - المعاضة: من عض يعض عضاً، قال ابن منظور: (العض الشد بالأسنان على الشيء وقد عضضته أعضه وعضضت عليه عضاً وعضاضاً وعضيضاً وعضضته... والأمر منه عض وعضض... وفي حديث العرباض وعضوا عليها بالنواجذ... هذا مثل في شدة الاستمساك بأمر الدين لأن العض بالنواجذ عض بجميع الفم والأسنان وهي أواخر الأسنان وقيل هي التي بعد الأنياب... وكذلك المعاضة والعضاض... وعض الرجل بضاحيه يعضه عضاً لزمه ولزق به وفي حديث يعلى ينطلق أحدكم إلى أخيه فيعضه كعضيض الفحل أصل العضيض اللزوم وقال ابن الأثير في النهاية المراد به ههنا العض نفسه لأنه بعضه له يلزمه.. وعض عليها لزمها... وأعض الرمح الثقاف ألزمه وعضضت بمالي عضوضاً وعضاضة لزمته) لسان العرب، مادة عضض.
 - 5 - اللجج: جمع مفردة اللج وهو السيف. انظر الجوهري، م س، ج 2، ص 134.

ملحق

بعض ما قيل في أبي هو من الشعر والنثر

أولاً: من شعر لسان الدين بن الخطيب

1- الميمية¹

صبور على البلوى طهور من الهوى ... قريب من التقوى بعيد المآثم
ومن يبغ درك المعلوات ونيلها ... يساق بخلق الشهد مر العلاقم
ولائمة لما ركبنا إلى العلا ... بحار الردى في لجها المتلاحم
تقول بإشفاق أتسى هوى الدما ... وتثر درراً من دموع سواجم
إليك فإننا لا يرد اعتزامنا ... مقالة باك أو ملامة لآيم
ألم تدر أن اللوم لوم وأننا ... لنجتنب اللوم اجتناب المحارم
فما بسوي العليا همنا جلالة ... إذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا ... أحب إلينا من بروق المباسم
وأما صميل السابحات لذي الوغى ... فأشجى لدينا من غنا الحمام
وأحسن من قد الفتاة وخدها ... قدود العوالي أو خدود الصوارم
إذا نحن جردنا الصوارم لم تعد ... إلا غمادها الأبحر الغلاصم
نواصل بين الهند وأني الطلا ... بتفريق ما بين الطلي والجماجم
فيرغب منا السلم كل محارب ... ويرهب منا الحرب كل مسالم
نقود إلى الهيجاء كل مضمّر ... ونقدم إقدام الأسود الضراغم

1 - تسمية القصيدة بالميمية من وضعنا

وما كل من قاد الجيوش إلى العدا ... يعود إلى أوطانه بالغنائم
وننصر مظلوما ونمنع ظالما ... إذا شيك مظلوم بشوكة ظالم
ويأوي إلينا المستجير ويلتجى ... ويحميه منا كل ليث صيارم
ألم تر إذ جاء السبيعي قاصدا ... إلى بابنا يبغي التماس المكارم
وذلك لما أن جفاه صحابه ... وكل خليل وده غير دائم
وأزمع إرسالاً إلينا رسالة ... بإخلاص ود واجب غير واجم
وكان رأى أن المهامة بيننا ... فخلى لذات الخف ذات المناسم
وقال ألا سل من عليم مجرب ... أثبت له ما تحت طي الحيازم
فيلغ عنه الآن خير رسالة ... تؤدي إلى خير الملوك الأعظم
على ناقة وجناء كالحرف ضامر ... تخيرها بين القلاص الرواسم
من اللابي يظلمن الظليم إذا عدى ... ويشبهه في جيده والقوام
إذا أتلت فوق السحاب جوابها ... تخليتها تعض السحاب الرواكم
وإن هلمجت بالسير في وسط مهمه ... نزلت كمثل البرق لاح لشائم
ولم يأمن الخلان بعد اختلالهم ... فأمسى وفي أكبادها أي جاحم
فقالوا فحملها الحمام قال لا ... لبعد المدا أو خوف صيد الحمام
وما القصد إلا في الوصول بسرعة ... فقالوا فحملها أكف النواسم
فقال لنعم المرسلات وإنما ... لها ألسن مشهورة بالنمام
فلم يلف فيها للأمانة موزعا ... وكل امرئ للسر ليس بكاتم
فحينئذ وافى إلينا بنفسه ... فكان لدينا خير واف وقادم

يجوب إلينا البیداء قصداً وبشرنا ... یضیء له الظلماء فی کل عاتم
طلاب العلا تسري مع الوحش فی الفلا ویصحب منها کل باغ وباغم
على سلهب ذی صوتین مطعم ... من المغربات الصافنات الصلادم
إذا شاء أي الوحش أدركه به ... فتحسبه فی البید بعض النعام
ویقدمه طوعاً إلینا رجلؤه ... حمايتنا إياه من کل ظالم
ألا أيها الآتي لظل حناننا ... نزلت برحب فی عراض المكارم
وقوبلت منا بالذی أنت أهله ... وفاض عليك الجود فیض الغمام
كذا دأبنا للقدامین محلنا ... حمی ونداً ینسی به جود حاتم
وهذا جواب عن نظامك إننا ... بعثنا به كاللؤلؤ المتناظم
ونحن ذور التيجان من آل حمير ... لعمرک ما التيجان غير العمام
بممتنا العليا سمونا إلى العلا ... وکم دون إدراك العلا من ملاحم
شددنا لها أزراً وشدنا بناءها ... وکم مکثت دهرأً بغير دعائم
نظمنا شتیت المجد بعد افتراقه ... وکم بات نخبأً شمله دون ناظم
ورضنا جیاد الملك بعد افتراقه ... وکم بات نخبأً شمله دون ناظم
ورضنا جیاد الملك بعد جماحها ... فذلت وقد كانت صعاب الشكايم
مناقب زيانیة موسویة ... یذل لها عز الملوك القماقم
یقصر عن إدراكها کل مبتغ ... ویعجز عن إحصائها کل ناظم
فلله منا الحمد والشکر دائماً ... وصلى الله على المختار من آل هاشم

ونختصكم منا السلام الأثير ما ... تضاحك روض عن بكاء الغمام¹

2- السينية²

أطلعن في سدف الفروع شمسها ... ضحك الظلام لها وكان عبوسا
وعطف قضا للقدود نواعما ... بوئن أدواح النعيم غروسا
وعدلت عن جهر السلام مخافة ال ... واشي فجئن بلفظه مهوسا
وسفرن من دهش الوداع وقومهن ... إلى الترحل قد أناخوا العيسا
وخلصن من خلل الحجال إشارة ... فتركن كل حجالها مخلوسا
لم أنسها من وحشة والحي قد ... زجر الحمول وآثر التغلिसا
لا الملتقي من بعدها كذب ولا ... عوج الركاب تسأم التخيسا
فوقفت وقفة هائم برحائها ... وقفت عليه وحبت تحيسا
ودعوت عيني عاتبا وعيونها ... بعصا النوى قد يجست تبجيسا
نافست يا عيني در دموعهم ... فعرضت درا للدموع نفيسا
ما للحمى بعد الأحبة موحشا ... ولكم تراءى أهلا مأنوسا
ولسر به حول الخميلة نافرا ... عمن يحس به وكان أنيسا
ولظله المورد غمر قلبيه ... لا يقتضي وردا ولا تعريسا
حيته فأجابني رجع الصدى ... لا فرق بينهما إذا ما قيسا
ما إن يزيد على الإعادة صوته ... حرفا فيشفى بالمزيد نسيسا

1 - ابن الخطيب، الإحاطة في أحوال غرناطة، ج 1، ص 446.

2 - تسمية القصيدة بالسينية وضعها المقرئ. انظر أزهار الرياض، ص 83.

نضرب المعين وقلص الظل الذي ... ظلنا وقوفا عنده وجلسا
نتواعد الرجعى ونغتشم اللقا ... وندير من شكوى الغرام كؤوسا
فإذا سألت فلا تسأل مخبرا ... وإذا سمعت فلا تحس حسيسا
عهدي به والدهر يتحف بالمنى ... وقد اقتضت نعماه أن لا بوسا
و العيش غض الريع والدنيا قد اج ... تليت بمغناه على عروسا
أترى يعيد الدهر عهدا للصبيا ... درست مغاني الأنس فيه دروسا
أوطان أوطار تعوض أفاقها ... من رونق البشر البهي عبوسا
هيهات لا غني لعل ولا عسى ... في مثلها إلا لآية عيسى
والده في دست القضاء مدرس ... فإذا قضى يستأنف التدريس
تفتن في جمل الورى أبحاثه ... لا سيما في باب نعم وبيسا
و سجية الإنسان ليس بناصل ... من صبغها حتى يرى مرموسا
يغتر مهما ساعدت آماله ... فإذا عراه الخطب كان يئوسا
فلو إن نفسا مكنت من رشدها ... يوما وقدسها الهدى تقديسا
لم تستفز رسوخها النعمى ولا ... هلعت إذا كشرت إليها البوسا
قل للزمان إليك عن متذمم ... بضمار عز لم يكن ليخيسا
فإذا استحر جلاده فأنا الذي اس ... تغشيت من سرد اليقين لبوسا
وإذا طغا فرعونه فأنا الذي ... من ضره أذاه عدت بموسى
أنا ذا أبو مثواه من يحمي الحمى ... ليثا ويعلم بالزئير الخيسا
بحمى أبى حمو حططت ركابي ... لما اختبرت الليث والعريسا

أسد الهيجاء إذا خطا قدما سطا ... فيخلف الأسد الهزبر فريسا
بدر الهدى يأبى الظلال ضياؤه ... أبدا فيجلو الظلمة الخنديسا
جبل القار رسا وأشرف وأعتلى ... وسما فطأطأ الجبال رءوسا
غيث النوال إذا الغمام حلوبة ... مثلث بأيدي الحالبين بسوسا
تلقاه يوم الأنس روضا ناعما ... و تراه بأسا في الهيجاء بئيسا
كم غمرة جلى وكم خطب كفى ... إن أوطأ الجرد العتاق وطيسا
كم حكمة أبدى وكم قصد هوى ... للسالكين أبان منه دريسا
أعلى بني زيان والفذ الذي ... لبس الكمال فزين الملبوسا
جمع الندى والباس والشيم العلا ... والسودد المتواتر القدموسا
والحلم ليس يباين الخلق الرضا ... والعم ليس يعارض الناموسا
والسعد يغني حكمه عن نصبة ... تستخير التريع والتسديسا
كم راض صعبا لا يراض معاصيا ... كم خاض حربا لا يخاض ضروسا
بلغ التي لا فوقها متمهلا ... وعلا السها واستسفل البرجيسا
يا خير من خفقت علي سحابة ... للنصر تمطر أجش بجيسا
وأجل من حملته صهوة سابح ... إن كرم الله وجهه ضعضع كره الكردوسا
قسما بمن رفع السماء بغير ما ... عمد ورفع فوقها إدريسا
و دحا البسيطة فوق لج مزبد ... ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهله الوعد الذي ... حشر الرئيس إليه والمرءوسا
ما أنت إلا زخر دهرك دمت في الص ... وان الحرير ممتعا محروسا

لو ساومته الأرض فيك بما حوت ... لراك مستاما باب الرجل مبخوسا
حلف البرور بما ألية صادق ... ويمين من عقد اليمين غموسا
من قاس ذاتك بالذوات فإنه ... جهل الوزان وأخطأ التقييسا
لا تستوي الأعيان فضل مزية ... و طبيعة فطر الإله وسوسا
لعناية التخصيص سر غامض ... من قبل ذرة الخلق خص نفوسا
من أنكر الفضل الذي أوتيته ... جحد العيان وأنكر المحسوسا
من دان بالإخلاص فيك فعقده ... لا يقبل التمويه والتلبيسا
والمتمي عيصك لم تكن ... لترى دخيلا في بنيه دسيسا
بيت البتول ومنتى الشرف الذي ... تحمى الملائك دوحه المغروسا
أما سياستك التي أحكمتها ... فرميت بالت أسطاليسا
فلوان كسرى الفرس أبصر بعضها ... ما كان أن يعد سؤوسا
لو سار عدلك في السنين لما اشتكت ... بخسا ولم يك بعضهن كبيسا
ولو الجوارى الخنس انتسبت إلى ... أقوام عزك ما خنسن خنوسا
قدت الصعاب فكل صعب سامح ... لك بالقياد وكان قبل شموسا
تلقى الليوث وللقتام غمامة ... قدح الصفيح وميضها المقبوسا
وكأنها تحت الدروع أراقم ... ينظرون من خلل المغافر شوسا
ما لابن ملمة في القدم وحاتم ... ضرب الزمان بجودهم ناقوسا
من جاء منهم مثل جودك كلما ... حسبوا المكارم كسوة أو كيسا
أنت الذي أفتك السفين وأهله ... إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا

أنت الذي أمددت ثغر الله بالص ... دقات تبلس كرة إبليسا
وأعنت أندلس بكل سبيكة ... موسومة لا تعرف التدليسا
وشحنته بالبر في سبل الرضا ... والبر قارب قاعها القاموسا
إن لم تخر بها الخميس فطالما ... جهزت فيها النوال خميسا
وملأت أيديهم وقد كادت على ... حكم القضاء تشابه التفليسا
صدقت للآمال صنعة جابر ... وكفيتها التشميع والتشميسا
والحل والتقطير والتصعيد والت ... خمير والتوصيل والتكليس
فسكبت من آمالها مالا ومن ... أوراقها ورقا وكن طروسا
بجتوا فلما استخبروا لم ينكروا ... وزنا ولا لونا ولا ملموسا
تدبير من قلب السطور سبائكا ... منها ومن طبع الحروف فلوسا
ونحوت نحو الفضل تعضد منه بال ... مسموع ما ألفيت منه مقيسا
وجبرت بعد الكسر قومك جاهدا ... تغني العدم وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزهم من بعدما ... دال الزمان فسامها تنكيسا
أحكمت حيلة برئهم بلطافة ... قد أعجزت في الطب جالينوسا
وفللت من حدّثني الزمان وإنه ... أوحى وأمضى من غرار الموسى
وشحذت حدا كان قبل مثلما ... ونعشت جدا كان قبل تعيسا
لم ترج إلا الله جل جلاله ... يقال شدة تكفي وجرح يوسى
قدمت صباحا فاستضأت بنوره ... ووجدت عند الشدة التنفيسا
ما أنت إلا فالح متيقن ... بالنجح تعمر ممرعا ويبيسا

ومتاجر جعل الأريكة صهوة ... عربية والمتكا القربوسا
ما إن تباع أو تشاري واثقا ... بالربح إلا المالك القدوسا
والعزم يفتزع النجوم بناؤه ... مهما أقام على التقى تأسيسا
ومقام صبرك واتكالك مذكر ... بحديث الشبلي أو طاووسا
ومن ارتضاه الله وفق سعيه ... فرأى العظيم من الحظوظ خسيسا
ما ازددت بالتحميم إلا جدة ... ونضوت من خلع الزمان لبيسا
ولطالما طرق الخسوف أهله ... ولطالما اعترض الكسوف شموسا
ثم انجلت نسماهما عن مشرق ... للسمد ليس بحاذر تعيسا
خذها إليك على النوى سينية ... ترضي الطباق وتشكر التجنيسا
إن طوولت بالدر من حول الطلى ... يوما تشكت حظها الموكوسا
لولاك ما أصغت لخطبة خاطب ... ولعنست في بيتها تعيسا
قصدت سليمان الزمان وقاربت ... في الخطو تحسب نفسها بلقيسا
لي فيك ود لم أكن من بعدما ... أعطيت صفقة عهده لأخيسا
كم لي بصحة عقده من شاهد ... لا يحذر التجريح والتدليسا
يقفو الشهادة باليمين وأنه ... لمؤمن من أن يعد فسيسا
لا يستقر قرار أفكارى إلى ... أن أستقر لدي علاك جليسا
وأرى تجاهلك مستقيم السير لل ... قصد الذي أعملته معكوسا
هي دين أيامي فان سمحت به ... لم يبق من شيء عليه يوسى
لا زال صنع الله جنوبا إلى ... مثواك يهدي البشر والتأنيسا

متتابع كتتابع الأيام لا ... يذر التعاقب جمعة وخميسا

فلو أنصفتك إيالة الملك التي ... رضت الزمان وكان شريسا

قرنت بذكرك والدعاء لك الذي ... تختاره التسبيح والتقديسا

القلب أنت لها رئيس حياتها ... لم تعتبر مهما صلحت رئيسا¹

ثانيا - من شعر يحيى بن خلدون

نظم الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خلدون كاتب الإنشاء أيام السلطان أبي

حمو

موسى بن يوسف الزياني رحمه الله قصيدة بديعة، ورفعها إلى السلطان أبي

حمو في الاتفال بالمولد سنة ثمان وسبعين وسبع مائة، ونص القصيدة:

ما على الصب في الهوى من جناح ... أن يرى حلف عبرة وافتضاح

وإذا ما المحب عيل اضطبارا ... كيف يصغي إلى نصيحة لاحي

يا رعي الله بالمحصب ربعا ... آذنت عهده النوى بانتزاح

كم أدرنا كأس الهوى فيه مزجا ... رُبَّ جدٍ من الجوى في المزاح

هل إلى رسمه المحيل سبيل ... يا حدادة المطى تلك الطلاح

نسأل الدار بالخليط ونسقى ... ذلك الربع بالدموع السفاح

أي شجو عانيت بعد نواها ... من أسى لازم وصير مزاح

أهل ودي إن رابكم برح وجدوى ... من صبا بارح وبرق ليح

فأسألوا البرق عن خفوق فؤادي ... والصبا عن سقام جسمي المتاح

1 - المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، م س، ص 85.

يا أهيل الحمى نداء مشوق ... ما له عن هوى الدمى من براح
طلما استعذب المدامع ورداً ... في هواكم عن كل عذب قراح
عاده بالطلول للشوق عيد ... من حمام بدوحهن صداح
من لقلب من الجوى في ضرام ... ولجن من البكا في جراح
ولصب يهيجه الذكر شوقاً ... فهو سكرأ يرتاح من غير راح
وليال قضيت للهو فيها ... وطرا والشباب ضافي الجناح
راكبا في الهوى ذلول تصاب ... ساحباً في الغرام ذيل مراح
ونجوم المنى تنير إلى أن ... روع الشيب سربها بالصباح
أي مري حمدت لم ادخل منه ... بسوى حسرة وطول افتضاح
واخسارى يوم القيامة إن لم ... يغفر الله زلي واجتراحي
لم اقدم وسيلة فيه إلا ... حب خير الورى الشفيع الماحي
سيد العامين دنيا وأخرى ... اشرف الخلق في العلا والسماح
سيد الكون من سماء وأرض ... سره بين غاية وافتتاح
زهرة الغيب مظهر الوحي معنى الن ... ور كنه المشكات والمصباح
آية المكرمات قطب المعالي ... مصطفى الله من قریش البطاح
أول الأنبياء تخصيص زلفى ... آخر المرسلين بعث بنجاح
صفوة الخلق أرفع الرسل قدراً ... وسراج الهدى وشمس الفلاح
من ميلاده بمكة ضاءت ... من قرى قيصر جميع الضواحي
وخبث نار فارس وتداعت ... من مشيد الإيوان كل النواحي

من رقى في السماء سبعاً طباقاً ... ورأى آي ربه في اتضاح
ودنا منه قاب قوسين قرأ ... ظافراً في العلى بكل اقتراح
من هدى الخلق بين حمر وسود ... وجلال ليل غيهم بالصباح
من يجير غدا يوم يجزى ... كل عاص وطائع باجتراح
من إلى حوضه وظل لواه ... يلجأ الناس بين ظام وضاحي
أحمد المجتبي حبيباً وإني ... فوق عز الحبيب مرمى طماح
في أناجيله المسيح تلاه ... باسمه والكلیم في الألواح
ولكم حجة وبرهان صدق ... في سماع أتى بها والتماح
إن في النجم والنبات لآياً ... بمرت والجماد والأرواح
معجزات فتن المدارك وصفاً ... وحساباً كالزهر أو كالصباح
يا رواة القريض ولا شعر عجزاً ... ما عسى تدركون بالأمداح
إنما حسبنا الصلاة عليه ... وهي للفوز آية استفتاح
يا الهی بحق أحمد عفواً ... عن ذنوب جنيتهن قباح
و آدم دولة الخليفة موسى ... ذي المعالي المينة الأوضاح
مفخر الملك مستقر المزايا ... مظهر اللطف ذو التقى والصلاح
ناصر الحق خاذل الجور عدلاً ... ملجأ الخائفين بحر السماح
يتلقى لاندی بوجه حيي ... ويلاقى العدا ببأس صفاح
وله المكرمات إرثاً ولبساً ... حاز حمداً بما معلى القдах
من علا باذخ وفخر صميم ... وكمال بحثٍ ومجدٍ صراح

وأحاديث في المعالي حسانٍ ... رويت عنه في العلى الصباح
عاقده صفقة العلا كل حين ... فائز فيه سعيه بالرباح
للى والهدى يروح ويغدو ... أي مغدي إلى العلا ومراح
ملك تشرق الأسرة منه ... في سماء السرير نور صباح
وإذا ما علا بعالي العوالي ... صهوة الجود فهو ليث الكفاح
لبس الدهر منه حلة حسن ... وثنى للسرور عطف مراح
وعلا عاتق الخلافة منه ... طراز فخر سي النهى بالتماح
ورث الملك شامخاً عن سراة ... شيدوا ركنه بأيدي الصفاح
من بني القاسم الذي تحلوا ... بالمعالي واستأثروا بالفلاح
فرعوا هضبة الخلافة مجدداً ... رفعوا سقفه على الأرماح
نشروا راية المفاخر حمداً ... خافق النور بالرابا والبطاح
يا إماما بذلك الملك جلالاً ... وجمالاً فديت بالأرواح
أنت شمس الكمال دمت علياً .. في اغتباق من المنى واصطباح
وبنوك الأعلون أنجم سعدٍ ... زاهرات بنورك الوضاح
وأبو تشافين بدر منير ... زانه الله بالخلال الصباح
أكمل العالمين خلقاً وخلقاً ... اشرف الناس في الندى والكفاح
وبكم زينت سماء المعالي ... واهتدى الناس في الدجى والصباح¹
ثالثا : من قصائد الفقيه الكاتب محمد الثغري

1 - اوردها المقرئ في أزهار الرياض، م س، ص 215.

1- قصيدة أيها الحافظون عهد الوداد

نظم الفقيه الكاتب العلامة الناظم أبي عبد الله محمد بن يوسف الشغري
كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين أبي حمّو موسى بن يوسف الزياني بمدحه
ويذكر تلمسان المحروسة، هذا نصها:

أيها الحافظون عهد الوداد ... جدّدوا أنسنا بباب الجياد
وصلوها أصلاً لبليالٍ ... كلالٍ نظمن في الأجياد
في رياضٍ منضدات المجاني ... بين تلك الربى وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني ... باديات السنا كشهب بواد
رقّ فيها النسيب مثل نسيي ... وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر والغصون تثت ... وتغنّت عليه ورق شواد
وانبرى كل جدول كحسام ... عاري الغمد سندسيّ النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه ... أحرفاً سطرّت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خودٍ ... نصبت فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المني تدار علينا ... بجنى عفةٍ ونقل اعتقاد
واصفار الأصيل فيها مداً ... وصفير الطيور نغمة شاد
كم غدونا بما لأنس ورحنا ... جادها رائح من المزن غاد
رقت الشمس في عشايه حتى ... أحدثت منه رقةً في الجماد
جددت بالغروب شجو غريبٍ ... هاجه الشوق بعد طول البعاد
يا حيا الزمن حيّها من بلادٍ ... غرس الحب غرسها في فؤادي
وتعاهد معاهد الأنس منها ... وعهود الصبا بصوب العهد

حيث مغنى الهوى، وملهى الغواني ... ومراد المنى، ونيل المراد
ومقرّ العلا، ومرقى الأماني ... ومجرّ القنا، ومجرى الجياد
كل حسن على تلمسان وقف ... وخصوصاً على ربّ العباد
وسما تاجها على كل تاج ... ونما وهدها على كلّ ناد
يدّعي غيرها الجمال فيقضي ... حسنّها أنّ تلك دعوى زياد
بشعري فهمت معنى علاها ... من حلاها فهمت في كلّ وادي
حضرة زانها الخليفة موسى ... زينة الحلّي عاطل الأجياد
وحباها بكلّ بذل وعدل ... وحماها من كلّ باغ وعاد
ملك جاوز المدى في المعالي ... فالنهايات عنده كالمبادي
معقل للهدى منيع النواحي ... مظهر للعلا رفيع العماد
قاتل المحل والأعادي ... جميعاً بغرار الظبي وغرّ الأيادي
كلّما ضنّت السحائب أغنت ... راحتاه عن السحاب الغواذي
كم هباتٍ له وكم صدقاتٍ ... عائذات على العفاة بواد
فأيادي خليفة الله موسى ... أبجرّ عذبة على الورّاد
ركّب الجود في بسيط يديه ... فتلافي به تلاف العباد
جلّ باريه ملجأ للبرايا ... كالحيا ضامناً حياة البلاد
جلّ من خصّه بتلك المزايا ... باهرات من طارف وتلاد
شيم حلوة الجنى وسجايا ... شهد المجد أنّها كالشهاد
يا إمام الهدى وشمس المعالي ... وغمام الندى وبدر النادي
لك بين الملوك سرٌّ خفيّ ... ليس معناه للعقول بباد
فكأنّ البلاد كفك مهما ... كان فيها من ينتمي لعناد

قبضت كفّك البنان عليه ... فأتى بالإذعان حلف انقياد
بكم تصلح البلاد جميعاً ... إنّ آراءكم صلاح البلاد
لم تزل دائماً تحنّ إليكم ... كحنين السقيم للعوّاد
لو أعينت بمنطق شكرتكم ... مثل شكر العفاة للأجواد
قد أطاعتكم البلاد جميعاً ... طاعةً أرغمت أنوف الأعداي
فأريحوا الجياد أتعبتموها ... وأقرّوا السيوف في الأغماد
واهنأوا خالدين في عزّ ملك ... قائم السعد دائم الإسعاد
وإليكم من مذهبات القوافي ... حكماً سهّلت ليان المقاد
كلّ بيت من النظام مشيدٍ ... عطرّ الأفق بالثناء المجاد¹

2 - قصيدة تاهت تلمسان بحسن شبابها

تاهت تلمسان بحسن شبابها ... وبدا طراز الحسن في جلبابها
فالبشر يبدو من حباب ثغورها ... متبسّماً أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها ... وبروجها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبي ... حمو الذي يحمي حمى أربابها
ملك شمائله كزهر رياضها ... ونداه فاض بما كفيض عبابها
أعلى الملوك الصّيد من أعلامها ... وأجلّها من صفوها ولُبابها
غارَت بغرة وجهه شمس الضحى ... وتنقيت خجلاً بثوب ضبابها
والبدر حين بدت أشعّتها له ... حسناً تضاءل نوره وخبا بما
للّه حضرته التي قد شرفّت ... خدامها فسموا بخدمة بابها

1 - أوردها المقرئ في نفع الطيب ، م س ، ج 7 ، ص 122 .

فاللثم في يمناه يبلغها المنى ... والمدح في علياه من أسبابها¹

3- قصيدة اللامية

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو
ووصف بلاد تلمسان، وأجاد فيها إلى الغاية؛ وهي:
قم مبصراً زمن الربيع المقبل ... تر ما يسرّ المجتني والمحتلي
وانشق نسيم الروض مطلولاً وما ... أهذاك من عرفٍ وعرفٍ فاقبل
وانظر إلى زهر الرياض كأنه ... درّ على لبّات ربّات الحلي
في دولة فاضت يداها بالندى ... وقضت بكل منى لكل مؤمل
بسطت بأرجاء البسيطة عدلها ... وسطت بكلّ معاندٍ لم يعدل
سلطانها المولى أبو حمو الرضى ... ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي
تاهت تلمسان بدولته على ... كلّ البلاد بحسن منظرها الجلي
راقت محاسنها ورقّ نسيمها ... فحلا بما شعري وطاب تغزلي
عرج بمنعرجات باب جيادها ... وافتح بها باب الرجاء المقفل
ولتغد للعباد منها غدوة ... تصبح هموم النفس عنك بمعزل
وضريح تاج العارفين شعيها ... زره هناك فحبّذا ذاك الولي
فمزاره للدين والدنيا معاً ... تمحى ذنوبك أو كروبك تنجلي
وبكهفها الضحك قف متزهاً ... تسرح نفوسك في الجمال الأجل
وتمشّ في جنباتها ورياضها ... واجنح إلى ذاك الجنب المخضل
تسليك في دوحاتها وتلاعها ... نغم البلايل واطراد الجدول

وبربوة العشاق سلوة عاشق ... فتنت وألحاظ الغزال الأكحل
بنواسم وبواسم من زهرها ... تهديك أنفاساً كعرف المندل
فلو امرؤ القيس بن حجر راءها ... قدماً تسلي عن معاهد مأسل
أو حام حول فنائها وظبائها ... ما كان محتفلاً بجومة حومل
فاذكر لها كلفي بسقط لوائها ... فهواي عنها الدهر ليس بمنسل
كم جاد لي فيها الزمان بمطلب ... جادته أخلاف الغمام المسبل
واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً ... وبه تسلّ وعنه دأباً فاسأل
وإِ تراه من الأزاهر خالياً ... أحسن به عطلاً وغير معطل
ينساب كالأيّام انسياً دائماً ... أو كالحسام جلاه كف الصيقل
فزلاله في كلّ قلب قد حلا ... وجماله في كلّ عين قد جلي
واقصد بيوم ثالث فوّارة ... وبعذب منهله المبارك فانحل
تجري على درّ لجيناً سائلاً ... أحلى وأعذب من رحيق سلسل
واشرف على الشرف الذي بإزائها ... لترى تلمسان العلية من عل
تاج عليه من المحاسن بهجة ... أحسن بتاج بالبهاء مكلّل
وإذا العشية شمسها مالت فمل ... نحو المصلّى ميلة المتمهل
وبملاعب الخيل الفسيح بحاله ... أجل النواظر في العتاق الحفل
فلحلبة الأشراف كلّ عشية ... لعب بذاك الملعب المتسهل
فترى المجلي والمصلّي خلفه ... وكلاهما في جريه لا يأتلي
هذا يكرّ وذا يفرّ فينثني ... عطفاً على الثاني عنان الأول
من كلّ طرف كلّ طرف يستبي ... قيد النواظر فتنة المتأمل
وردّ كأن أديمه شفق الدّجى ... أو أشهب كشهاب رجم مرسل

أو من كميت لا نظير لحسنه ... سام معم في السوابق مخول
 أو أحمر قاني الأديم كعسجد ... أو أشقر يزهو بعرف أشعل
 أو أدهم كالليل إلا غرة ... كالصبح، بورك من أغر محجل
 جمع المحاسن في بديع شياته ... مهما ترق العين فيه تسله
 عقبان خيل فوقها فرسانها ... كالأسد تنقض انتقاض الأجل
 فرسان عبد الواد آساد الوغى ... حامو الذمار أولو الفخار الأطول
 فإذا دنت شمس الأصيل لغربا ... فإلى تلمسان الأصلحة فادخل
 من باب ملعبها لباب حديدها ... متراها في كل نادٍ أحفل
 وتأن من بعد الدخول هنيهة ... واعدل إلى قصر الإمام الأعدل
 فهو المؤمل والديار كناية ... والسر في السكان لا في المترل
 فإذا أمير المؤمنين رأيته ... فالثم ثرى ذاك البساط وقبل
 فالجد لفظ في الحقيقة مجمل ... وحلاه تفصيل لذك الجمل
 بشرى لعبد الواد بالملك الذي ... خلصوا به من كل خطب معضل
 بأعزهم جاراً، وأمنعهم حمى ... وأجلهم مولى، وأعظم موئل
 بالعدل المستنصر المنصور ... والمأمون والمهدي والمتوكل
 وكفاهم سعداً أبو حمو الذي ... يحمي حماهم بالحسام الفيصل
 وبحسن نيته لهم وبجده ... وبسعدده وبسعيه المتقبل
 ذو الهمّة العليا التي آثارها ... حلت به فوق السماك الأعزل
 بحر الندى الأجل وفخر المنتدى ... وسنا الدجى الأجل وزين المحفل
 ينهل منه لنا الجدا وبه الدجى ... تجلى بمشرق وجهه المتهلل
 هناء به زمن الربيع وقل له ... بشرى بأملح من حلاك وأجمل

وعلى علاه من صنعة فضله ... ترداد نافحة السلام الأكمل¹

رابعاً: موشح لطبيب الدولة محمد بن أبي جمعة التاليسي

كان مما خوطب به السلطان أبو حمو في مولد سنة سبع وستين وسبعمائة قول
طبيب دولته أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتاليسي رحمه الله تعالى.

لي مدمع هتان ينهل مثل الدرر
قد صير الأجفان ما إن لها من أثر
حق له يجري دما على طول الدوام
مذ جد في السير ناس إلى خير الأنام
وعاقتي وزري يا صاح عن ذلك المقام
وسارت الأظعان يحدي بها في السحر
فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر
يا سعدة من زار قبر النبي المصطفى
محمد المختار قطب المعالي والوفا
في مدحه قد حار الخلق طرا وكفى
في محكم القرآن وشرحه والسير
فضله الرحمن على جميع البشر
يا حادي الركب بالله إن جئت البقيع
تحية الصب بلغ إلى الهادي الشفيع
غرب بالمغرب عن ذلك المغني الرفيع

1 - المقرئ، نفع الطبيب، ج 7، ص 126 - 128.

وليس لي إمكان ينهضي للسفر
إلا من السلطان الملك المظفر
من لم يزل يسمو إلى المعالي كل حين
ذاك أبو حمو المولى أمير المسلمين
طاعته غنم نلنا بها دنيا ودين
أظهر في البلدان من عدله المشتهر
وعم بالإحسان للبدو ثم الحضر
قابله إسعاد تكل عنه الألسنة
قبيل عبد الواد به غدت في سلطنة
أيامه أعياد يا ليتها ألف سنة
ملك بني زيان بالمشرفي الذكر
أحياء إذا قد كان ليس له من خبر
تاهت تلمستان بملكه على البلاد
صار لها شان وسعدها حلف ازدياد
قد ضل إنسان قال بما يشكو السهاد
ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
والصبر لي خوان والنوم من عيني بري¹

1 - المقرئ، أزهار الرياض، ص 83.

نص الآية	الصفحة
فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا	49
وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	66
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ	90
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ	140
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا	157
قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ	257
فَذَرَهُمْ يَخْوَضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ	258

ثانيا: فهرس الأحاديث

نص الحديث	الصفحة
الأولاد من رياحين الجنة	49
الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء	56
ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه	65
أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسي تقبض	76
لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب	79
إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء	80
يا عمير ازدد عقلا تزد من ربك حسنا	83
أفضل الناس أعقلهم	83
قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالهما فقال: أحسنهما أحسن عقلا، قالت: قلت يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما، قال: إنما ينظر لعقولهما فأيهما أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة	84
لا تعجبوا من إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله	83
ما بال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا	141

أهدي لي أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدي له

استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني أسد يقال له ابن الأتية
على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي لي فقام النبي صلى الله
عليه وسلم على المنبر قال سفيان أيضا فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه
ثم قال ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول هذا لك وهذا لي فهلا جلس في
بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا
جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها
خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ألا هل بلغت ثلاثا

141

أنا حجيج المظلوم فمن جاء حجته صحبته

145

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو
كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حججه يوم
القيامة

145

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

200

ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا...

200

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله

231

من أسر سريرة ألبسه الله رداءها

258

لاتزال طائفة من أمتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة

262

ثالثاً: بعض المصادر والمراجع المعتمدة في التحقيق

1. ابن الأثير أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد، الكامل في التاريخ،
نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

2. ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل ، تاريخ الدولة الزيانية في تلمسان،
تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2001.

3. ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، نسخة الكترونية
منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

4. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نسخة
الالكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

5. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، نسخة الكترونية منشورة على
شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

6. ابن خلدون أبو زكريا يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد
الواد، تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1903.

7. ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

8. ابن ظفر الصقلي، سلوان المطاع في عدوان الأتباع، مطبعة الدولة التونسية، عام 1279هـ، 1862م.

9. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

10. أبو حمو موسى الثاني، مخطوط واسطة السلوك في سياسة الملوك.

11. الأشعري أبو الحسن بن إسماعيل، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق محمد بشير أبو عون، نشر مكتبة دار البيان، دمشق، ط 3، 1990.

12. السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد، أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت، 1963.

13. البغدادى إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

14. التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل، نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيايد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، عام 1985.

15. الجاحظ عمر بن بحر، التاج في أخلاق الملوك، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

16. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، نسخة
الكثرونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

17. د. عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر،
عام 2002.

18. د. محمد جلال شرف، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، دار
النهضة العربية، بيروت، 1982.

19. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر
من غير، نسخة الكثرونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

20. الزبيدي السيد محمد بن محمد بن عبد الرزاق أبو الفيض، تاج
العروس من جواهر القاموس، نسخة الكثرونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

21. الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د.ت.

22. الزمخشري جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، نسخة الكثرونية
منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

23. الشيرزي عبد الرحمن بن عبد الله، المنهج السلوك، تحقيق ودراسة علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 1، 1987.

24. الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

<http://www.alwarraq.com>

25. الماوردي أبو الحسن علي بن حبيب، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي الدين هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، عام 1981.

26. محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913.

27. المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، نسخة الكترونية منشورة على شبكة الانترنت، موقع:

www.alwarraq.com

28. المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997.

29. الملي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الملي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ت د.

30. محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1913.

رابعاً: فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
5	مقدمة
7	المبحث الأول: تعريف بالمؤلف
8	المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته
8	الفرع الأول: اسمه ونسبه
11	الفرع الثاني: نشأة أبي حمو
14	المطلب الثاني: عودة أبي حمو إلى تلمسان وبداية بروزه على مسرح الأحداث.
14	الفرع الأول: عودته إلى تلمسان
15	الفرع الثاني: بداية ظهور أبي حمو على مسرح الأحداث، ثم وصوله إلى منصب الملك
16	الفرع الثالث: بداية العمل لاستعادة ملك بني زيان.
19	المطلب الثالث: آثار أبي حمو موسى
22	المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه ومدحه
28	المبحث الثاني: تعريف بالكتاب وعملي في تحقيقه.

29	المطلب الأول: التعريف بالكتاب.
29	الفرع الأول: اسم الكتاب ووصفه ونسبته إلى أبي حمو
31	الفرع الثاني: موضوع الكتاب ومنهج المؤلف في إعدادة
39	الفرع الثالث: أهمية الكتاب.
42	المطلب الثاني: عملي في تحقيق المخطوط.
	كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك
45	مقدمة
	الباب الأول: في الرصايا والأدب والحكم التي ترشد إلى طريق
49	الصواب
	الفصل الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي
50	بالفضل
	الفصل الثاني: توصية ترشد إلى تغليب العقل على الهوى والحظ
55	على ملازمة التقوى
	الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال
62	
	الباب الثاني: في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه في قوام
79	سلطانه
80	الفصل الأول: قاعدة العقل

- 82 القسم الأول: الملك الذي له عقل يصلح به دنياه وأخراه
- 85 القسم الثاني: وهو الملك الذي له عقل يصلح به آخرته دون دنياه.
- 86 القسم الثالث: الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون أخراه
- 89 القسم الرابع: ملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته
- 93 الفصل الثاني: القاعدة الثانية، وهي قاعدة السياسة
- القسم الأول من قاعدة السياسة: أن تكون سياسة الملك عن تدبير سديد ورأي مصيب رشيد
- 93
- 147 القسم الثاني من قاعدة السياسة: أن تتزل الناس في منازلهم
- القسم الثالث من قاعدة السياسة: أن يجري مع الناس على وفق زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم
- 152
- القسم الرابع من قاعدة السياسة: أن يكون الملك يقضانا ماهرا حازما دهقانا، ضابطا لأمواره
- 154
- 197 الفصل الثالث: القاعدة الثالثة، وهي قاعدة العدل
- القسم الأول: أن يكون الملك عدلا في نفسه، عدلا في رعيته وأهله وخاصته
- 198
- 199 القسم الثاني: أن يكون الملك عادلا في نفسه وخاصته وأقاربه
- القسم الثالث: أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة

200 القسم الرابع: أن يكون جاريا على غير الأمور الشرعية العادلة

201 **الفصل الرابع:** القاعدة الرابعة، وهي قاعدة جمع المال والجيش

201 القسم الأول: أن يجمع الملك والجيش والمال بقدر ما تحب إيالته من البلاد

204 القسم الثاني: أن يكون الملك يشتغل بجمع المال ويفرط في الجيش

206 القسم الثالث: أن يكون الملك يشتغل بجمع الجيش ويفرط في المال

208 القسم الرابع: ضد الأول، وهو أن يكون الملك يفرط في الجيش والمال

الباب الثالث —————: في الأوصاف المحمودة التي هي نظام

210 الملك وجماله وبهجته وكماله.

211 **الفصل الأول:** القاعدة الأولى، وهي الشجاعة

212 القسم الأول: الشجاعة التي يصحبها الرأي

217 القسم الثاني: من الشجاعة ما يصحبه العقل دون الرأي

217 القسم الثالث: أن تكون شجاعته غير مفرطة بل بين ذلك متوسطة

218 القسم الرابع: الشجاعة التي لا يصحبها عقل ولا رأي

219 **الفصل الثاني:** القاعدة الثانية، وهي قاعدة الكرم.

219 القسم الأول: أن يكون الملك كريما متوسطا

القسم الثاني: أن يكون الملك كريما على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته

220

القسم الثالث: أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله دون رعيته

220

القسم الرابع: أن يكون الملك كريما على نفسه دون خاصته ولا رعيته

221

الفصل الثالث: القاعدة الثالثة، وهي قاعدة الحلم

222

القسم الأول: أن يكون الملك حليما على خاصته ورعيته

222

القسم الثاني: أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة

222

القسم الثالث: أن يكون حلمه على الخاصة دون العامة

223

القسم الرابع: أن يكون حلمه مضطربا

223

الفصل الرابع: القاعدة الرابعة، وهي قاعدة العفو

224

القسم الأول: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة

224

القسم الثاني: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو ومن لا يستحق العفو

225

القسم الثالث: أن يكون العفو من الملك متوسطا

225

القسم الرابع: أن يعفو الملك عمن لا يستحق

226

الباب الرابع: في الفراسة وهي خاتمة السياسة

227

228	الفصل الأول: فراسة الملك مع وزيره
231	الفصل الثاني: فراسة الملك مع جلسائه
234	الفصل الثالث: فراسة الملك مع كاتبه
236	الفصل الرابع: فراسة الملك مع قضاته وقادته وجيشه
240	الفصل الخامس: فراسة الملك مع صاحب أشغاله وحكامه
243	الفصل السادس: فراسة الملك مع عدوه ورسله
254	تكملة الكتاب
271	ملحق
291	فهرس الآيات
292	فهرس الأحاديث
294	بعض المصادر والمراجع المعتمدة
298	فهرس الموضوعات